الفصل الثاني

أغراض الشعر الهُذَلي

الشعر العربي شعرٌ غنائي، يَتغنَّى فيه الشَاعرُ بعواطفه، ويصف به مشاعرَه، فليس في المأثور منه ملاحمُ ولا شعرٌ تمثيلي بالمعنى السائد المعروف الآن(١).

وأغراضُ الشِّعْرِ أو فنونُه ـ عند العرب هي ألوانُ هذا الشِّعْرِ الغنائي، الذي كان مبعثُهُ استجابةً لأحاسيس النُّفوسِ من حُبٍّ وبُغضٍ، والتعبير عن رغباتها من إذاعة المكارِم، ونَشْرِ المحامد، وتصويرِ عاطفةٍ آلَمَها فقدُ حبيبٍ، أو موتُ عزيزٍ ونحو ذلك.

ومن هنا تنوَّعَتْ أغراضُه، وتشعَّبَتْ فنونُه، فتناول الغزلَ والمدحَ والفخرَ والهجاءَ والرثاءَ والوصفَ والحماسةَ والاعتذار وغيرَها، ولكلٍّ غرضٍ سِمَتُه التي تصاحبُه، ولكلٍّ فَنٍّ لغتُه التي تُناسبُه،وأسلوبُه الذي يُقاربهُ، فالغزلُ يحتاج إلى رقَّة اللفظ وعذوبته، والفخرُ يستدعي قوَّةَ الأسلوب وفخامتَه، وإلى جانب جمال المباني يلاحظ روعة المعاني في مجال الابتداع والافتراع في أيٍّ من الأغراضِ ومن ثَمَّ قد يصلُ الشاعرُ في بعضِها إلى النّجادِ بينما ينزلِ في بعضٍ آخرَ إلى الوهادِ.

---

(١) هذا في العصر الجاهلي وما وليه، وإلا فقد ثبتَ ثبوتاً قطعياً أنَّ اليونانيين القدماء قد أخذوا شِعْرَ الملاحم عن البابليين «العرب القدماء»، متمثلة في ملحمة «جلجامش» التي ألفت في عهود مختلفة يرجع بعضها إلى أيام السومريين.. إلى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام، وتوجد هذه الملحمة في مكتبة ملك آشور «نيبال» وبها اثنا عشر لوحاً تتضمن هذه الملحمة، والآشوريون والسومريون من الجنس العربي الذي ساد قديماً، وقد تم اكتشاف هذه المكتبة بوساطة الأثريين الفرنسيين والبريطانيين، وتوجد هذه الألواح الآن في المتحف البريطاني بلندن.
وقد ثبتَ تاريخياً أنَّ هوميروس نظمَ ملحمتَهُ في أزمير أو قريباً منها في جزيرة «خيوس» -أي في شرق آسية الصغرى التي كانت تعد موطناً ثانياً للحضارة البابلية.
راجع النصَّ الأصلي لملحمة «جلجامش» في (٢ : ٢٣٩) من قصة الحضارة تأليف ديورانت، وترجمة محمد بدران، والتوجيه الأدبي لطه حسين وآخرين ص١٥ سنة ١٩٤٠، ورسالة الدكتوراه «ملامح الأصالة في الشعر الأندلسي» تأليف الدكتور جلال صابر عوض حجازي مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة (من ص٤٥٠ إلى ص٤٩٧) وتعدُّ كتابتُه الواسعة ثبتاً علمياً في هذا الشأن.

قال ابن قتيبة: "والشعراء في الطبع مختلفون: منهم من يَسْهُلُ عليه المديحُ ويَعْسُرُ عليه الهجاءُ،ومنهم من يتيسَّرُ له المراثي ويتعذَّرُ عليه الغزلُ. وقيل للعجّاج: إنك لا تحسنُ الهجاء؟ فقال: إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نَظْلِمَ، وأحساباً تمنعنا من أن نُظْلَمَ، وهل رأيت بانياً لا يحسنُ أنْ يَهْدِمَ؟.

وليس هذا كما ذكر العَجَّاجُ، ولا المَثَلَ الذي ضربه للهجاء والمديح بشكلٍ، لأنَّ المديحَ بناءٌ والهجاءَ بناءٌ، وليس كلُّ بانٍ بطوبٍ بانياً بغيره، ونحن نجدُ هذا بعينه في أشعارهم كثيراً. فهذا ذو الرُّمَّة، أحسنُ الناسِ تشبيهاً،وأجودُهم تشبيباً، وأوصفهم لرملٍ وهاجرةٍ وفلاةٍ، وماءٍ وقرادٍ وحيَّةٍ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع،وذاك أَخَّرَهُ عن الفحول، فقالوا: في شعره أبعارُ غزلان ونُقط عروس، وكان الفرزدقُ زيرُ نساءٍ،وصاحبُ غَزَلٍ،وكان مع ذلك لا يجيد التشبيبَ، وكان جريرٌ عفيفاً عزهاة[1] عن النساءِ،وهو مع ذلك أحسنُ النَّاسِ تشبيباً، وكان الفرزدقُ يقول: "ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شِعْرِي، وما أحوجني إلى رِقَّةِ شِعْرِه لما تَرَوْنَ"[2].

ونُقّاد العرب يختلفون في عدد هذه الأغراض أو الفنون، وفي الألوان التي تَنْدَرِجُ تحتَ هذه الأعداد، فبعضُهم يجعلُها أربعةَ فنون هي: الفخر، والمديح، والهجاء، والنسيب، ويَعدُّها بعضُهم أربعة كذلك، ولكنه يضع الوصفَ مكان النسيب بينما يضعُ الآخرُ الرثاءَ رابعاً للمدح والهجاء والنسيب، أو يضع الاعتذارَ مكان الرثاء. أو يجعلها أربعة هي: المديح، والهجاء، والحكمة، واللهو، ويفصل البعض هذه الأربعة بما يشمل ألواناً كثيرة من الشِّعْرِ العربي، فيجعل المديحَ شاملاً للثناء على الأحياء، وهو ما نسميه عادة بفنِّ المدح، وللثناء على الميت، وهو الرثاء، وللثناء على النفس، وهو الفخر، وللثناء على المُنْعِمِ وهو الشكر، ويجعل الهجاء شاملاً للذَّمِّ وهو ما نسميه عادة بفنِّ الهجاء، وللعتاب، وللاستبطاء، بينما تشمل الحكمة الأمثال، والتزهيد، والموعظة، كما يشمل اللهو الغزل،ووصف الخمر[3].

وذكر أبو هلال العسكريُّ أنَّ أغراضَ الشُّعراء كثيرةٌ، ومعانيَهم متشعبةٌ جمَّةٌ لا يبلغها الإحصاءُ، وذكر أن أشهر فنون الشعر ستة هي: المدح، والهجاء، والوصف،

---

(١) العزهاة بكسر العين: العازف عن اللهو والنساء، لا يطرب للَّهْوِ، ويبعد عنه.

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٩٤.

(٣) انظر أسس النقد الأدبي عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوي ص١٣٤.

والنسيب، والمراثي، والفخر[١]. أما أبو العباس ثعلب فقد ذكر أن فنون الشِّعْرِ سبعة هي: المدحُ والهجاءُ والمراثي والاعتذارُ والتَّشْبيبُ والتَّشْبيهُ واقتقاصُ الأخبار[٢]. أما ابن رشيق فقد جعلَها تسعةَ فنونٍ كُلُّ فَنٍّ منها في باب مُستقلٍّ وهي: النَّسيبُ، والمديحُ، والافتخار، والرثاء، والاقتضاء والاستنجاز، والعتاب، والوعيد والإنذار، والهجاء، والاعتذار[٣].

وإذا كان بعضُ النُّقَاد قد وصلَ بهذه الأغراض إلى تسعة فقد أجملَها بعضُهم في اثنين هما: المدح والهجاء[٤]، مُدْخِلاً في المدح: الرثاء والفخر والتشبيب وتمجيد الخُلُقِ، ويدخل فيه الأمثال والحِكَم والمواعظ والزهد في الدنيا والقناعة. ومُدْخِلاً في الهجاء كل ما عدا هذه الأنواع، فالهجاء ضد ذلك كله. غير أنه جعل العتاب وسطاً بين المدح والهجاء، لأنه حال بين الحالين، فهو طرف لكلٍّ واحدٍ منهما.

على أن بعضَهم قد جعلَ الشِّعْرَ العربيَّ كلَّه وصفاً، مُدْخِلاً تحت الوصف كلَّ فنون الشِّعْرِ، فالمدحُ وَصْفٌ للممدوح، بصفات النُّبْلِ، والهجاءُ وصفٌ للمَهْجُوِّ بصفات الذَّمِّ، والنَّسيبُ وصفٌ للحبيبة الجميلة حيناً،ووصف للمُحبِّ وما يلقاه في سبيل حُبِّه حيناً آخر،والرثاء وصف لفقيدٍ عزيزٍ، وفاقدٍ مُتألِّمٍ، وهكذا نجد الوصفَ أساساً لكلِّ فنون الشِّعْرِ العربي[٥].

والحق ما ذكره الدكتور أحمد أحمد بدوي من أن ذلك الخلافَ بين النُّقّاد يُعَدُّ خلافاً لَفْظيّاً لا نتيجةَ له، إذ إننا سواء ارتفعنا بعدد هذه الفنون، أو نزلنا بها إلى واحد، فإن ذلكَ لا يغيِّرُ من الحقيقة شيئاً، فمن اقتصرَ على العدد القليلِ أدخلَ الفنونَ بعضَها في بعضٍ كمن لا يعدّ الرثاء، أو النسيبَ مُدْخِلاً إياهما في المدح، أو مَن لا يعدُّ الفخرَ مُكْتفياً بالمديح أيضاً، أو لا يذكر العتابَ، لأنه في رأيه من بين ألوان الهجاء... وهكذا[٥].

---

(١) كتاب الصناعتين ص١٣٧.

(٢) قواعد الشعر لثعلب ص٢٨ ط الحلبي سنة ١٩٤٨م.

(٣) راجع العمدة جـ٢.

(٤) العمدة لابن رشيق ١ / ١٢١.

(٥) انظر أُسُس النقد الأدبي عند العرب د. أحمد أحمد بدوي ص١٣ في الموضعين.

ولقد حاول بعضَ الأدباء والنّقّاد تبويبَ الشِّعْرِ العربيِّ،وتقسيمَه إلى أقسام تَجْمَعُ مُتَفَرِّقَه وتَلُمُّ شَعْثَهُ، ولكنَّهم اختلفوا في ذلك على مدى العصور . فأبو تمام في الحماسة يقسم الشِّعْرَ إلى عشرة أبواب هي: الحماسة، والمراثي، والأدب، والنسيب، والهجاء، والأضياف ومعه المديح، والوصف، والسير،والمِلَح، ومذمّة النِّساء.

ونلاحظ أن الثلاثة الأبواب الأخيرة ليست بذات خَطَرٍ، لأنه يمكن إدماجُها في غيرها أو إهمالُها، وبهذا يصبح المعوّلُ عليه هو الأبوابُ السبعة الأولى التي ظلَّت الأبواب الهامة للشعر العربي.

أما البُحْتُرِيّ فحين جمَعَ مختارات حماسته من الشِّعْرِ العربيِّ قسمها إلى أربعة وسبعين ومائة باب محاولاً أن يحصرَ الموضوعاتِ التي طرقها الشعراء. "على أنّ هذه المحاولةَ قد زادت التقسيمَ إبهاماً وغموضاً وتعقيداً فالأبوابُ الواسعةُ يمكن أن يندرجَ تحتها كثيرٌ من الأشعارِ المتقاربة في المنهاج والهدَف، ومرونة الأقسام تساعد على الاستيعاب والحصر. أما الموضوعات الضيقة فتمنع أن يدخلَ فيها أشعارٌ أخرى مهما اشتد الشبه وتماثلت السمات بينهما،وليس في هذا التقسيم فائدة إلا لمن أرادَ البحثَ عن بعضِ ما قيل في موضوع خاصٍّ، كالمطالبة بالثأر، أو ركوب الموت خشية العار، أو بالامتناع عن الصُّلْحِ، فهذا كله قد نجده في باب الحماسة من كتاب أبي تمام ولكنه ليس مقسماً إلى هذه الأقسام المحدودة"(١).

وكان الذَّوقُ العربيُّ بوجه عامٍّ يفضل من بين أغراض الشِّعْرِ أربعةً، ويؤثرُها على غيرِها، وهي: النسيب والفخر والمديح والهجاء، يؤثرونها لأنَّ لها صلةً وثيقةً بحياة الشعور والاجتماع. فالنسيبُ لشيوع الغناء وكثرة المغنيين، وانتقائهم أحسنَ الشِّعْرِ تصويراً للجوانح، وإبانةً عن نوازع الفؤاد، ووصفاً لما يكابده المحبّون من صَبابَةٍ وحُرْقَةٍ.

والأغراض الثلاثة الأخرى هي صورُ الحياة الاجتماعية عند العرب بما فيها من عصبيةٍ ونضالٍ واكتسابِ معايشَ، ورسالةُ الشِّعْرِ الأولى عندهم هي:تصوير حياتهم الروحية، ورسم جوانبهم الاجتماعية، فما صَوَّرَها من الأغراضِ كان أفضلَ، ومَن أحْسَنَ تصويرَها كان أَشْعَرَ(٢).

---

(١) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. عبد الحميد المسلوت ص٢٥٠.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب للأستاذ طه أحمد إبراهيم ص٦٢ بتصرف.

وإنَّ الناظرَ فيما بين أيدينا من أَشْعارِ هُذَيْل يجدُ أنَّ جُلَّ فنون الشِّعْرِ فيها ظاهرةٌ ومتحقّقَةٌ بأروع أسلوبٍ، وأجلَى بيانٍ. وسوف أَعْرِض في هذا الفصلِ لأَشْهَرِ أغراضِ الشِّعْرِ الهُذليِّ وفنونه وهي: الغزل، والفخر، ووصف الحيوان، والحماسَة، والرثاء. وهناك موضوعات أُخَرُ خاضَها الشُّعراءُ الهُذَليون إلا أنها لم تكن في قُوَّةِ أو شيوعِ الأغراضِ السابقة،وذلك كالهجاء والمدح والعتاب والحكمة، وبكاء الشباب إلى غير ذلك من الأغراض التي خاضوها وتحدثوا عنها، وبرعوا فيها.

والحقّ أن شُعراءَ هُذَيْلٍ سَجَّلوا في أشعارِهم كلَّ ما كانوا يشاهدونه في حياتهم وما كانت تقع عليه أعينُهم من مظاهرِ الوجود حولَهم ـ كما سيأتي ـ ولذلك كان شِعْرُهم سِجِلاً صادقاً ورائعاً، أبرزَ مجدَ قبيلَتهم بين القبائل، ورفع شأنَها بين البطون والأفخاذ، ولا غروَ أنه كان صفحةً ناصعةً مُشرِقَةً وفوحةً رائعةً مونقةً بين صفحاتِ الشِّعْرِ العربي الجيِّدِ الأصيلِ.

١- الغــزلُ:

الغزلُ، والنسيبُ ،والتَّشْبيبُ، هذه الكلماتُ الثلاثة لا نكاد نجدُ فرقاً بينها في الاستعمال اللُّغويِّ، فاللُّغويون يُعَرِّفون إحدى هذه الكلمات بالأخرى. ففي اللسان: أنَّ الغزلَ حديثُ الفتْيان والفَتَيات، واللهوُ مع النساء، ومُغازَلَتُهنَّ: مُحادثَتُهُنَّ ومُراودَتُهُنَّ، والتَّغَزُّلُ: التَكلُّف لذلك، وفي المثل هو أغزلُ من امرئ القيس[١].

ويقولُ في موضعٍ آخر:نَسَبَ بالنِّساء يَنْسبُ نَسَباً ونَسيباً ومَنْسبة: شَبَّبَ بهنَّ في الشِّعْرِ وتَغَزَّل[٢]، وفي موضع ثالث: شَبَّبَ بالمرأة:قالَ فيها الغَزَلَ والنَّسيبَ، وهو يُشَبِّبُ بها، أي: يَنْسُبُ بها[٣].

ونُقّادُ العربِ في أكثرِ الأحوال لا يكادون يفرقون بين هذه الكلمات الثلاث، وليس معنى ذلك أنه لا فرقَ بينهما في أصلِ المعنى. فالغزلُ في أصله حديثٌ إلى النساء، والنَّسيبُ أن يَنْسبَ الشَّاعرُ إلى نفسه هوىً مُبْرِحاً وحُبّاً عنيفاً، وأن يتحدّث عما ينسبُ إلى المرأة من ديارٍ وآثارٍ. أما التَّشْبيبُ فيجوز أن يكونَ مُشتقّاً من الشبيبة،

---

(١) لسان العرب (غزل) ٤/٤.

(٢) المرجع السابق (نسب) ٢/٢٥٣.

(٣) المرجع نفسه (شبب) ٢/٤٦٣.

ويجوز أن يكونَ من الجلاء، يقال: شَبَّ الخمارُ وجهَ الجارية إذا جَلاه، وَوَصَفَ ما تحته من محاسنه، فكأنَّ هذا الشاعرَ قد أبرزَ هذه الجاريةَ في صفته إياها، وجلاها للعيون[1]، فالصلة وثيقة بين أصول معاني هذه الكلمات وبين المعنى الذي يدلُّ عليه هذا الفن.

فالأدباء والنُّقّاد يطلقون هذه الألفاظَ على تلك الأشعار التي تحملُ حُبَّ المرأة والحديثَ عن جمالها، وما تثيره في القلوب من هيام وصَبْوَةٍ، والتي تَنْطِقُ بكلِّ ما يتعلق بها من حُبٍّ ووصْلٍ وصَدٍّ وتقريبٍ وهِجْران، ففي العمدة أنَّ" النسيبَ والتَّغَزُّلَ والتَّشْبِيبَ كلّها بمعنى واحد..."[2].

فهذه الألفاظُ أصبحت كلُّها تحملُ معنىً واحداً هو الحديثُ عن المرأة وما يتصلُ بها.

ولقد آثرتُ كلمةَ "الغزل" لأنها أكثرُ استعمالاً وشيوعاً في عصرنا الحديث، وإن كانت كلمةُ النَّسيبِ أكثرَ استعمالاً لتدلّ على هذا الفنِّ عند نُقّادِ العرب وشُعرائهم.

وأشعار هذيل زاخرةٌ بالغَزَل، فكثيرٌ من أشعارهم وقصائدهم يتصل بالمرأة ويصفُ حُسْنَها ويشيدُ بجمالها، ونرى الشُّعراء يفرحون بقربها، ويألمون لبعدها، مما يبيِّنُ شدَّة تأثيرها على النَّفْسِ، بما تجودُ به من وَصْلٍ، أو توزعه على صرعاها من دَلالٍ وصَدّ، ومن ازورارٍ وهِجران.

فكانت المرأة العربية ذاتَ تأثيرٍ ساحرٍ على عَقْلِ الرجلِ وقَلْبه، وعواطفه ومشاعره وهو يقتحم الصعوبات ويخوض الغَمَرات، ويركب الأهوالَ من أجلها، لذلك كان الشُّعراء لا يفتَؤُون يُردِّدون ذكرَها في كلِّ مناسبةٍ للقولِ يفتتحون بها أشعارهم، ويبدؤون قصائدَهم ويقفون على أطلالها باكين، ويلمون بمنازلها متشوقين.

ولقد كانَ من شعراء هُذَيْلٍ مَن تَحدَّثَ عن المرأة حديثَ الذي تَتَمَلَّكُه الشهوةُ وَتَسْتَبِدُّ به الصَّبْوَةُ، وكانت نفوسُهم الصافية ومشاعرُهم المُرْهَفة، وقلوبُهم التي تَخْفِقُ للجمالِ، تدفعُهم إلى الغزل، فيقولونه عن عاطفة صادقة، لا عن تقليد وصناعة.

---

(١) انظر أسس النقد الأدبي عند العرب د. أحمد أحمد بدوي ص١٣٩.

(٢) العمدة لابن رشيق ٢/١١٦.

واشتهر من شعرائهم في هذا الميدان ساعدةُ بن جُؤَيَّةَ، والْمُتَنَخِّل، وسهم بن أسامة بن الحارث وغيرُهم، ثم بعد الإسلام نرى مُلَيْحَ بنَ الحَكَمِ القرْديَّ الذي كان جلُّ شعرِه في الغزلِ، وعبد الله بن مسلم بن جُندُبِ الذي كان شاعراً غَزِلاً رقيقاً،وكثيراً ما بكى حبّ المرأة، وشكا من ذلك طويلاً في أشعاره، ثم اشتهر من شعراء هُذَيْلٍ في العصر الأموي أبو صخر الذي كان أكثرُ شعرِه في الغزل، حتى عُرِفَ بذلك في هذا الفنِّ، وله قصائدُ كثيرةٌ في الغزلِ فقط، وقد اختار له أبو تمام في حماسته مقطوعتين غزليتين(١)، وسيأتي أنه لم يختر في حماسته إلا أربع مقطوعات من أشعار هُذَيْل.

وكثيراً ما كان شعراء هُذَيْلٍ يبدؤون أشعارَهم بالغزل والتَّشْبيب،ثم ينتقلون إلى أغراضٍ أخرى في القصيدة،ولندعْ هذا لأنه شيءٌ تقليديٌّ شاعَ في الجَاهليّة بوجهٍ عامٍّ، ولكن ليس معنى ذلك أن هذا النوعَ كان يخلو من التجاربِ الصادقة، فكثيراً ما كان يحملُ في طيّاته تجاربَ حقّةً عاشها الشاعرُ في الماضي، وقد يصفُ فيه حُبّاً ذَوَى أو عهداً مضى، أو زمناً ذَبَلَتْ فيه بعد نضارتِها الزُّهورُ.

ولنتكلم عن الغزلِ والنَّسيب من حيث هو الغرضُ الأساسي في القصيدة، لأن الأمرَ فيه أكثرُ وضوحاً وأشدُّ لمعاناً، و"المرأةُ فيه تُقْبِلُ على الرجل والرجلِ يُقبل عليها والاثنان يعطيان هذه المعاني المستمدّة من غريزتيهما وقلبيهما، فلن نجدَ الحبيبة رشأً أكْحَلَ فقط، ولا نعجة مغزلة ولا أَيْماً ملوناً، ولكنا سنراها إنساناً يتحرك، وقلباً يَخْفقُ، وصوتاً يتكلَّم، والرجلُ معها مفتونٌ بها، حريصٌ عليها،ومعنى ذلك كلّه أنَّ الصورة هنا سَوِيَّةٌ نلمسُها فيما ينعتها به"(٢).

فهذا الْمُتَنَخِّلُ يبدأ قصيدتَه الطائية بوصف الأَطلالِ، إلا أن الغزلَ هو الغرضُ الأساسي من القصيدة، يقول:

عَرَفْتُ بأجْدُثٍ فَنِعافِ عِرْقٍ ... علاماتٍ كَتَحْبِيرِ النِّماطِ
كَوَشْمِ المِعْصَمِ المُغْتالِ عُلَّتْ ... نَواشِرُهُ بِوَشْمٍ مُسْتَشاطِ
وما أنتَ الغداةَ وذكرُ سَلْمَى ... وأَضْحَى الرأسُ منكَ إلى اشْمِطاطِ

(١) ديوان الحماسة ط صبيح ٢/ ٦١، ٦٢.

(٢) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص١٥٨.

obeikandl.com

كـأنَّ على مَـفـارِقِـهِ نَسِـيـلاً ... مِنَ الكَتَّـانِ يُنْزَعُ بالمِشَـاطِ (١)

وهو لا يعنيه من مَحْبُوبته أُميمةَ أن تنأى عنه، ولديه الحورُ يلهو بهنَّ، ويتقلبن بين يديه، ويبيتُ وإياهنَّ على فُرُشٍ فاخرةٍ مُطَيَّبَةٍ، فصاحباته من حُسْنِهنّ ظباءُ تَبالَةَ، يقول:

فـإمَّـا تُعْـرِضَنَّ أُمَـيْمَ عَنِّي ... ويَنْزِعْكِ الوُشَـاةُ أُولُو النِّبَـاطِ

فَحُـورٍ قد لَهَوْتُ بِهِنَّ وَحْـدِي ... نـواعِـمَ في المُروطِ وفي الرِّيَـاطِ

لَهَـوْتُ بِهِنَّ إذ مَلْقِي مَليحٌ ... وإذْ أنا في المَخِـيلَةِ والشِّطاطِ

أَبيتُ على مَعَـارِيَ فـاخـراتٍ ... بهنَّ مُلَوَّبٌ كَـدَمِ العِبَـاطِ

يُقـالُ لهنَّ من كرمٍ وحُسْنٍ ... ظِبـاءُ تَبَـالَةَ الأُدْمُ العَـوَاطِي (٢)

ثم أخذ يصوِّرُ الساقي وهو يسعى بأقداحِ الشراب ـ وكان الساقي فتىً أعجمياً ـ يصف الشاعرُ الخمرَ في إنائها صافيةً ساكنةً تتناولها الأيدي فَتَلَذُّ لسورتها، وكيف يشعشعونها بالماء حتى ترقَّ وتخفَّ حموضتُها، يقول:

يَمَـشِّي بَيْنَنا حـانوتُ خَمْرٍ ... من الخُرْسِ الصَّراصِرَةِ القِطَاطِ

رَكُـودٍ في الإناءِ لها حُمَيَّا ... تَلَذُّ بأَخْذِهَا الأيْدي السَّواطِي

مُشَعْشَعَةٍ كَعَيْنِ الدِّيكِ لَيسَتْ ... إذا ذِيقَتْ من الخَلِّ الخِمَـاطِ (٣)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١٢٦٦ أَجْدُثٌ ونعافُ عِرْقٍ: مواضع، كتحبير: كتَنْقيش، النِّماط: جمع نَمَط، الوشم: أن يوشم الذراع واللثة بالإبرة ثم يحشى نَؤُوراً، المعصم: مَوْضِع السوار من الذراع، المُغتال: الممتلئ، نواشره: عَصَبُه، مُسْتَشاط: استُشيط، أي: طارَ كلُّ مَطير، وانتشر في الساعد، وهذا مَثَلٌ، أي: حُمِل على أن يَسْتَشيطَ، من الكتّان، أي: مِثْل ما يُسَرَّحُ من الكَتَّان، يَنْسل منه، أي: يَخرج، يريد بياضاً إلى صُفْرَةٍ.

(٢) يَنْزعكِ: يَوَدُّونَك ويُقَرِّضونك، أُولو النِّباط: الذين يَستنبطون الأخبارَ ويَستخرجونها، الحور: الشديدة بياض الحَدقة الشديدة سوادها، مَلقي: لين كلامي وهو التَّمَلُّق، الشِّطاط: حُسْنُ القَوام، المَخيلة: الخُيَلاء، المُلَوَّبُ: المَطْليّ بالطيب المَلاب، العباط: جمع عَبيط وهو ما ذُبح أو نُحر من غير مرض فدمُه صاف، العواطي: اللواتي يتناولن أطراف الشجر والواحدة عاطيَة.

(٣) من الخرص الصرارة: يريد أعجمياً من نَبَط الشام، القطاط: الجعاد والواحد قَطَط وهو أشدُّ الجُعودة، ركود، أي: صافية ساكنة، حُمَيّاها: سَوْرَتُها، السَّواطي: التي تسطو عليها وهي المتناولة والواحدة ساطيَة، المشعشعة، التي قد أُرِقَّ مَزْجُها، والخَمْطَة: التي قد أخذت ريحاً ولم تَسْتَحْكِمْ ولم تبلغ الحُموضة بَعْدُ.

وكأن المُتَنَخِّل كان حريصاً على بدء الغزلية بالأطلال، فهو في قصيدةٍ أُخرى يبدؤها بذكرِ المنازل والأطلال، يقول:

هلْ تعْــــرِفُ المَنْزِلَ بالأَهْيَلِ ... كالوَشْمِ في المِعْصَمِ لم يَخْمَلِ

وَحْشاً تُعَفِّيه سَوافي الصَّبَا ... والصيفُ إلا دِمَنَ المَنْزِلِ (١)

فالأَهْيَلُ اسم مكان، وحبيبتُه التي كانت فيه قد ظَعَنَتْ مع أهلها، ولم يبقَ من آثارِهم إلا الدِّمَنُ. وهنا يتذكر الشاعرُ ما كان هناك من نعيم الحياة التي كانت تملأ عليه الأفق، وكيف أنها مضت مع ذكرى، فيعتصره الحزنُ، وتنساب دموعه، فيقول:

فانْهَلَّ بالدمعِ شُؤُوني كأَنَّ ... الدَّمْعَ يَسْتَبْدِرُ من مُنْخُلِ (٢)

ونمضي مع هذا الشاعر الحزين على محبوبته، حتى نراه يخاطب نفسَه أو قلبَه بأنٍّ أظعانَ هذه المرأة كأنَّه نَخْلٌ قد بانَ منه فَسِيلُه، يقول:

ذَلكَ ما دِينُكَ إذ جُنِّبَتْ ... أَحْمَالُها كالبُكُرِ المُبْتِلِ (٣)

وقد يقال إنَّ هذا الحديثَ عامٌ عن أيَّة امرأة، ولكنَّه أفصحَ وذكر أن المرأة من كِنانَةَ، وأخذ يصف جمالَها الساحرَ، وحُسْنَها الفاتنَ، فهي كالرشأ الأَكْحَل في حُسْنِها، أو كالأَيْمِ - أي الحيَّة - التي لها مثل الخوصتين في جنبها، أو كناشئ البَرْدِيّ. كذلك وصف ابتسامتها وفمها المستوي وأسنانها البيض اللامعة، فهي أسنان شباب لم يطل الأكل عليها ولم يكسرها حد الزمان، ولهذا شبه أسنانها بالأقحوان الذي صبحه المطر وغسل عنه التراب... يقول:

عِيرٌ عليهنَّ كِنَانِيَّةٌ ... جَارِيَةٌ كالرَّشَإِ الأَكْحَلِ

كالأَيْمِ ذِي الطُّرَّةِ أو ناشِئِ الـ ... ـبَرْدِيِّ تحتَ الحَفَإِ المُغْيِلِ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١٢٤٩ الأهيل: مكان، لم يَخْمَل: لم يوشم وشماً خاملاً فهو بيِّنٌ، السَّوافي: ما تَسْفي الريحُ، أي: ريح الصَّبَا، دِمَنُ المَنْزِل: ما بقي من آثار الناسِ وما سَوَّدُوا بالرماد وغيرِ ذلك، والمراد أنَّ الريح عَفَت آثارَ الناس وبقيت دِمَنُ المنزل.

(٢) انهل: سالَ وانصَبَّ، يَستَبدِرُ: يخرُج من مُنْخُلٍ من سرعته، شُؤوني: يجري من شؤون الرأس حتى يسيل من العينين.

(٣) دينُك: دأبك، إذ جُنِّبَت أحمالُها: أخذَتْ أحدَ الجانبين، البُكُر: ما بَكَّرَ من النَّخْل، المُبْتِل: الذي قد بانَ من أمهاتِه.

تَنْكَلُّ عن مُتَّسِقٍ ظَلْمُهُ ... في ثَغْرِهِ الإِثْمِدُ لم يُفْلَلِ

غُرِّ الثنايا كالأقاحي إذَا ... نَوَّرَ صُبْحَ المَطَرِ المُنْجَلِي [1]

وهذا ساعدةَ بن جُؤَيَّة يتغزّل في محبوبته غَضوب، ويلومُها على عدم الوصول، بل ويلوم نفسَه لأنه لم يتركْ ذكرَ الغضوبِ، فما زالَ فؤادُه متعلقاً بها، ولا يستطيع تركها،وذلك حيث يقول:

هَجَرَتْ غَضُوبُ وَحُبَّ مَنْ يَتَجَنَّبُ ... وعَدَتْ عَوَادٍ دُونَ وَلْيِكَ تَشْعَبُ

ومن العَوادي أنْ تَقِيكَ بِبِغْضَةٍ ... وتَقاذُفٍ مِنْها وأَنَّكَ تُرْقَبُ

شابَ الغُرابُ ولا فؤادُكَ تَارِكٌ ... ذِكْرَ الغَضُوبِ ولا عِتابُكَ يُعْتَبُ [2]

ونمضي معه في قصيدته حتى نراه يصرِّحُ بحبِّه لها، فيقول:

إنِّي لأَهْوَاهَا وفيها لامْرِئٍ ... جَادَتْ بِنائِلِها إليه مَرْغَبُ

ثم أخذَ يصوِّر جمالَها الأَخّاذَ، وحسنَها الفتّان، فوصف ثغرَها الجميلَ وشبَّهَه بالأقحوان، ووصف حلاوةَ ريقِها وشبَّهَه بالخمرِ المصنع من عصير العنب، والمخلوط بالكافور والمسك، ثم وصفَ مَذاقَه لا سيما في هدوء الليل، فشبَّهَه بأَرْي الجوارس - وهو عَسَلُ النحل - الذي خلط بماء باردٍ من مُنْحَنَى الوادي، يقول:

وَمُنَصَّبٌ كالأقحوانِ مُنَطَّقٌ ... بالظَّلْمِ مَصْلُوتُ العَوَارِضِ أَشْنَبُ

كسُلافَةِ العِنَبِ العصيرِ مِزاجُهُ ... عُودٌ وكافُورٌ ومِسْكٌ أَصْهَبُ

خَصِرٌ كأَنَّ رُضَابَهُ إِذْ ذُقْتَهُ ... بَعْدَ الهُدُوِّ وقد تَعَالَى الكَوْكَبُ

أَرْيُ الجَوَارِسِ في ذُؤَابةِ مُشْرِفٍ ... فيه النُّسورُ كما تَحَبَّى المَوْكِبُ

---

(١) الرشأ: الظبي الصغير، ناشئ البَرْدي: صغارُه، الأَيْم: الحيَّة التي لها مثل الخوصتين في جنبها، المُغيل: الذي في الغيل وهو الماء السح، والغيل: الماء الذي يجري بين ظهري الشجر، تَنْكَل: تَضْحَكُ، عن مُتَّسِقٍ، أي: مستو، الظَّلْم: ماء الأسنان، في ثغره الإِثْمَدُ، أي: في أصوله سواد كالإثمد، لم يُفْلَلَ: لم ينكسر، المنجلي: المنكشف.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١٠٩٧ عدت عَوَاد: صَرَفَتْ صَوارِفُ، دون وَلْيِكَ: الوَلْي: المُداناة والقرب، تَشْعَبُ: تُخالفُ قَصْدَك، ببغْضَة: يريد بقوم يُبْغضونك، تَقاذُفٌ: تباعدٌ، تُرْقَب: تُرْصَدُ وتُحْرَس، ولا عتابُكَ يُعْتَب: يُسْتَقْبَل بِعُتْبَى في أمرها، والعَتْبَى: الرجوع.

مِن كُلِّ مُـعْنِقَـةٍ وكُلِّ عِطَافَـةٍ ... مِـمَّـا يُصَـدِّقُـهـا ثَوابٌ يَزْعَبُ

مِنهـا جَـوارِسُ للسَّـراةِ وتَأْتَرِي ... كَـرِبَاتِ أَمْـسِلَةٍ إذا تَتَـصَـوبُ [1]

واقرأ معي هذه الأبيات لساعدةَ أيضاً، يتحدَّث فيها عن حُبِّه، ويؤكِّدُ أنه صادق فيه، بل إنَّ حبَّه لها لا يعادلهُ حبُّ الفقيرِ المعدمِ للمال، يقول في مطلع قصيدة له:

يا نُعْمَ إنيِّ وأيْديهم ومـا نَحَـرُوا ... بالخَيْفِ حيثُ يَسُحُّ الدَّافِقُ المُهجَا

إنِّي لأَهْواكِ حَـقّاً غيـرَ مـا كَـذِبٍ ... ولو نَأَيْتِ سِوَانَا في النَّوىَ حِجَجَا

حُبَّ الضَّـرِيكِ تِلاَدَ المالِ زَرَّمَـةُ ... فَقْرٌ ولم يَتَّخِذْ في الناسِ مُلْتَحَجَا

صِفْرِ المَبَاءَةِ ذي هَرْسَيْنِ مُنْعَجِفٍ ... إذا نظرْتَ إليـه قلتَ قـد فَـرِجَـا [2]

ونلاحظَ أنَّهم لا يفهمون الغَزَلَ إلا في لذَّةٍ حسِّية لدى المرأة، في ثغرِها الجميل وفي ريقها اللذيذ، وفي جسدها المتناسق،فكأن اهتمامهم ينصبُّ على ما تقدمه المرأة من متعةٍ ولذة. والحقّ أن هذه الظاهرة كانت شائعةً حينئذ، وهي أقوى من أن تختفي، فهم عرب، ينزعون نزعاتٍ حسيةً، وهذا شأن الغزل في الجاهلية بوجه عام، وأعتقد أن ذلك كان نتيجة لبيئتهم البدوية، وحياتهم الصحراوية، فمعانيهم أصيلةٌ صادقةٌ، وخيالُهم نابعٌ من نفوسهم، ومُسْتَوْفَى مِنْ مشاهداتهم.

على أنه إذا كانت النزعةُ الحسيةُ والصفاتُ الجسميةُ هي الشائعةُ في الغَزَلِ عند العرب في الجاهلية، فليس معنى ذلك أنهم لم يخرجوا عنها إلى الجمال المعنوي أو النفسي، فالحق أن بعضَ شعراء هُذَيْل كان لا يكتفى بالجمالِ الحسي، بل تحدثوا عن الجمالِ المعنوي أو النفسي، وقد ورد مثل هذا في أشعارهم.

---

(١) مُنَصَّبٌ: ثَغْر يعني أسنانَها، الظَّلْم: ماء الأسنان، أشْنَب: بارد، مُنَطَّق: مستديرٌ، السُّلافة: أول ما يخرج من الدَّنِّ أو العصير، الرُّضَاب: الندى، أو ما تقطَّع في الفم من الريق وهو الأصح، أرْي الجوارس: عَمَل النحل، وهو العَسَل، المعنقة: الطويلة، عطافته: منحاه، ثوابٌ: موضع ما يَثُوب الماء ويجتمع فيه من الوادي، يزعب: يتدافع، الأمْسِلَة: المُسْلان وهي بطون الأودية، الكَرِبات: مواضع فيها غلظ.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١١٧٢ الخيف: موضع، يسح: يصب، الدافق: الناحر، المُهَج: خالص الأنفس، الضريك: الفقير، زَرَّمه فقر، أي: أَفقرَهُ وقطعَ عنه الخير، ملتحجاً: ملجأ، صِفْر المباءة، أي: خالي مبارِك الإبل، ذي هَرْسَين: ذي خَلَقَيْنِ، مُنْعَجِف: مهزول، قد فَرَجا: قد فتح فاهُ للموت.

obeikandl.com

فهذا أبو الحَنَّان الذي لم يصلنا من أشعاره إلا قصيدة واحدة، -وهي في الغزل- نرى فيها الرِّقَّةَ والعذوبةَ، ونلمس فيها أثَر البادية الهادئ الوادع، وهو يذكر فيها حزنَه ولوعته، ثم يصف لنا محبوبته، فيقول:

ألا يا مَنْ لِقلبٍ مُسْتَهامِ ... إلى جُمْلٍ على ضَعْفِ الرِّمَامِ
ونَفْسٍ من هَوىَ جُمْلٍ لَجُوجٍ ... وعَيْنٍ لا تَجفُّ من السِّجَامِ
تُكَلِّفني مُنَاعَمَةً ثَقَالاً ... قَطُوفَ الخَطوِ خَرْعَبَةَ القَوَامِ
كظَبيَ الحِجْلِ واضحةَ المُحَيَّا ... عَديلةَ حُسْنِ خَلْقٍ في تَمامِ (١)

ولكنا نراه لا يكتفي بالنزعة الحسِّيَّة والصفات الجسمية، بل يتكلم عن الجمال المعنوي والنفسي فهي كريمةُ المنصب، وعاليةُ الشرف،ومعرقة في المجد... يقول:

تَروقُ على النساءِ بحُسْنِ دَلٍّ ... ومَنْصِبُها كريمٌ في الكِرَامِ
نَمَتْ في مُعْرَقاتٍ أولاتِ مَجْدٍ ... مُجامَحَةَ الوِصالِ عن اللئامِ

ثم أخذ يصف محبوبتَه ويصوِّرُها بأسلوبٍ يُعنى بالدقائق والتفصيلات، فوصف عينيها وجيدها، ثم ذكر أنها ضخمة وممتلئة الجسم، وهذه صفة كانت محبوبة في الجاهلية... يقول:

لها عينا مَهاةٍ أُمِّ طِفْلٍ ... وجِيدُ أَحَمَّ مُخْتَلَسِ البُغَامِ
من البِيضِ اللُّباخِيَّاتِ خَوْدٌ ... يَجُولُ وِشاحُها جُمُّ العِظامِ (٢)

ونمضي معه حتى نراه ملتاعاً وحزيناً لهذا الفراق، ونراه يؤكِّد حبَّه لمحبوبته جُمْلٍ وجارات جُملٍ، ثم هو لا يقبل العذلَ أو اللومَ في حُبِّ جُمْلٍ، لأنه لا يصبر على الملام ولا يستطيع قطعَ وصالها، وهو حزين القلب دائماً، بَراهُ حبُّ جُمْلٍ، فأمسى كالطليح من الهيام، يقول:

أقولُ وقد بَدَا للنَّفْسِ منهُمْ ... فِراقُ البَيْنِ ليسَ بذي التِئَامِ
علَى جُمْلٍ وجاراتٍ لجُمْلٍ ... نعيمُ اللهِ يَغْدُو بالسَّلامِ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢/٨٩٧.
(٢) اللباخية: الضخمة، جم العظام، أي: هي مغطاة بلحمها.

وأكـثـرَ عـاذِلِي في جُـمْلَ لَوْمي ... ومـا أَنا بالصَّـبُـورِ على المَلاَمِ
وكـيفَ يَروُمُ صُـرْمَ وِصـالِ جُـمْلٍ ... حـزينُ الـقَلْبِ ليسَ له بِذَامِ
بَـراهُ حُبُّ جُـمْلٍ منذُ حينٍ ... فأَمْسَى كالطَّلِيحِ من الهِيامِ (١)

وهذه القصيدة الغزلية في رِقَّتها وعذوبتها تشبه غزلية سهم بن أسامة بن الحارث التي يشبب فيها بامرأة من قومه وهي ليلى بنت الحارث الزُّلَفِيَّة، ومطلعها:

ألا أَرَّقَتْنا بالسُّرَى أُمُّ نَوفَلٍ ... فأَهْلاً بذاكَ الطارقِ المُتَغَلْغِلِ
كما أَرَّقتْ بالطَّفِّ من رَمْلِ عالجٍ ... أُمَيَّةُ بَعْدَ النومِ من أهلِ مَجْدَلِ
وكلتاهُما تَسْرِي وَمِنْ دُونِ أهْلِها ... مَلاً إِنْ تُكَلِّفْهُ المَراسِيلُ تَكْلَلِ
رأيْتُ وأَصحابي بِوَدَّانَ نارَها ... بِقَرْنٍ فطابَتْ نارُها نارَ مُصْطَلِي
إذا ما تَوانَى مُوقِدُ النارِ أو خَبَتْ ... مِن الليلِ شَبَّتْ بالذَكِيٍّ المُكَلَّلِ (٢)

ونرى هذا الشاعر كذلك لا يكتفي بالناحية الحِسِّيَّة، والصورة الجسديَّة، ولكنه يشير إلى الجمال المعنوي أو النفسي، فهي كريمة الحديث، وهي ضنينة بأسرارها، ثم إنها من الشُّمْسِ الشُّمِّ العرانين، دلالة على أصالتها وعلوّ شرفها، فهو يقول:

فقلتُ لأَصْحابِي قِفُوا أَرَّقَتْكُمُ ... كريمةُ خُلْقٍ ذاتُ دَلٍّ مُبَتَّل

إلى أن يقول:

كريمةُ موضوعِ الحديثِ ضَنِينَةٌ ... بأَسْرارِهَا إِنْ تَنْتَحِ البُخْلَ تَجْمِلِ
من البيضِ إِنْ يَسْمَعْ سُهَيلٌ كلامَها ... يَدَعْ قَصْدَ مَجْراهُ سُهَيْلٌ ويَنْزِلِ
من الشُّمُسِ الشُّمِّ العَرانِينِ لم تكُنْ ... تَمالَي لِغَوْغَا الزَّوْمَرِ المُتَعَلِّلِ (٣)

وهكذا كانت المرأة فاتنة دائماً عند الهُذَلِيين، وإلا لما تبلَّتْ فؤادَهم، وملَكَتْ عليهم شعورهم، اقرأ معي لأبي ذؤيب في الغزل قصيدته التي بدأها بذكر الأطلال والمنازل يقول:

---

(١) بذام: عيب، والهيام: العطاش.
(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٥٢٢ الذكي: الذي قد أُذكيت نارُه، مكلل، أي: بالحطب.
(٣) إن تنتح البخل، أي: تريده وتقصده، تمالَى: تهُمُّ به، الزَّوْمَر: اللاعِبُ.

obeikandi.com

أَســاءَلْتَ رَسْمِ الدَّارِ أم لـم تُسَــائِلِ		عن السَّكْنِ أَو عن عَـهْـدِهِ بالأوائلِ (١)

ونمضي معه في قصيدته حتى ينتقل إلى وصف محبوبته، ويصور فيها ما تمتاز به من الحُسْنِ والجمال، فيصف حلاوةَ حديثها ويُشَبِّهه بالعسل المخلوط باللّبَن، مَشيراً إلى أنَّ ذلك اللَّبَنَ من لَبَنِ الأبكار المنتج حديثاً، وقد مُزِجَ ذلك اللبنُ بماءٍ صافٍ مثل، "ماء المَفاصِل" أي مسايَل الجبلِ حيث يصفو الماءُ ويَرِقُّ، ويكون بارداً، فشاعرُنا متيَّمٌ بمحبوبته، فلا غروَ أن يجنَّ جنونُه لجمالها السَّاحرِ، لا سيما ما تمتاز به من طولِ قامتها، وطولِ جيدِها الفاتن، يقول:

وإنَّ حـديثـاً منكِ لو تَبْـذُلِينَهُ		جَنَى النحلِ في أَلْبانِ عُوذٍ مَطَافِلِ
مَطَافِيلَ أَبْكارٍ حديثٍ نِتاجُـها		تُشـابُ بماءٍ مِثْلِ مـاءِ المَفَـاصِلِ
رآهَا الفُؤادُ فاسْتُضِلَّ ضَلالُهُ		نِيَافاً من البيضِ الحِسانِ العَطَابِلِ
فإنْ وَصَلَتْ حَبْلَ الصفاءِ فَدُمْ لهَا		وإنْ صَرَمَتْهُ فانْصَرِفْ عن تَجامُلِ
لعَمْرِي لأَنْتَ البيتُ أُكْرِمَ أَهْلُهُ		وأَقْعُـدُ في أَفْيَـائِهِ بالأَصـائِلِ (٢)

ولكنه في قصيدةٍ أخرى نَراه يبدؤها مباشرةً بالغزلِ بمحبوبته دَهْماء، ونحن نحسن فيها اللوعةَ عليها، ونرى تعلُّقَه بجمالها الفاتن،وحسنها الزافن، ويذكر فيها أنه يتجنب بيتها من شدّة حبِّها، وكيف أن شجوَ الحمامِ يهيجُه، ويبعثُ عنده لوعةَ الحُبِّ، وأَلَمَ الفراقِ، وكيف أنه يرى البلادَ بدونها جَدْباً وإِنْ كانتْ خصبةً،وهو لا يهنأ له مقامٌ بغيرِها،ولذلك يضطر إلى مصانعةِ الواشين والمغرضين تجمُّلاً منه، مع العلم بأنهم يحقدون عليه، ويحملون الضغائن له في قلوبهم، ولا نعجبُ بعدَ ذلك حين نراه يذكرُ أنه يحبُّ العدوَّ الذي يحبُّها، سواء كان العدوُّ يُنْسَبُ لها أو لا يُنْسَبُ من قريبٍ أو بعيدٍ، يقول:

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ١٤٠ والسَّكْنُ: أهل الدار يعني سكانها، الأوائل: القوم الماضون.

(٢) جنى النحل: العسل، العُوذ: جمع عائذ وهي الحديثة العَهْد بالنَّتاج، مَطافل: معها أولادها، أطفال، الأبكار: جمع بكر وهو أوَّلُ بطن وضعَتْه، تُشَاب: تُمزَج، المفاصل: مُنْفَصَلُ الجَبَلِ حيث يصفو الماء ويَرِقُّ، ويقال: هي مفاصل الوادي ومسايله، استُضلَّ ضلالُه: طُلبَ منه أن يَضلَّ فَضَلَّ كما يقال جُنَّ جُنُونُه، النِّياف: الطويلة، العَطابل: جمع عُطْبول وهي الطويلة العُنُقِ، الأفياء: جمع فَيْء وهو الظلُّ، والأصائل: العَشيّات.

يا بَيْتَ دَهْمـــاءَ الذي أَتَجنَّبُ ... ذهبَ الشبـابُ وحُبُّهـا لا يَذْهَبُ
مـالِي أَحِنُّ إذا جِـمَـالُك قُـرِّبَتْ ... وأَصُـدُّ عَنْكِ وأنت مِنِّي أَقْـرَبُ
للهِ دَرُّكِ هَلْ لديكِ مُـعَـوَّلٌ ... لِمُكَلَّفٍ أمْ هَلْ لِوُدِّكِ مَطْلَبُ
تدعُو الحمامةُ شَجْوَها فتَهيجُني ... ويروحُ عـازِبُ شَـوْقِي الْمُتَأَوِّبُ
وأَرَى البـلادَ إذا سكنْتِ بغيـرِها ... جَـدْباً وإن كـانتْ تُطَلُّ وتُخْصِبُ
ويَحُلُّ أهلي بالمكانِ فـلا أرى ... طَرْفِي لغيـرِكِ مَـرَّةً يَتَـقَلَّبُ
وأُصَـانِعُ الواشِينَ فـيكِ تَجَـمُّلاً ... وهُمُ عليَّ ذَوُو ضَغـائِنَ دُؤَّبُ
وتهيجُ سـاريةُ الرياحِ من أرْضِكُمْ ... فـأَرَى الجَنابَ لهـا يُحَلُّ ويُجْنَبُ
وأَرَى العَـدُوَّ يُحِبُّكُم فَأُحِبُّـهُ ... إنْ كـانَ يُنْسَبُ منكِ أَوْ لا يُنْسَبُ (١)

وكثيراً ما نرى عند الهُذَليين الغزلَ العفيفَ، والشكوى من الحبيب، وأحاديثَ الصدِّ والهجران، وذكر البين والفراق، ويتجلَّى ذلك واضحاً عند مُلَيْح بن الحَكَم القَرْديِّ الذي قصر نفسَه على الغزل، فله قصائدُ كثيرةٌ وطويلةٌ وكلُّها لا تخلُو من الغزلِ الرائق،فنراه في إحدى قصائده يبدأ بذكر البَيْن وكيف أنه يخشاه، يقول:

أَجَدَّ الخَليطُ اليومَ أُشْكَ التَّزايُلِ ... فُجاءَةَ فَجَّاعٍ من البَيْنِ عـاجِلِ
مُشتٍّ بأَشْطَانٍ يَبُوصُ خِلاجُهُ ... وداعَ الْمُحَيِّي واختلافَ الرَّسائِلِ
ولما أُوطِّنْ للفراقِ مُفَجَّعاً ... بِشَحْطِ النَّوَى أو بانْبِتاتِ الحبائِلِ
إذا فـارَقَتْ ليلَى تَذَكَّرَ حُزْنَهُ ... وهاجَتْ عليه لائماتُ العواذِلِ
وما خِفْتُ ذاكَ البَيْنَ حتى سَمِعْتُهُمْ ... تنادَوْا بِتَبْكِيرٍ وَرَدِّ الجَمائِلِ (٢)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٠٥، مُعَوَّل: مَحْمِل، لله درُّك، أي: خَيْرُك، لمكلَّف: الذي قد كَلِفَ بها من الحبِّ وتكلَّفَ مالا يطيق، شجْوُها: حُزْنُها، عازب شوقي: ما كان عَزَب فغاب، المتأوب: الذي يرجع بالليل، تُطَلُّ:يصيبها الطَّلُّ، دُؤَّب: يدأبون على ذلك، الجنابُ: ناحيةُ القوم، يَحُلُّ: يُنْزَل، يجنب: تصيبه ريحُ الجنوب.

(٢) المرجع السابق ٣/ ١٠٢٠ أُشْكٌ: سرعةٌ، مُشتٌّ: مُفرِّقٌ، الأشطانُ: الحبال، ويريد الوَصْلَ، يَبُوص: يَسْبِق، خِلاجُه: ما يَذْهَب به، الشَّحطَ: البُعْدُ، الانبتاتُ: الانقطاعُ.

obeikandl.com

ونمضي معه في قصيدته حتى نراه يصفُ الظعنَ، ويعرضُ لليْلاه، وكأنه راقبَها وهي تمتطي الجملَ ـ ويبدو أنها كانت ممتلئة الجسم وضخمةً، فيقول:

إذا هي ناءتْ للقيامِ تَخَضَّدَتْ　　تَخَضُّدَ مَتْنَيْ شارِبِ الرَّاحِ مائلِ
فلما استقرَّتْ فوقَهُ وَهْوَ مُسْتَوٍ　　بِمُخْتَلِفِ الألْوانِ داني السَّدَائِلِ
بَنَى بِيَدَيْهِ صَدْرَهُ ثُمَّ لم يَكَدْ　　يقومُ بها لولاَ اشْتِدادُ المفاصلِ (١)

ولما مضَتْ مع جاراتِها اللواتي مشينَ معها نراه يشبِّه ذلك المنظرَ وقد التففنَ حولَها بالتفافِ النخيل حول الأنهارِ والجداول، يقول:

وعاجَ لها جاراتُها العيسَ فَارْعَوَتْ　　عليها اعْوِجَاجَ المُعْوِذاتِ المَطَافِلِ
فلما اصْطَفَفْنَ السَّيْرَ والْتَفَّ كَوْرُها　　عليها كما التَفَّتْ غُرُوس الجَداولِ (٢)

ثم نراه يصوِّر جزعَه وتدلُّهَه في حُبِّها ويصف إعراضَها عنه وكيف أنها ضَنَّت عليه بالوَداعِ ولم تلتفتْ إليه في هذا الوقت الحزين، فيقول:

جَزِعْتُ بقولٍ ليتَ ليلَى وأهلَها　　وجامِلَهُمْ أَجْلَوْا بأَهْلِي وجَامِلي
وقلتُ سِوَى ليلَى الوداعُ فإنَّني　　أَرى ذاكَ منها اليومَ إحدَى النَّوافلِ
فَضَنَّتْ علينا بالوَداعِ فلم تُجِبْ　　حَزِيناً ولم تَرْدُدْ كلاماً لسائلِ
وأَبْدَتْ لنا عَذْبَ الغُرُوبِ كأنَّما　　عليه شُنَانُ المُرزِمَاتِ الهَوَاطِلَ
ولم أرَ مِثْلِي يُسْتَحَنُّ صَبَابَةً　　من البَيْنِ أو يَبْكِي إلى غيرِ واصلِ (٣)

وإذا كان مُلَيْح يشكو من محبوبته كلَّ هذه الشكوى، فهل كان له من أملٍ في لقائها؟ هذه المحبوبةُ التي تُعْشَق فَتَقْتُل، والتي تشكّ في حبِّه إياها، ولذلك كان يعيش بوعدٍ منها لا تنجزُه له، فغدَتْ عيشتُه عيشةً ضَنْكاً، يقول:

فمهما يكُنْ من حُبِّ ليلَى فإنَّها　　على ذاكَ مُسْقَاةُ دِماءَ المَقَاتلِ
مُوَكَّلَةٌ بالشَّكِّ قادِرةٌ لنا　　على القَتْلِ أو طُولِ السَّقامِ المُماطِلِ

---

(١) ناءت: نهضت، تخضدت: تكسَّرَتْ، بَنَى: دَعَم.
(٢) المعوذات: التي معها أولادها، كورها: جماعتها، غروس: يعني النخل، الجداول: الأنهار.
(٣) أبدت لنا: يريد أنها تبسمت، عليه شُنان: ماء السحاب.

نعـــيشُ بوَعْـدٍ منكِ لا تُنجِـزِينَهُ ونَأْمَلُ ذاكَ الوعْـدَ من غـيـرِ باذِلِ

ويتجلّى حقاً الغزلُ العفيف،والشكوى من الحبيب، والبكاءُ والعويل، الذي يبلغُ القمةَ في شعر عبد الله بن مسلم بن جُندُبٍ،وهو شاعرٌ إسلامي، حيث يقول :

تَعـالَوْا أَعِـينُونِي على الليلِ إنَّهُ علَى كـلِّ عَـيْنٍ لا تنامُ طَويلُ
ولا تَخْـذُلُونِي في البكاءِ فإنَّني لكُمْ عندَ طولِ الجَهْدِ غيرُ خَذُولِ
تعالَوْا إلى نفسٍ تَساقَطُ من هَوَى مُـبَـتَّلَة رَيَّا العظامِ كَسُـول
أَتُتْرَكُ نَفْسٌ في هُذَيْلٍ مَرِيضَةٌ مُحـاذِرَةٌ قَتْـلاً بغـيرِ قَتِـيلِ
فَوَيْحِي وَعَوْلي فَرِّجُوا بعضَ كُرْبَتِي وإلا فـإنِّي مَـيِّتٌ بِغَليلي
فإنْ كانَ هذا الشَّوْقُ لا بُدَّ لازِماً وليسَ لكم فيـهـا الغَداةَ حَوِيلُ
فقولاَ لها قولاً رَفيقاً لعلَّها سَتَرْحَمُني مِن زَفْرَةٍ وعَـوِيلِ
بريقَتِـهـا أَوْ رِيحِ ثُوْبٍ أَشَـمُّهُ فَيَعْرِفَ رُوحِي ريحَ رُوحِ خَليلي (١)

ويقال : إن عيسى بن طلحة بن عُمرَ التَّيْميَّ حين أُنْشِدَ هذا الشِّعْرَ أتاه بَحشَمه وخَدَمه ورقيقه وعامّة أهله، ثم قال : رجل يطلب معيناً على الليل منذ ثلاثين سنة لم يأته أحدٌ! فدَقَّ عليه،فأفزعَه وأهلَهُ، حتى تَسَمَّع عليه، فعَرف صوتَه،فقال له عيسى ابنُ طَلْحة : أتيتُكَ أعينُكَ على الليلِ(٢) .

وعبد الله بن مسلم بن جُنْدُب هذا تظهرُ في شعرِه الرقَّةُ والعُذُوبةُ والسلاسَةُ، بخلافِ مُلَيْح بن الحَكَم القِرْدِي الذي يتَّسِم شعْرُه بالغرابة والجَزالَة مع أن الشاعرين إسلاميان، ولعلَّ السبب في ذلك أن عبدَ الله بن مسلم بن جُنْدُب كان من شُعراء المدينة المشهورين(٣) . فتأثر بالحَضَر، أما مُلَيْح فأعتقد أنه كان من سُكّان الباديةِ ـ شأن قبيلة هُذَيْل ـ ولذلك نلاحظ غرابةَ الألفاظ في شعره .

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ /٩٠٩ حويل، أي: ما احتال فيه .
(٢) المرجع السابق ٢ /٩١٠ .
(٣) تاريخ الآداب العربية – كارلو نالينو ص١٣٢ .

ومن الطريف ما يُروى لعبد الله بن مُسْلم بن جُنْدُب، هذا الشاعر الغزلي الرقيق، من قصائدَ في غزال "يأوي إلى مسجد الأحزاب منتقباً"، وهي عن امرأة عَشقَها الشاعرُ، وكانت تخرجُ إليه كلَّ عام لتلقاه في شهر رجب، وتعلنُ للناس أَنَّها تُريدُ أن تَعْتَمرَ وتطلبَ الأجرَ والثوابَ، وهي بذلك تُوهمُ الناسَ وتُخْفي عليهم حتَّى لا يُفْتَضَح أمرُها،والمهمّ أن الشاعرَ يتمنَّى أن يكون العام كلّه رجباً، يقول:

يا لَلرِّجَالِ ليومِ الأَرْبعاءِ أَمَا ... يَنْفَكُّ يُحْدِثُ لِي بعدَ النُّهَى طَرَبَا
إِذْ لا يزالُ غَزالٌ فيهِ يَفْتِنُني ... يأو إلى مَسْجِدِ الأَحْزاب مُنْتَقِبا
يُخَبِّرُ الناسَ أَنَّ الأَجْرَ هِمَّتُهُ ... وما أَتَى طالباً للأَجْرِ مُحْتَسِبَا
لكنَّه ساقَهُ أَنْ قيلَ ذا رَجَبٌ ... يا ليتَ عِدَّةَ حَوْلٍ كلِّه رَجَبَا
فإِنَّ فيهِ لِمَنْ يَرْجُو فَواضِلَهُ ... فضلاً وللطَّالبِ الحاجات مُطَّلَبَا (١)

ونرى الشاعرَ يدافعُ عن حبِّه لهذه المرأة في قصيدة أُخرى، ويدعو لمن يَعْذلُه في الهوى أنْ يُبْتَلَى بمثلِ ما لقيه من هذا الحبِّ، حتى يذوقَ العذابَ، فهو لا يزالُ يبكي من شدَّة ذلك الداء، ونراه يَذكُر محبوبتَه التي لقيتْهُ عندَ مسجد الأحزابِ،في يوم الأربعاء،وكأن ذلك اليوم يمثلُ ذِكرَى لا تُنْسَى عندَ الشاعر، يقول:

ألاَ قُلْ لِمَنْ يَلْحَى ويَعذِلُ في الهوَى ... بُلِيتَ بما أَلْقَى ولا زِلْتَ باكِيَا
لعلكَ إنْ دَهْرٌ أصابَكَ صَرْفُهُ ... سَتَذْكُرُني يوماً إذا ذُقْتَ دائيا
وَجَنَّ عليكَ الليلُ دانٍ رِواقُهُ ... وراعَيْتَ لِلْهَمِّ النُّجُومَ التَّواليَا
فَدَعْ عنكَ عَذْلي لا أَبا لكَ وابْغِنِي ... طبيباً وإنْ أَحْمَى لِقَلْبِي المَكاوِيَا
فإِنَّ التي مَرَّتْ عليها نِقابُها ... لدَى مسجدِ الأَحْزابِ هاجَتْ بلائيَا
مع الشَّوْقِ يومَ الأَرْبعاءِ لقيتُها ... فما بالُ يومِ الأَرْبعاءِ وبَاليَا (٢)

ويروى أنَّ أبا السائب المخزوميَّ لما سمعَ بهذا البيتِ قال: لا، بَلْ ما بَالُه وبالُ يومِ الأَربعاء!.

---

(١) كتاب شرح أشعار اللهذليين ٢ / ٩١٠.
(٢) المرجع السابق ٢ / ٩١٢.

obeikandl.com

وفي العصر الأُموي اشتهرَ في الغزلِ أبو صَخْرٍ الهُذَلي، ولهذا الشّاعر قصائدُ كثيرةٌ قصرَها على الغزلِ فقط. والواقعُ أنَّ هذا الشاعرَ كان امتداداً لهذه المدرسة الهُذَلية في الغزلِ والتَّشْبِيب، إذ إن طريقتهُ في الوصف وكذا أسلوبه يتضح فيه الروحُ الجاهلي حيثَ تتجلَّى،فيه هذه العناية بأجزاء الجسمِ من عيْن وشَعرٍ وخَدٍّ وَجِيدٍ وخَصْرٍ. إلخ. علماً بأنه عند الدارسين واحدٌ مِن العُذْرِيين(١).

وكثيراً ما يبدأ قصائدَه الغزليةَ بالحديثِ عن الأطلالِ فنراه يقولُ في إحدى قصائده التي يتغزَّلُ فيها بمحبوبته هند:

عـرفتُ من هِنْدَ أَطْلالاً بذي التُّـودِ ... قَـفْـراً وجـاراتِهـا البـيضِ الرَّخَـاويد

وَحْشـاً سِوَى زَجَلِ القُمْرِيِّ كلَّ ضُحىً ... والمُطْفِـلاتِ وفُـرَّادٍ مَـواحِـيـد (٢)

ونمضي معه في هذه القصيدة التي يصفُ بها محبوبتَه وما تمتاز به من الطول والعَرْضِ والضخامة، كما أنَّها ناعمةُ الملمسِ وطويلةُ الشَّعرِ، فكلُّها أنوثةٌ وجمالٌ، وجمالُها فطريٌّ طبعيٌّ لا تَكَلُّفَ فيه ولا اعتسافَ، ولذلك لا تحتاج إلى الزينة، ولا يَفتقِرُ حُسْنُها إلى افتعال.

ثم نراه مُعْجَباً بريقها العَذْب الذي يشبِّهُه بعسلِ النَّحْلِ،أو بكأس الخَمْرِ التي إنْ نَفِدتْ فإنَّ شاربَها يسارعُ ويطلبُ المزيدَ منها لِلذَّتِها وعُذُوبَتِها.والمهمّ في ذلك أن طريقتَه في الغزلِ هي صورةٌ من الطريقةِ الجاهلية،وهي امتدادٌ لهذه المدرسة الهُذَلية في الغزل والتشبيب،يقول:

كـأنَّ ذَوْبَ مُـجَـاجِ النَّحْلِ رِيقَـتُـهـا ... ومـا تَضَـمَّنُ أَجْـوافُ الرَّواقِـيـدِ

كالكَأسِ ما رَكَدَتْ لَمْ يَصْحُ شارِبُها ... وقـالَ إنْ نَفِـدَتْ ياكـاسَنَا زيدِي

لو يستطيعُ الذِي يَنْضُو مَجاسِدَهَا ... أَجَنَّهَـا بَعْـدَ تَقْـبِـيلٍ وتَجْـرِيدِ (٣)

---

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص١٦٣.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٩٢٤ التُّود: شجر، الرَّخاويد: جمع رخودَة وهي الرَّخْصَةُ، أي: شابَّة رَخصةٌ.

(٣) ركدت: أقامت، الكأس: يريد الخمر بعينها، يَنْضُو: يَخْلع، أجَنَّها: سَتَرها.

obeikandl.com

وكثيراً ما يحدِّثنا عن حُزنه للبَيْن، وألمه من الفراق،فنرى في شعره اللوعةَ والحَسْرَةَ والأسى على الحبيب الذي حُرِم منه،وقد رَوى صاحبُ الأغاني أنَّ أبا صَخْرٍ كانَ يهوى امرأةً من قُضَاعة مجاورةً فيهم، يقال لها ليلى بنتُ سَعْدٍ،وتكنى أمّ حكيمٍ، وكانا يتواصلان برهةً من دهرِهما،ثم تزوَّجَتْ ورحلَ بها زوجُها إلى قومه(١). فقالَ في ذلك أبو صَخْرٍ:

أَلَمَّ خَيَالٌ طارِقٌ مُتَأَوِّبُ ... لأُمِّ حكَيمٍ بَعْدَ ما نِمْتُ مُوْصِبُ
هُدوءاً وأَصْحَابي بنَخْلَةَ بعدَما ... بَدَا لِي سِمَاكُ النَّجْمِ أوْ كادَ يَغْرُبُ
وقد دَنَتِ الجَوْزاءُ وَهْيَ كأَنَّها ... ومَرْزَمُها بالغَوْرِ ثَوْرٌ وَرَبْرَبُ
وأَهْلِي بَوادٍ مِن تِهامَةَ غائِرٍ ... بأَسْفَلِ هِضْمَيْهِ أَرَاكٌ وتَنْضُبُ
فباتَ شَرابِي في المَنامِ مع المُنَى ... غَرِيضُ اللمَى يَشْفِي جَوَى الحُزْنِ أَشْنَبُ (٢)

وبعدَ أنْ حدَّثناعن حُزنه ولوعته لفراقها،تكلَّم عن جمالها الساحر،وبياضها الناصع،وطيبها الطبعي الذي لا تكَلُّفَ فيه. ثم نراه يذكر أنَّها من شدَّة حُسْنِها وجمالِ جسدها، تظنُّ أنَّها بِكْرٍ مع أنَّها ثَيِّبٌ،يقول:

سِراجُ الدُّجَى تَغْتَالُ بالمِسْكِ طَفْلَةٌ ... فَلا هي مِتْفالٌ ولا اللونُ أَكْهَبُ
دَمِيثَةُ ما تَحْتَ الثِّيابِ عَمِيمَةٌ ... هَضِيمُ الحَشَا بِكْرُ المَجَسَّةِ ثَيِّبُ
تَعَلَّقْتُها بِكْراً لذيذاً حَدِيثُها ... لِيالِيَ لا تُعْدَى ولا هِيَ تُحْجَبُ (٣)

وفي آخرِ بيتين من القصيدة يتجلَّى الحزنُ واللوعةُ وشدَّة الأسَى على فراقها حيث يقول:

ولو تَلْتَقِي أَصْداؤُنا بعدَ موتِنَا ... ومن دونِ رَمْسَيْنَا من الأرض مَنْكِبُ
لظَلَّ صَدَى صَوْتِي ولو كنتُ رِمَّةً ... لِصَوْتِ صَدَى لَيلَى يَهَشُّ ويَطْرَبُ (٤)

---

(١) الأغاني ٢٣ / ٢٧٧.
(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٩٣٦ مُوصب: من الوَصَب، هضْمُه: ما اطمأنَّ منه.
(٣) متفال: مُنْتِنَةُ الريح، أكْهب: أغبر، سواد في بياض، عَميمة: طويلة، تُعْدَى: تُشْغَل.
(٤) لعل هذا البيت أصل لقول توبة بن الحُمَيِّر: =

على أن رائيته في الغزل تعدُّ مِن أروعِ وأملحِ ما يُروى في الغزلِ والتَّشْبِيب، ويقال إنها أغزلُ شعرِ العربِ[١]، وذكر صاحبُ الأغاني أنها من مختارِ شعرِ هُذَيل[٢]، والواقع أنَّ الغَزلَ والنسيبَ فيها يعبِّرُ عن إحساسٍ صادقٍ يَشْعُرُ به مَن أحسَّ بعاطفة الحبِّ حقاً، وعندي أنَّها قطعةٌ مِن نفسه التي ذاقت اللوعةَ والحزنَ وأَلَمَ الفراقِ. وهو يبدؤها بذكرِ محبوبته ليلى وحديثِ الأطلال، وبكاء الديار، حيث يقول:

لِلَيْلَى بذاتِ البَيْنِ دارٌ عَرَفْتُها ... وأُخْرَى بذَاتِ الجَيْشِ آياتُها عُفْرُ
كأنَّهما م الآنَ لَمْ يَتَغَيَّرَا ... وقدْ مَرَّ بالدَّارَيْنِ من بعدِنَا عَصْرُ
وقفْتُ بِرَسْمَيْهِا فلمّا تَنَكَّرَا ... صَدَفْتُ وَعيْنِي دَمْعُهَا سَرِبٌ هَمْرُ[٣]

ثم يتحدَّث عن بكائه وعن دموعه المنهمرة - التي هي أكبرُ شاهدٍ على حُبِّه - بعدَ أن صبر كثيراً حتى نَفدَ صبرُه، وهو يذكرها دائماً لدرجة أنَّ نسيمَ الصَّبا يَهيجه إلى ذكرِها، وإذا ذكرها فإنَّ قلبَه يرتاحُ لهذا الذِّكْرِ، ثم تعتريه انتفاضةٌ كانتفاضَة العصفور الذي بلَّله المطرُ، يقول:

وفي الدَّمْعِ إنْ كَذَّبْتَ بالحُبِّ شاهِدٌ ... يُبَيِّنُ ما أُخْفِي كما بَيَّنَ البَدْرُ
صَبَرْتُ فلما عالَ نِفسِي وشَفَّهَا ... عجَارِيفُ ما تأْتي به غُلِبَ الصَّبْرُ
إذا لمْ يكُنْ بينَ الحَبِيبَيْنِ رِدَّةٌ ... سِوَى ذِكْرِ شَيءٍ قد مضَى دَرَسَ الذِّكْرُ
إذا قلتُ هذا حِينَ أَسْلَو يَهِيجُنِي ... نَسِيمُ الصَّبَا من حيْثُ يَطَّلِعُ الفجْرُ
إذا ذُكِرَتْ يرتاحُ قلبِي لِذِكْرِها ... كما انْتَفَضَ العصفورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ[٤]

فالشاعرُ قد أسقمَه الحبُّ، وتحكَّم فيه فلا يستطيعُ التخلصَ منه، وهو لذلك يقسمُ بأغلظِ الأيْمان، واصفاً الله بأنه يُبْكِي ويُضْحِكُ، ويُميت ويُحْيِي، وأنَّ أمرَه واقعٌ

= ولو أنَّ ليلى الأخْيَلِيَةَ سَلَّمتْ ... عليَّ ودُونِي جَنْدَلٌ وصَفَائحُ
لسَلَّمْتُ تسليمَ البَشَاشَةِ أو زَقَا ... إليها صَدًى من جانبِ القبرِ صَائِحُ

(١) بلوغ الأرب للألوسي ٣ / ٢٤١ .
(٢) الأغاني ٢٣ / ٢٧٨ .
(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٩٥٦ .
(٤) رِدَّةٌ : بقية.

obeikandl.com

لا رادَّ له. يقسمُ أن محبوبتَه تركَتْه يحسدُ كلَّ أَليفَيْنِ لا يروعُهما الخوفُ أو الذعرُ، حتى إذا كان الأليفان من الوَحْشِ أو الحيوان. ثم يذكر صلتَه بمحبوبته، وزياراته المتعددة لها،والتي كانت لا تنقطع، ولذلك كان من الظُّلْمِ أن يتحملَ الهجرَ والفراقَ - إذ لا صبرَ له على هذا الهجرِ،وهذا الشَّقاء والعناء - ، فأصبح يتمنَّى اللقاءَ ولو كانا في عداد الأموات، يقول:

أَمَا والذَّي أَبْكَى وأَضْحَك والَّذي	أمـاتَ وأَحْـيَـا والذي أَمْـرُهُ الأمْـرُ
لقد تركَتْني أَغْبطُ الوَحْشَ أنْ أَرَى	أليفَيْنِ منها لا يَروعُهُمَا الزَّجْرُ
وَصَلْتُكِ حتى قُلْتِ لا يَعْرِفُ القلَى	وزُرْتُك حتى قُلْتِ ليس له صَبْرُ
فيا حبَّذا الأحْياءُ ما دُمْت حَيَّةً	ويا حبَّذَا الأَمْواتُ ما ضَمَّك القَبْرُ
تكادُ يَدِي تَنْدى إذا ما مَسَسْتُها	وتَنْبُتُ في أَطرافِها الوَرَقُ الخُضْرُ

ونمضي معه في هذه القصيدة، وهو يستمر في الشكوى من الهجرِ وأَلمِ الفراقِ، حتى نراه يقول:

فيا هَجْرَ لَيْلَى قد بَلَغْتَ بِيَ المَدَى	وَزِدْتَ على ما لَمْ يكُن بَلَغَ الهَجْرُ
ويا حُبَّها زِدْني جَوىً كلَّ ليلةٍ	ويا سَلْوَةَ الأيامِ مَوعِدُك الحَشْرُ
فَلَيْسَ عَشِيَّاتُ الحِمَى بِرواجعٍ	لنا أَبداً ما أَوْرَقَ السَّلَمُ النَّضْرُ
ولا عائدٍ ذاكَ الزَّمانُ الذي مَضى	تَبارَكْتَ ما تَقْضِي يَقَعْ ولكَ الشُّكْرُ

ثم يتعجبُ من الدهرِ الذي أسرعَ بانقضاء الأوقات السعيدة،وهي مدة الوصال بينهما، فلما انقضى الوصلُ عاد إلى حالته في السكون والبطْء وكانت هذه عادتهم في استقصار أيامِ الوصل،واستطالة أيام الفراق، يقول:

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بيني وبَيْنَها	فلما انقْضَى ما بَيْنَنا سَكَنَ الدَّهْرُ (١)
مُقيماً كأَنْ لَم يُحْدِث اليومَ صَرْفُهُ	لنا خُطَّةً عَوْصَاءَ مِرَّتُها شَزْرُ
على رِسْلِه لم يَكْتَرِثْ أَنْ تُصيبَنَا	نوائِبُ يَرْمِينا بها مَعَهُ القَدْرُ
تَمَنَّيْتُ مِن حُبِّي عُلَيَّةَ أَنَّنا	على رَمَثٍ في البَحْرِ ليس لَنا وَفْرُ

---

(١) ويجوز أنه يريد بسعي الدهر سعاية أهل الدهر للنمائم والوشايات، وأنه لما ارتفع مرادهم فيما طلبوه من الإفساد بينهما سكنوا وهدؤوا لأنهم حققوا مطلبهم من الوقيعة بينهما.

وقد ذكر سابقاً[1] ما رُوي من أنَّ الهادي طَرِبَ لهذه القصيدة طرباً شديداً حتى رُوي أنه ضربَ بيده إلى جانب دُرَّاعته فشقَّها حتى انتهى إلى صدره، ثم انتهى بها إلى آخرها، وما أن استمرَّ المنشدُ لها والهادي يستمع حتى شقَّ الهادي جُبَّةً كانت تحت الدُّراعة،فلما سمع قوله:

عجبتُ لِسَعْي الدهر بيني وبَيْنَها فلما انْقَضى ما بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

لم يتمالك أن شقَّ قميصاً كان تحت ثيابه حتى بدا جسمُه، من شدَّة الطَّرَبِ والإعجاب بهذه القصيدة،ثم أمر المنشدَ أن يحتكمَ،فأخذ مالاً جليلاً إكراماً له.

وهكذا نرى أنَّ أسلوبَ الغزل يتميز بالرِّقَّة والعُذوبة والطِّلاوة، وصدق العاطفة، والألفاظُ غنيَّةٌ بالعاطفة، ومثيرةٌ للذكريات، لأنَّ الغزلَ في الواقع ترجمانٌ لعاطفة الحُبِّ ونابعٌ منها، لذلك نجدُ أسلوبَ الشاعر قد يتباينُ في القصيدة الواحدة، ولا سيما عند الجاهليين منهم،فيَعْذُبُ ويَرِقُّ في الغَزَل ثم يَضْخُمُ ويَفْخُمُ إذا ما انتقلَ الشاعرُ إلى أغراضٍ أخرى كالفخرِ مثلاً.

وقد رأينا عندَ الجاهليين من شُعراء هُذَيْلٍ كساعدةَ بن جُؤَيَّةَ والمُتَنَخِّلِ وأبي ذُؤَيْبٍ الذين تحدَّثوا في الغزل والنَّسيب أن أسلوبَهم كان جَزْلاً، وفيه كثيرٌ من الألفاظ الغريبة، ولا عجبَ في ذلك فهو الشِّعْرِ العربيُّ الأصيلُ، وهو أسلوبُ البادية الهادئ الوادع الذي يَرِقُّ ويَعْذُبُ في الغزل مع احتفاظه بالجزالة والرصانة.

وقد رأينا أنَّ من شعراء هُذَيْل مَنْ كان لا يكتفي أثناء الغزل بالنزعة الحسِّيَّة، ووصف الصورة الجسديَّة، بل حَفَلُوا بالجمال المعنوي، ككرم موضوع الحديث والضَّنِّ بالأسرار، والاهتمام بالأصالة وعُلُوِّ الشَّرَف.

وهذا يعني أن ما شاعَ عند النُّقّاد ـ من أن الغزلَ الجاهليَّ بوجه عامٍّ كان يَنْزِعُ نزعةً حسِّيَّةً،ويهتمّ بوصف الصورة الجسميّة ـ كلام فيه نظرٌ، وفيه أخذٌ وعطاءٌ لأنه ثبتَ في بعض أشعار هُذَيْلٍ ـ كما بَيَّنا ذلكَ ـ أنهم كانوا لا يكتفون بالنزعة الحسِّيَّة ووصف الصورة الجسميَّة فحسب، بل حَفَلُوا بصفات الحسِّ المعنوية كذلك.

---

(١) في الفصل الرابع من الباب الثالث، والقصة مفصلة في الأغاني ٢٣ / ٢٨١.

ويرى الدكتور أحمدُ محمد الحوفي أن الغزَلَ الحسِّيَّ يجافي الأخلاقَ العربيةَ، ونظامَ الاجتماع العربي،ورجَّحَ أنه فسائلُ صغارٍ نُقلَت من الحبشة إلى بلاد العرب،ثم ما لبثَتْ أن امتدَّت في أعماق الثرَى جذورُها،واستغلظَتْ سُوقُها،وبَسَقَتْ فروعُها،وأثمرَتْ،وكان الغزلُ الحسِّيُّ ثمرُها، وهذا يعني ـ في رأيه ـ أن الشِّعرَ الجاهليَّ لم يكن بنَجْوَةٍ من تأثيرِ الأمم الأخرى(١).

كما اتضح أنَّ الشكوى من الحبيب،والحديثَ عن البَيْن وألَم الفُراق، واختلاجات القلب الخافق " وآمال النفس الحزينة، ومخاوف الرُّوح المُعَذَّبَة، لم تظهرْ إلا متأخرة وكان فيها شيء من المثالية،وشيء آخرُ من العفَّة المحرومة"(٢). فاتضحَتْ هذه الشكوى بشكلٍ واضحٍ في شِعْر الإسلاميين منهم والأُمويين.أما الجاهليون فلم تكن هذه الناحيةُ عندهم واضحة.

والمهمُّ عندي أنّ نلاحظَ أن الغزل والتَّشْبيبَ عند الهُذَليين كان فَنّاً محبوباً لديهم، يقولونه عن عاطفةٍ صادقةٍ، وطبعٍ أصيلٍ، فالمرأةُ قد تَبَلَت فؤادَهم، وملكَت عليهم شعورَهم ووجدانهم، ولقد عُرِفوا بهذا الفنِّ من فنون الشِّعْرِ، معرفةً تُشْهِدُ الجميعَ لهم بالسَّبْقِ في هذا الميدان.

ولا نعجبُ حين نقرأُ ما يُنْشَدُ لعُبَيْد الله بن عبد الله بن عُتْبَة بن مسعود ـ وهو من هُذَيْلٍ ـ وكان من الموصوفين بالعلمِ والفضلِ والنُّسُك، وهو أحدُ الفقهاء السَّبعة بالمدينة، ومن أعلام التابعين، وقد قالَ شعراً في امرأةٍ من هُذَيْل قدمت المدينةَ، وكانت امرأةً غايةً في الجمال، حتى فُتِنَ بها الناسُ، ورغبوا فيها خاطبين، ويقال: إنَّها كانت أيِّماً(٣). فقال فيها عبيد الله:

أُحِبُّكِ حُبّاً لا يُحِبُّكِ مِثْلَهُ	قَريبٌ ولا في العالمينَ بَعيدُ
أُحِبُّكِ حُباً لو عَلِمْتِ بِبَعْضِهِ	لَجُدْتِ ولم يَصْعُبْ عليكِ شَديدُ
وحُبِّكِ يا أمَّ العَلاءِ مُتَيِّمي	شَهيدي أبو بكرٍ فذاكَ شَهيدُ

---

(١) الغزل في العصر الجاهلي د. أحمد محمد الحوفي ص ٣٨٨.

(٢) شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، د. أحمد كمال زكي ص ١٦٤.

(٣) زهر الآداب للحصري ١ / ١٨٠ط ٣ التجارية ١٩٥٣م، والأيِّم: التي لا زوجَ لها.

ويعلمُ وجَدْي القاسمُ بنُ محمدٍ وعُرْوَةُ ما أَلْقَى بكم وسَعيدُ
ويعلمُ ما أُخْفِي سُلَيْمانُ كلَّهُ وخَارجَةُ يُبْدِي لنا ويُعيدُ
متى تسأَلِي عما أقولُ فَتُخْبَري فَلَلْحُبُّ عندي طارفٌ وتَليدُ (١)

وكان عُبَيْدُ الله أحدَ الفقهاء السبعة الذين انتهى إليهم علم المدينة، وذكرَ في أبياته هذه أسماءَ أشهر فقهاء المدينة، يَسْتَشْهِدُهم على وفرة مودَّته لها. ويُرْوَى أنَّ سعيدَ بنَ المُسَيِّب قال له: "قد أمنتَ أن تسألنا، ولو سألتنا ما شهِدْنا لك بزُورٍ"(٢).

وهؤلاء الستة الذين ذكرهم: أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المَخْزوميُّ، والقاسمُ بن محمد بن أبي بكرٍ الصديق، وعُرْوَة بن الزبير بن العوام، وسعيد بن المُسَيِّب بن حَزَن، وسليمان بن يَسَار، وخارجةُ بن زيد بن ثابت الأنصاري، وعُبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهُذَلي هو سابعُهم، وهؤلاء السبعةُ هم فقهاء المدينة، وأصحابُ الرأي فيها، والذين عليهم المدارُ. وعُبيدُ الله هذا هو القائلُ في مناسبة أخرى.

شَقَقْتِ القلبَ ثُمَّ ذَرَرْتِ فيهِ هواكِ فَليمَ فالتأَمَ الفُطُورُ
تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ في فُؤادي فبادِيه مع الخَافِي يَسيرُ
تَغَلْغَلَ حيثُ لم يَبْلُغْ شَرابٌ ولا حُزْنٌ ولم يَبْلُغْ سُرورُ (٣)

وله في عثمة هذه التي تزوجها أشعار كثيرة.

٢- الفخر:

الفخرُ تَمَدُّحٌ بكرمِ الخِلالِ وطيبِ الشمائلِ، ومباهاةُ الشّاعرِ بنفسِه أو بقومه وقبيلتِه وهو من أخصِّ صفاتِ العرب،ومن أوسعِ الأبوابِ في شعْرِهم، حتى إن كثيراً من قصائدهم قيلتْ في هذا الغرضِ، فكانوا يفخرون بالشجاعةِ والإقدامِ والنَّجدةِ وإغاثةِ الملهوفِ وحمايةِ الجارِ والكَرَمِ ونَحْوِ ذلك مما كانوا يُمْتَدحون به.

---

(١) زهر الآداب ١ / ١٨٠ والعمدة ١ / ٣٩.
(٢) زهر الأداب ١ / ١٨٠.
(٣) المرجع السابق ١ / ١٨٠ وتاريخ الآداب العربية، كارلو نالينو ص ١٣٣.

يقول ابن رشيق : " والافتخارُ هو المدحُ نفسُه، إلا أنَّ الشاعرَ يخصُّ به نفسَه وقومَه، وكلُّ ما حَسُنَ في المدحِ حَسُنَ في الافتخارِ، وكلُّ ما قَبُحَ فيه قَبُحَ في الافتخار"(١).

وقيل: "ليس لأحدٍ من النَّاسِ أن يُطْرِيَ نفسَه ويمدحَها، في غير مُنافَرةٍ،إلا أن يكون شاعراً، فإن ذلك جائزٌ له في الشِّعر، غير معيبٍ عليه"(٢).

فقد كان المجتمعُ في العصرِ الجاهليِّ يحتاجُ من الشَّاعرِ أن يشيدَ بفضائل قبيلته، وأن يرفعَ من شأنها أمامَ القبائلِ الأخرى، "وكان الشِّعْرُ يومئذٍ هو سجلُّ المفاخرِ، ومقيدُ المآثرِ، فكان من ميادينه الفخرُ بالقبيلة، والفخرُ بالنفسِ، ونَهَجَ الشُّعراء بعدئذٍ منهجَ الشاعرِ الجاهليِّ، فبقي مجالُ الفخرِ مفتوحاً أمامَ الشَاعرِ مُغلقاً أمامَ غيرِه من الناسِ"(٣).

وكان شعراء هُذَيْلٍ يَعْتَزُّون أَيَّما اعتزازٍ بانتسابهم إلى هُذَيْلٍ، مفاخرين بها، وكثيراً ما افتخروا بهذا النَّسب. فهذا ساعدةُ بن جُؤَيَّةَ يفتخرُ بنسبةِ العريق، وبأنه من شجرةٍ ثابتةِ الأصلِ طويلةِ الفروعِ، فشجرتُه أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء، يقول:

وإنِّي لأَبْنُ أَقْوامٍ زِنَادِي ... زَواخِرُ والغُصونُ لَها أُصولُ(٤)

وكثيراً ما افتخر شعراءُ هُذَيْلٍ بقبيلتهم عندما هجموا غيرَهم من القبائلِ،وذلك أثناء هجائهم، يدفعهم إلى ذلكَ حبُّهم لقبيلتهم واعتزازُهم بها، فهذا عَمرُو بن هُمَيْل اللِّحَيانيُّ يفتخرُ بقومه وبعزَّتِهم وبأصلِهم الرفيعِ الشريفِ، وذلك عندما هجا عَمرَو بن جُنادَةَ الخُزاعيَّ، يقول:

فإنَّ بيوتَنا شُمٌّ طِوَالٌ ... وبَيْتُكَ لا يُظِلُّ ولا يُبيتُ
وإنَّا نحنُ أَقْدَمُ منكَ عِزّاً ... إذا بُنِيَتْ بِمَخْلَفَةَ البُيُوتُ
خُزَيمةُ عَمُّنَا وأبي هُذَيْلٌ ... وكُلُّهُمُ إلَى عِزٍّ وَلِيتُ(٥)

---

(١) العمدة ٢ / ١٤٣.
(٢) المرجع السابق ١ / ٢٥.
(٣) أسس النقد الأدبي عند العرب د. أحمد أحمد بدوي ص ٢١٩.
(٤) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١١٤٤ زنادي زواخر، أي: شجرتي تطول في السماء.
(٥) المرجع السابق ٢ / ٨٢٢ مَخْلَفَةُ: مِنىً حيث ينزل الناسُ، وَلِيتُ، أي وَلِيتَ ذلك منه.

ويفتخرُ ساعدةُ بن جُويَّة بشجاعة قومه في القتال، وبأسلحتهم ورماحهم الكثيرة التي تشبهُ الأَجَمَة أو الغابةَ في كثرتِها، فقومُه عظماءُ الشأن، وهم قومٌ أَعِزَّة من أصلٍ شريفٍ رفيع، وهم مَرْهُوبُو الجانب لشجاعتهم وشدَّة بأسهم، وجرأتِهم في القتال، يتَّقيهم الأعداءُ كما يُتَّقَى البعيرُ الأَجْربُ،وهم إلى جانب ذلك يحمون المضافَ الذي يلجأ إليهم في الصعوبات، وذلك حيث يقول:

فـالدَّهْرُ لا يَبـقَى على حَـدَثانه ... أَنَسٌ لَفـيفٌ ذُو طَوائفَ حَـوْشَبُ
في مَـجْلِسٍ بيضُ الوجـوهِ يَكُنُّهُمْ ... غَـابٌ كـأَشْطانِ القليبِ مُنَصَّبُ
مُـتـقـارِبٌ أنسـابُهُـم وأَعِـزَّةٌ ... يُؤْبَى بِمـِثْلِهِم الظُّلامُ ويُرْهَبُ
فـإذا تُحُـومِي جَـانِبٌ يَرْعَـوْنَهُ ... وإذا تَجِيءُ نَذيرَةٌ لم يَهْـرُبُوا
بُذَخَـاءُ كُلُّهُمُ إذا مـا نُوكِـرُوا ... يُتْقَى كَمـا يُتقَى الطَّلِيُّ الأَجْرَبُ
ذو سَوْرَةٍ يَحْمِي المُضَافَ ويَحْتَمِي ... مَـصِعٌ يكادُ إذا يُسـاوِرُ يَكْلَبُ (١)

وفي موضع آخرَ يفتخر هذا الشاعرُ بشجاعة قومه وفروسيتهم،وسرعتهم في النجدة للقاء الأعداء، وخفَّتِهم في حملِ السلاح واستعماله،ويذكرُ أنَّهم بلغوا ألفاً أو ما يزيد، وكيف أنَّهم تجمعوا بموضع " لِيَّة" كما يجمع الجنوبُ السحابَ، والمراد أنهم اجتمعوا في حالة استعداد للقتال، يقول:

أَلْبُ عَـزيزٍ أَوْجَـفُـوا إيجـافَـا ... قَـدْ آلَفُـوا وخَلَّفُـوا الإيلافَـا
قَـومـاً يَهُـزّونَ قَناً خِـفَـافَـا ... سَـيْـراً يَخُلُّونَ به الأَجْـوافَـا
فـارْمِ بِهِمْ لِيَّـةَ والأَخْـلافَـا ... حَـوْزَ النَّعـامَى صُبُـراً كِـفَـافَـا (٢)

---

(١) المرجع نفسه ٣ / ١١١٤ أنسٌ لفيف، أي: جماعة كثيرة، طوائفُ : نواحٍ ، حَوْشَبٌ: منتفخ الجنبين، يَكُنُّهُم، أي : يُظلُّهم من الشمس، الغاب: جمع غابة وهي الأجمةُ، يعني أن الرماح كأنها أجمة من كثرتها، مُنَصَّب: مركوزٌ، القليب: بئر، والأشطان: الحبال، يُرْهَبُ: يُخاف ويُتَّقَى، الظُّلامُ: الظُّلامة، تُحومي: تحاماه الناسُ، النذيرة: هم القوم الذين يُنْذِرُونهم بالشَّرِّ ، بُذَخاء: عظماء الشأن والأمور، إذا ما نوكروا: من المناكرة وهي المقاتلة، الطليُّ الأجرب: البعير المطلي بهناء، ذو سورة، أي: يسور إذا قاتل، المُضاف: الملجأ، مَصِعٌ، أي: شديد المماصَعَة وهي المضاربة بالسيف.

(٢) المرجع نفسه ٣ / ١١٨٥ ألب عزيز: جماعته والعزيز رأسهم ، الإيجاف: ضرب من السير، آلفوا : صاروا ألفا، خلفوا الإيلاف : أي زادوا على الألف ، يخلون: ينتظمون الأجواف =

obeikandi.com

أما مالكُ بنُ خالدٍ الخُناعيُّ فإنه يَفْخَرُ بيوم بني لِحْيانَ وهو يوم غزت فيه بنو كَعب بن عمرو بن خُزاعة بني لِحْيانَ من هُذَيْلٍ بأسفلِ ذي دَوْرانَ، فامتنعتْ منهم بنو لِحْيانَ، واهتزَّتْ لذلك شاعريةُ مالك، وعزفت قيثارُ الفخرِ بأنغامِ النصرِ وشدا بأهازيج الإعتزازِ والاعتدادِ عالياً ببني لِحْيانَ فوق ذُرَى الحياة، فادياً لهم بأُمِّه وخالته، صاعداً بمجدهم إلى أعنانِ السماء، لأنَّهم استطاعوا أن يقفوا أمام خُزاعة ويقتلوها، ولأنَّهم قومٌ أَعزة، وذوو مَنَعَة وعدَّةٍ وسلاحٍ، فما كادت الشمسُ تغيب حتى أفنوا عدوَّهم بالقتل، كما هلكت ثمودُ حين رغا سَقْبُ الناقةِ فزالوا وهمدوا، وكذلك هؤلاء حين ذابوا وفقدوا، وذلك حيث يقول:

فِدىً لِبنَي لِحيْانَ أُمِّي وخالَتِي ... بِمَا ماصَعْوا بالجِزْعِ رَجْلَ بَنِي كَعْبِ
ولَمّا رأَوا نَقْرَى تَسِيلُ إكامُها ... بأَرْعَنَ جَرّارٍ وحَامِيَةٍ غُلْبِ
تَنَادَوْا فقالوا يالَ لِحيانَ ما صِعُوا ... عن المَجْدِ حتَّى تُثْخِنوا القومَ بالضَّرْبِ
وضَارَبَهُمْ قومٌ كرامٌ أَعِزَّةٌ ... بكلِّ خُفافِ النَّصْلِ ذي رُبَدٍ عَضْبِ
أقامُوا لَهُمْ خَيْلاً تَزاوَرُ بالقَنَا ... وخيلاً جُنُوحاً أو تَعارَضُ بالرَّكْبِ
فمَا ذَرَّ قَرْنُ الشمسِ حتى كأَنَّهُمْ ... بِذَاتِ اللَّظَى خُشْبٌ تُجَرُّ إلى خُشْبِ
كَأنَّ بذِي دَوْرانَ والجِزْعِ حَوْلَهُ ... إلى طَرَفِ المِقْراةِ راغِيَةَ السَّقْبِ (١)

وكان طبعيّاً أنَّ ذلك الفخرَ لم يَرُقْ لخُزاعة، ويقال: إنّ رجلاً منها أجاب مالكاً فقال:

فَخَرْتَ بيومٍ لَمْ يكنْ لكَ ذِكْرُهُ ... وأَنْتَ حديثٌ بالرَّزِيئَةِ والنَّكْبِ (٢)

= بالرماح، لية: موضع، النُّعامَى: الجنوب، والصُّبرُ: جمع صبير وهو الغيم الأبيض، الأخلاف: طرق واحدها خليف.

(١) المرجع نفسه ١/ ٤٦٥ ما صَعُوا: قاتلوا، الجِزْع: منثنى الوادي ومُنقَطَعُه، رَجْلٌ: رَجَّالة، أَرْعَن: جيش كثير له مثل رَعْنِ الجبل، نَقْرَى: موضع، حامية: قوم يحمون، غُلْب: غلاظ الأعناق، جَرَّار: يَجُرُّ جرّاً من كثرته، تنادوا: تواصوا، تثخنوا: تثقلوا، رُبد: لُمَع، عَضْب: قاطع، إلى خُشْب، أي: يُقتلون كأنهم خُشْبٌ، راغية السَّقْبِ، أي: هَلَكوا بالقتل كما هَلكَت ثمودُ حين رغا سَقْبُ الناقة فهَمَدوا.

(٢) المرجع نفسه ١/ ٤٦٦ النَّكْب: يريد النكْبَة وهي الشديدة.

وكان الانتسابُ إلى القبيلة عندهم شيئاً كبيراً لا يَعْدِلُهُ شيء آخرُ، ولا شكَّ أنَّ ذلك أثرٌ للحميَّة الجاهليّة، والعصبيَّة القَبليَّة التي كانت فاشيةً عندهم. فهذا المُعطَّلُ يُعَنِّفُ عامرَ بن سَدوسٍ أخي بني خُنَاعة بنِ سَعْد بن هُذَيْلٍ - وكان الناسُ يولجون بني سدوسٍ وأولياءَ عامرٍ وإخوتَه إلى خُزاعة - وينعَى عليه ذلك الانتسابَ، ويقول له: علامَ تَفْخَرُ بانتسابك إلى خُزاعة، فأنت قد تركتَ سدوساً وهو سيِّدُ قومه في هُذَيْلٍ، ثم يستمر في تعنيفه حتى يقول له: أظنُّكم من أُسْرةٍ قَمَعيَّة، إذا نَسَكُوا - أي: ذبحوا النَّسيكَةَ - لا يشهدون المُعَرَّفَ بمنًى أو بعَرَفة، والمراد من ذلك أنهم ليسوا على دين العرب، وكان يقال: إن خُزاعة من ولد قَمَعَة بن خنْدف، أما هُذيْل فهو ابن مُدْرِكة ابن إلياس، وخِنْدفُ هي أم مُدْرِكة وطابخَة، وكذا أمُّ قَمَعة، إلا أن نسلَ مُدْرِكَة الذي يتفرع منه قريش وهُذَيْل أشرفُ مِن نَسْلِ قَمْعَةَ كما سبقَ ذلك مُفَصّلاً(١)، يقول المُعَطَّل:

أَمِنْ جَدِّكَ الطَّرِيفِ لَسْتَ بِلابسٍ ... بعاقبةٍ إلاَّ قميصاً مُكَفَّفا

وكنتَ امْرأً نَزقْتَ من قَعْرِ قَرْوَةٍ ... فما تأخُذُ الأقْوامَ إلاَّ تَغطْرُفا

تركْتَ سَدُوساً وهْوَ سَيِّدُ قومِه ... بِمُسْتَنِّ سَيْلٍ ذي غَوارِبَ أَعْرَفا

سَدَدْتَ عليهِ الزَّرْبَ ثُمّ قَرَيْتَهُ ... بَغَاثاً أتاهُ من أعاجِلِ أَخْصَفا

وأنتَ فَتاهُمْ غيرَ شكٍّ زَعَمْتَهُ ... كَفَى بِكَ ذَا بَأْوٍ بنفسكَ مِزْحَفا

إخالُكُمُ مِن أُسْرَةٍ قَمَعِيَّةٍ ... إذا نَسَكُوا لا يَشْهَدُونَ المُعرَّفَا (٢)

وكانوا يفخرون بالكَرَم والشجاعة، فهذا إياس بن سهم بن أسامة بن الحارث يَفْخَرُ بنفسه ويصفها بالجودِ والكرمِ، وبأنَّه لا يُخْرِجُ النَّبْلَ ليقامرَ بها، ولكنه ينحرُ لهم عفواً وفضلاً منه ولا يقامرُهم، وبأنه رجل يقدر أصحابَه فلا يَخْذُلُ صديقَه لأَوَّل عثرةٍ تقع منه، ولكنه يقول فيه بالغيب كلاماً، حتى إذا بلغه رَدَّه إلى صحبته ووِدِّه حبيباً مُكَرَّماً، يقول:

---

(١) انظر فصل " نسبها أصولاً وفروعاً" من الباب الثاني.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢/ ٦٣٦ مكففا: تكففه بالديباج، نَزَقْتَ: خرجت، القَرْوَة: أصل النخلة ينقر فيشرب منه، تغطرفاً: قَسْراً، غوارب: أعال، أَعْرَف: له عُرْفٌ، الزَّرْب: حظيرة الغنم، أعاجلُ أخصفَ: موضع، البغات: شرار الطير، البأو: الفخر والكبر، مِزْحَفٌ، فخورٌ، قَمَعِيَّة: منسوبة إلى قَمعَةَ ابن خِنْدِفَ، المعرَّف: بمنى، والموقف بعرفة.

فَلَنْ تَجِدِيني ما حَيِيتُ بِمَوْطِنٍ ... لَدَى العَزْفِ إلا جائزاً مُتَكَرِّمَا

ولَنْ تَجِدِيني أُخْرِجُ النَّبْلَ ضَارِباً ... لأَبْدُرَ صَحْبي المَيْسِرَ المُتَقَسَّمَا

أُخَيِّرُ أَصْحابي فَمنْ كانَ منهمُ ... خَسِيساً علىَ أجزائِه زِيدَ أَعْظُمَا

ولا أَخْذُلُ المَوْلَى لأوَّلِ عَثْرَةٍ ... عَسَى في تمامِ السِّنِّ أنْ يَتَفَهَّمَا

أُؤَالِسُهُ بالغَيْبِ ثُمَّ أَرُدُّهُ ... أخاً حينَ أَلْقَاهُ حَبِيباً مُكَرَّمَا (١)

وبعد أن افتخرَ الشاعر بنفسه وبكرمه وحِلْمِه،نراه يَفْخَرُ بقومه لأنهم الشجعانُ الذين يشبهون الأُسودَ عند لقاءِ فوارس الأعداء، ولا يرتدون مهزومين بأي حالٍ من الأحوال، فعاقبتُهم النصرُ دائماً، ويذكر في ذلك أنَّ قومَه هم الذين سدُّوا المَسَدّ وعقَّروا عليه، والمراد أنهم كانوا إذا انهزموا سَبَقَ رجلٌ منهم إلى الثَّنِيَّة فعقرَ عليها راحلتَه،يسدُّ عليهم الطريقَ لكي يردَّهم إلى القتال،وذلك حيث يقول:

فَمِنَّا الذي رَدِّ السُّيُوفَ فلمْ نَجِدْ ... لهَا في صَلِيفَيْهِ بذي النَّجْمِ مَرْغَمَا

ومِنَّا الذي لاَقَى الفَوارسِ بالشَّفَا ... هِزَبْراً عليهِ جُنَّةُ الموتِ ضَيْغَمَا

ومِنَّا الأُولَى سَدُّوا المَسَدَّ وعَقَّرُوا ... عليهِ وشَدُّوا المَاسِخِيَّ المُخَزَّمَا (٢)

وكانت هُذَيْلٌ - كسائرِ العرب - تَفْخَرُ بالقيم والتقاليد العربية، من الكَرَمِ والجُودِ وحُسْنِ لقاءِ الوفودِ والضيفان، وفي أشعارهم الكثير مما يُصَوِّر ذلك. فكان الإخلالُ بتقاليد الضيافة أو التقصيرُ في واجب الضيفان،يثيرُ الشعراءَ فيعبرون عن شعورهم، ويرفعون أصواتَهم موضحين آراءهم بكلِّ صراحة في وجه ذلك التقصير إزاء القيمِ والأخلاق العربية النبيلة.

فهذا المُتَنَخِّل الذي كان قد نَزَلَ بقوم فَجُفِيَ، وكان قراهُ عندهم الحَتِيَّ وهو سويق المُقْل - وهو ما تسميه العامة الدَّوْمُ -، يقول شعراً في ذلك ينتقد فيه تلك الحادثة، وذلك التقصير في واجب الضيفان، ويذكر أنه ليس من المحتاجين، فإن البرَّ مكنوزٌ

---

(١) المرجع السابق ٢ / ٥٤٠ العَزْفُ: الذي يُعْزَف عنه ويُكْره، جائزاً، أي: أجوزه وأنفذُه إلى غيره، أُخْرِجُ النَّبْلَ: لا أقامرُ بها، الخسيس: القليل، الأعظُمُ: يريد العظْمَ وهو النصيب، أُؤَالِسُه: من الألس وهي الخديعةُ والملقُ.

(٢) الصليف: صفحةُ العنق، مرغماً: مذهباً، الهزبر: الشديد، والضيغم: الشديد أيضاً، الشفا: أرض، الماسخيُّ: القسيُّ، المُخَزَّم: مُخَزَّمَةٌ بالأوتار.

لديه، ويذكر أنه لو جاءَه رجلٌ جائعٌ ومُهْتلكٌ لقامَ بواجب ضيافته وإكرامه خيرَ قيامٍ،ثم يحدِّثُ أنَّ فعلَهم هذا يعدُّ إهانةً له، وأن إهانةَ الرجلِ الكريمِ تؤثر فيه تأثيراً شديداً، ويشعر ويحس بها كَتْحزيزِ جِلْده أو جَسده بالسيف، أي: يشعر به ويجد وجعَه كما يشعر بوجع حَزٍّ في جسده، حيث يقول:

لا دَرَّ دَرِّي إنْ أَطْعَمْتُ نازِلَكُمْ ... قِرْفَ الحَتِيِّ وعندي البُرُّ مَكْنُوزُ
لَو أَنَّهُ جاءَني جَوْعَانُ مُهْتَلِكٌ ... مِنْ بُؤْسِ الناسِ عنهُ الخيرُ مَحْجُوزُ
أَعْيَا وقَصَّرَ لَمَّا فاتَه نَعَمٌ ... يُبادِرُ الليلَ بالعَلْيَاءِ مَحْفُوزُ

إلى أن يقول:

يا لَيتَهُ كانَ حَظِّي مِنْ طَعامِكُما ... أَنِّي أَجَنَّ سَوادي عَنْكُمَا الجِيزُ
إنَّ الهَوانَ فَلا يَكذِبْكُمَا أَحَدٌ ... كَأَنهُ في بياضِ الجِلْدِ تَحْزِيزُ
يا لَيْتَ شِعْري وهَمُّ المَرْءِ يُنْصِبُهُ ... والمَرْءُ لَيسَ لهُ في العَيْشِ تَحْرِيزُ
هَلْ أَجْزِيَنَّكُما يوماً بِقَرْضِكُمَا ... والقَرْضُ بالقَرْضِ مَجْزِيٌّ ومَجْلُوزُ (١)

أما الأعلمُ الذي كان قد نزلَ برجلٍ من بني زُلَيْفَةَ ـ من هُذَيْلٍ ـ، يقال له حُبْشِيٌّ، وكان مع الأعلمِ أولادُه الصغار، فلم يضفه ولم يَقْرِه، ولم يصنعْ به خيراً،فقال الأعلمُ يعنفه على ذلك ويَفْخَرُ قائلاً له: إن أنعامنا التي نريحها بالعَشِيِّ ونَسيمها بالغداة تغنينا عن مثلك،ثم يذكر له أنهم يحبسون أموالهم على الأضياف ولأجل إغاثة الملهوف ونحو ذلك، حيث يقول:

تَرَوَّحْتُ حُبْشِيّاً فأَتْرَحَ إلْدَتِي ... كَما زُحْزِحَتْ عندَ المَبارِكِ هِيمُها
أَحُبْشِيُّ إنَّا قد يُمَتِّعُنَا الغِنَى ... بأَموالِنَا نُرِيحُها ونُسِيمُها
ونَحْبِسُها على العَظائِمِ نَتَّقِي ... بِها دَعْوَةَ الدَّاعِينَ إنَّا نُقِيمُها (٢)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١٢٦٣ قِرْفُ الحَتِيِّ: قِشْرُ المُقْل وهو الدَّوْمُ . مُهتَلك، أي: يهتلك على الشيء لا يتمالك دونه، تعجيز: تقصير، محجوز: حجز عنه، العَلياء: كل مكان مرتفع ، محفوز: مدفوع من خلفه، الجيز: شق الوادي الذي أنت في غيره، يُنْصِبُه: يُشْخِصُه ويتعبه، تحريز: حرز من الموت، مجلوز: مربوط به حتى يُجزَى به.

(٢) المرجع السابق ١/٣٢٦ تَرَوَّحْتُ: رحتُ إليه، أَتْرَحَهُم: أشقاهم وحَرَمَهم، زُحْزِحَتْ: نُحِّيَتْ، الهِيام: داء يأخذ الإبلُ من نبت تأكله فلا تَرْوَى من الماء حتى تموت، نُريحها، =

وكانتْ هُذَيْلٌ تعتبر الإبلَ محطَّ نَظرها ومُنتهَى آمالها، فكانوا يمتلكونها، ويفخرون بنحرها للضيفان، لا سيما إذا أَمْحَلَ الناسُ وأَجْدبوا في سِني الجفاف والقحط كما قال أبو ذُؤَيْب:

فإنَّك لو ساءَلْتِ عنّا فَتُخْبَري ... إذا البُزْلُ راحت لا تُدرُّ عِشارُهَا

لأُنبِئْتِ أَنَّا نَجْتَدي الفضلَ إنّما ... يُكَلَّفُهُ من النفوسِ خِيارُهَا

لنَا صِرَمٌ يُنْحَرْنَ في كلِّ شَتْوَةٍ ... إذا ما سَماءُ الناسِ قَلَّ قطارُهَا (١)

فأبو ذُؤَيْبٍ يَفْخَرُ بنحرِ الناقة العشراء وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهرٍ فإذا وضعَتْ بقي هذا الاسم عليها، وهي عندَ العرب من أعزِّ الإبلِ، وكان ذبحها للضيفان يعدُّ غايةً في الجود والإكرام. ونحنُ نعلم أن لحومَ الإبلِ كانت من أحسنِ اللحومِ عند العرب ولا يفضلون شيئاً عليها(٢).

وإذا كان الإسلام قد أطفأ نارَ العصبيَّة القبليَّة، والحميَّة الجاهليَّة، فقد ظَلَّ بعضُ شعراء هُذَيْلٍ يفتخر بالماضي، فهذا مُلَيْحُ بن الحَكَم القِرْدِيُّ يفتخرُ بشجاعة قومه الفرسان، الذين لا يعرفون الموادعة، والذين يأسرون رؤوسَ القومِ وأشرافهم، ويحملون الموتَ معهم إلى كلِّ مكان، وإنَّ ما فعلوه بقائد بَهْزٍ، وابن حبواء، وخالد، وابن معتق وغيرهم لدليل على شجاعتهم وشدَّة بأسهم في المُلِمات، وذلك حيث يقول:

وَقائدَ بَهْزٍ قد قَتَلْنَا وربَّمَا ... قَتَلْنَا الكَمِيَّ حاذِراً غيرَ مُطْرِقِ

مَنَعْنَا منَ الأَعْداءِ كُلَّ وَلِيجَةٍ ... وجَارٍ وَحُزْناهُمْ إلى غيرِ مَلْصَقِ

بِنَعْمَانَ أَسيافٌ أَقَمْنَ عليْهِمِ ... نَوائحَ شُؤْبُوبٍ من الموتِ مُصْعِقِ

ونحنُ بَطَحْنَا يومَ أَنفٍ فَلَمْ تَعُدْ ... سُلَيْمُ بنُ مَنْصورٍ بجَأْوَاءَ فَيْلَقِ

= بالعشي إلى مباءتها ونسيمها بالغداة إلى مراعيها، نحبسها، أي على الأضياف، نقيمها: نُعدُّها.

(١) ديوان الهذليين ١ / ٢٦ عشارها: حديثة النتاج منها، نجتدي: نطلب، صِرَم: قطع إبل والواحدة صِرْمة، وهي ما بين العشر إلى العشرين، قطارها: أمطارها.

(٢) بلوغ الأرب للألوسي ١ / ٣٨٠.

غَـدَاةُ أَسَـرْنَا في الحِبَـالِ مُلوكَكُمْ عُنَاةً بَنِي الصَّـبَّـــاحِ وابْنَ المُحَلَّقِ
قَتلْنَا ابْنَ حَبْواءَ الذي كان خيرَهُمْ وزِدْنَا عليـه خَـالداً وابنَ مُـعْـتقِ
وعَـمْـراً نَجلْنَا حَلْقَـةً بِمُـرِشَّـةٍ متَى ما تُخَـالِطْهَـا الأَسنَّةُ تَشْـهَقِ
ونحنُ صَبَحْنَا جمعَ كَعْبٍ ولَفَّهُمْ بِعُـسْـفَـانَ منَّا سَلَّةٌ لم تُبَـرَّقِ
غَدَوْنَا إليـهِمْ نَحمِلُ الموتَ نَحْوَهُمْ كَزَحْفِ القِطَارِ في القَتيـرِ المُبَنَّقِ
صَبَحْنَاهُمُ والشمسُ خَضْرَاءُ غَضَّةٌ بِذَاتِ اللَّظَى حَدَّ السِّنَانِ المُحَرَّقِ (١)

وإذا كان الشاعر قد افتخر بشجاعة قومه الصناديد في الجاهليَّة، فهو في القصيدة نفسها يَفْخَرُ بقومه الشجعان الذين وقفوا مع الرسول ﷺ، وأمسكوا بسيوفهم يضربون بها هامَ كلِّ جائرٍ عن الدين، ويقطعون رأسَ كلِّ تائه مُتَكبِّرٍ، ومن حقِّه أن يفخرَ بهؤلاء الأبطالِ الذين كانوا سيوفاً صارمةً في الدفاعِ عن الإسلام، وذلك حيث يقول:

ونحنُ ضَرَبْنَا يومَ يُلْتَمَسُ الهُدَى بأَسْـيَـافِنَا عندَ النَّبيِّ المُوَفَّقِ
ضَرَبْنَا بِهِنَّ الهَـامَ من كُلِّ جَـائرٍ عنِ الدِّينِ أو مِنْ تَائهٍ مُـتَـبَطْرِقِ
بِضَـرْبٍ تَرَى أُمَّ الدِّمـاغِ كَـأَنَّهَـا إذا نَدَرَتْ من جَـوْبِهَـا أُمُّ خِـرْنِقِ
بَضَـرْبٍ يُزِيلُ الهَـامَ شِدَّةُ وَقْعِهِ بكُلِّ حُسَـامٍ ذي صَبِيٍّ ورَوْنَقِ (٢)

فالقبائلُ تعلمُ مكانةَ هُذَيْلٍ في الشجاعةِ والإقدام، والشاعرُ يبلغُ بقومِه المجدَ كلَّه في هذا الفخرِ، حتى ليفخر بخِنْدِف التي تَجمعُ بينه وبين قريشٍ وغيرِها من قبائلِ العرب، فيقول:

وقـد عَلِمَتْ ذاكَ القبـائلُ كُلُّهَـا ومَنْ قـد فكَكْنَا من أَسِيـرٍ ومُطْلَقِ
فإِنْ أَفْـتَـخِـرْ أَبْلُغْ مدَى المجدِ كُلَّهُ وإِنْ أَقْـتَـصِـرْ أَبْلُغْ سَنَاءً وأَصْدُقِ
وإِنْ افْتخِـرْ يومـاً بِخِنْدفَ لا أَجِدْ لهـا خَطَراً يومَ الرِّهَانِ المُسَـبَّقِ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١٠٠٤ وليجة: من تولج إليهم، المُبَنَّق: له بنائق.
(٢) الخِرنق: ولد الأرنب، الرونق: ماء السيف، صَبِيُّه: ظُبَتُه.

ولا شكّ أنّ الإسلامَ قد أطفأ تلك الجذوةَ المشتعلةَ بالفخارِ القَبَليِّ، وقضى على تلك الروحِ التي كانت فاشيةً بين القبائلِ وأوقفَ جُلَّةَ الحميَّة الجاهليَّة، ومن هنا قَلَّ الفخرُ بتلك العصبيَّة عند شُعراء العرب بشكلٍ عامٍّ، " وذلك أن الأيامَ كانت قد ماتت، ولم تعد العشائرُ تَجدُ فيها ما كانت تَجدُه في العصرِ الجاهليِّ، ومعروفٌ أنَّ الفخرَ في العادة أكثرُ اتصالاً بالوقائعِ، ويقومُ أشدَّ ما يقوم على إثارةِ العصبيَّةِ، وهي شيء أنكرَه الدِّينُ الجديدُ"(١).

ولكن ليس معنى ذلك أن شُعراء هُذَيْلٍ عَزفوا عن التعصُّب لقبيلتهم، بعد الإسلامِ، أو أنهم تركوا التحدُّث عن مَجْد قبيلَتهم العتيد، كما قرَّرَ الدكتور أحمد كمال زكي حين قال: "فالمجموعةُ الإسلاميةُ في التَّحَفّي بالقبيلة لا وجودَ لها في ديوان هُذَيْلٍ،ومن الصعب أن نجدَ شاعراً يتمسَّكُ بهذا الجانب"(٢) ... بل الواقعُ أنَّ الفخر بالقبيلة عند هُذَيْلٍ ظَلَّ يُطِلُّ برأسه بعدَ الإسلامِ، وأَنَّ بعضَ شُعرائهم المسلمين كان يَفْخَرُ بقبيلتِه ويتعصَّبُ لها، ويشيدُ بشجاعتها،فهاهُوَ ذَا أمية بن أبي عائذ ـ وهو في العصر الأموي ـ يَفْخَرُ بقبيلته هُذَيْلٍ وبعزَّتها ومنَعَتِها وغلبتِها في الخصوماتِ، حيث يقول:

فإنِّي مَنْ قَدْ أَدْرَكَ المجْدَ سابقاً ... بآبائه إنْ كان ذُو اللُّبِّ يَسْأَلُ
هُذَيْلٌ حَمَوْا قَلْبَ الحجازِ وإنَّما ... حجازُ هُذَيْلٍ يَفْرَعُ الناسَ مَنْ عَلُ
وإنِّي لَوْ لاقَيْتُ ثَروةَ مَعْشَرٍ ... وَجَدِّكَ آبَى الضَّيْمَ مادُمْتُ أَعْقِلُ
إذا نَظَرَ المُخْتالُ بالبُغْضِ نَحْوَنا ... نَرُدُّ حَسِيراً طَرْفَهُ وَهْوَ أَقْبَلُ
ولَمْ يَرَنا ذُو الضِّغْنِ إلا يَهابُنا ... وإلاَّ يَرانا فَوْقَهُ وَهْوَ أَسْفَلُ (٣)

وواضح أنَّ الشاعرَ هنا يَفْخَرُ بآبائه ومجد قبيلته السابق،ولا شكَّ أنَّ هذا من التعصُّبِ القَبَليِّ الذي كان شائعاً في الجاهليَّة،وهناكَ ألوانٌ وصُوَرٌ أخرى من شِعْرِ الفخارِ بالقبيلةِ سالتْ على أَلْسِنَةِ شُعراء هُذَلِيِّين آخرين بعدَ الإسلام.

---

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص ١٥٣.
(٢) المرجع السابق ص ١٥٣.
(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٥٣٥.

وكما كانوا يَفْخَرون بالأَرومة الجاهليَّة والجُذوم الهُذَليَّة فخروا كثيراً بالإسلام، كما سبق في شعر مُلَيْحٍ قَبلَ قليلٍ، ومن شعرِه الفاخر بالإسلام - أيضاً قوله :

فَضَّلَنَا اللهُ بأَمْرٍ رائقِ ... بالعَدْلِ فينا والنَّبيِّ الصَّادقِ
ونحنُ أهلُ الدارِ والسُّرَادقِ ... والبَابِ والمِنْبَرِ والبَرَازِقِ
والمسجدِ الأَوْسعِ والرَّسَاتِقِ ... والمَوْجِ والمَلْجَإِ في الفَواهِقِ (١)

وهكذا كان شُعراء هُذَيْلٍ يفخرون بانتسابهم لقبيلتهم، وبأصلهم العربيِّ الذي يرجع لِمُدْرِكةَ بن إلياس كما يرجع إلى خِنْدِفَ التي هي أمُّ مُدْرِكة على ما سبق، كما أنهم كانوا يفخرون بشجاعتهم وشدّة بأسهم في لقاء الأعداء، ويشيدون بثباتهم في القتالِ حتى النصر، فعلوا ذلك في الجاهليةِ، وفعلوه في الإسلام بعدَ انضوائهم تحت لواء الرسولِ صلوات الله وسلامه عليه.

ولقد عرفنا أنَّ شُعراء هُذَيْلٍ افتخروا بالقيمِ والأخلاقِ والتقاليدِ العربية من الكرمِ والجودِ والسخاء، وإكرامِ الوفود والضيفان، بل إنهم كانوا يرفعون أصواتَهم مُعَبِّرين عن شعورِهم بكلِّ صراحةٍ في وجهِ أيّ تقصيرٍ إزاء حفظ القيمِ والأخلاقِ العربيةِ النبيلة.

وإذا كان لي أَنْ أُقَرِّرَ شيئاً بعدَ ذلك فهو أنَّ أسلوبَ الفَخرِ - كما اتَّضَحَ من شعْرِهم - يمتازُ بالقوَّة والرَّصانة والجَزالة والفَخامة،فهو ليس كأسلوب الغزلِ الذي يَجْنَحُ غالباً للرِّقَّة والسلاسَة. كما أن معاني الفخرِ بما لهم من تقاليد وأخلاق عربية، كانت تُسْتَمَدُّ من بيئتهم البدويةِ الخالصةِ،وهي البيئةُ الصادقةُ التي لا تَكَلُّفَ فيها ولا مبالغَةَ.

٣- الوصف :

الوصفُ من أَدَقِّ موضوعاتِ الشِّعْرِ العربيِّ، ولا ينهضُ به إلا كلُّ نَفّاذِ البصرِ لَمّاحِ البَصيرة، صافي الذّهنِ،سليمِ الفطرةِ ،دقيقِ الإحساس، رقيقِ الشُّعور،وقد بَرَّزَ فيه العربُ وسبقوا وعلوا وسمَقوا، وكان لشعرائهم حَظٌّ وافرٌ ونصيبٌ كبيرٌ منه، فكان شِعْرُهُم تصويراً صادقاً لِكُلِّ ما وقعَت عليه أنظارُهم مِن أرضٍ وسماءٍ،وشَجَرٍ وجبالٍ،

---

(١) المرجع السابق ٣/١٠٥٦.

وحيوانٍ ورمالٍ،ورياحٍ وأمطارٍ، وبرقٍ وسحابٍ، كذلك أجادوا في وصف المرأة ومحاسنها وطباعها وعواطفها، ونبغوا في وصف الإبلِ والخيلِ والبقرِ الوحشيِّ، كما أبدعوا في وصفِ الليلِ وكلِّ ما شاهدوه من مظاهرِ الطبيعةِ وأحداثِ الحياةِ.

والوصفُ من الفنون البارزة التي بَرَعَ فيها الشُّعراءُ الهُذليون، فقد نظروا في الطبيعة الصحراويَّة ودقَّقوا النَّظرَ، فوصفوا كلَّ ما وقَعتْ عليه أعينُهم، وصوَّروا الطبيعةَ وما فيها من حيوانٍ أو طيرٍ أو نباتٍ، كما وصفوا الأمطارَ والسحابَ والبرقَ والرعدَ والنورَ والظلامَ ، فرسموا بذلك لوحاتٍ ناطقةً بالفنِّ الجميلِ والطَّبْعِ الأصيلِ، مهتمينَ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من مشاهدِ الصحراءِ التي أحبّوها وفُتِنُوا بها، ولم يتركوا شيئاً من ذلك إلا سَجَّلوه في أشْعارِهم.

وكان للحيوان أكبرُ الأثرِ في حياتِهم، وهو أقربُ إلى نفوسِهم وعواطفِهم ولذلك اعتنوا به عنايةً خاصَّةً، فوصفوا جسمَه، وقوَّتَه، وقسماته، وعاداته، وحركتَه، وطبيعتَه،والحقُّ أنّ مَنْ يتتبعُ وصفَ الحيوانِ في أشْعارِهم يخيَّل إليه أنهم لم يتركوا مظهراً من مظاهرِ الحياةِ في الصحراءِ وقعَ عليه بصرُهم إلا سَجَّلوه في أشعارِهم، حتى الأشياء الصغيرة التي قد تبدو قليلة الأهميَّة لا تَلْفتُ النظرَ ولا تستحقُّ التسجيلَ، نراهم سَجَّلُوها واهتموا بها في صُوَرِهم الشِّعريةِ ولوحاتِهم الفنيَّةِ.

وقد وصفوا الإبلَ وصفاً جميلاً، كما وصفوا الخيلَ،ووقفوا طويلاً عند الحيوان الشاردِ في البادية، والساري على رمالِها، فوصفوا قطعانَ الحُمُرِ والبقرِ الوحشيَّة، وصفوا الذئابَ والثعالبَ والضباعَ، ووصفوا الظِّباءَ وصِغارَها، كما وصفوا الحمامَ والنَّعامَ والنسورَ والعقبانَ، ثم الحياتِ والزواحف الأخرى.

واحتلَّت الناقةُ مكاناً بارزاً في أشعارِ هُذَيْلٍ، فهي مصدرُ الخيرِ والرِّزقِ، ورفيقةُ السَّفرِ التي تقطعُ الفيافي، وتجتازُ الفلَواتِ دون كَلَلٍ أو مَلَلٍ، وقد فُتِنَ بها الهُذَليون ووقفوا يتأمَّلونَها، فوصفوا جسمَها الضخمَ القويّ، وشبَّهوها بالصخرةِ الصُّلْبَةِ ووصفوا سرعَتها، ونشاطَها فيه.

وعلى طول ديوانهم الضخمِ تلقانا صورٌ متعدِّدَةٌ للإبلِ، لا يمكن أن تكونَ صادرةً إلا عن عاطفةِ حُبٍّ تملأ عليهم قلوبَهم، فهذا أبو ذُؤَيْبٍ يتناول النُّوقَ في شعْرِه كثيراً، ونراه يشبِّه الناقةَ بالصخرة في صلابتِها وقوَّةِ بأسِها، ويصفُها بأنَّها مُشَمِّرَةٌ طويلةُ القوائم، مما يدلُّ على سُرْعَتِها، فيقول:

فَما فَضْلَةٌ مِنْ أَذْرِعَاتٍ هَوَتْ بِها ... مُذَكَّرَةٌ عَنْسٌ كَهَادِيَةِ الضَّحْلِ
سُلافَةُ راحٍ ضُمِّنَتْهَا إِداوَةٌ ... مُقَيَّرَةٌ رِدْفٌ لِمُؤْخِرَةِ الرَّحْلِ
تَزَوَّدَها مِن أَهْلِ بُصْرَى وغَزَّةٍ ... على جَسْرَةٍ مَرفوعَةِ الذَّيْلِ والكَفْلِ
فَوافَى بِها عُسْفَانَ ثُمَّ أَتَى بِها ... مَجَنَّةَ تَصْفُوا في القِلالِ ولا تَغْلِي
وراحَ بِها مِنْ ذِي المَجَازِ عَشِيَّةً ... يُبَادِرُ أُولَى السَّابِقاتِ إِلى الحَبْلِ
فَجِئْنَ وجاءَتْ بينهُنَّ وإِنَّهُ ... لَيَمْسَحُ ذِفْرَاهَا تَزَغُّمُ كالفَحْلِ
فَجاءَ بِها كَيْما يُوفِّيَ حَجَّهُ ... نديمُ كِرامٍ غيرُ نِكْسٍ ولا وَغْلِ (١)

وهذا مُلَيْح بن الحَكَم القِرْدِيُّ يصفُ الإِبلَ وصفاً جميلاً، ويقف عندها وقفة طويلة متأملة، ثم يشبهها بالسُّفُن، فيقول:

حَتَّى رأَيتُهُمُ تَعْلُو رِحالُهُمُ ... مَلْمُومَةً فَوْقَهُنَّ النِّيُّ واللَّبَدُ
سُدْساً وبُزْلاً إِذا ما قامَ راحِلُهَا ... تَحَصَّنَتْ بِشَباً أَطْرافُهُ غَرِدُ
فَقَلَّ مَا لَبِثُوا حتَّى اسْتَمَرَّ بِهِمْ ... بَيْنٌ كَعَطِّ الرِّدَاءِ العَصْبِ مُنْجَرِدُ
تُحْدَى بِهِمْ راجِفاتُ الهَمِّ مُجْفَرَةً ... غُلْبٌ يَشُدُّ لَها أَثْبَاجَهَا القَحَدُ
مُصْطَفَّةً كاصْطِفَافِ الفُلْكِ لا لُجُنٌ ... تَحْتَ السِّياطِ ولاَ مَشْعُوفَةٌ شُرُدُ
كأنَّ ما فوقَها مِمَّا عُلِينَ بِهِ ... دماءُ أَجْوافِ بُدْنٍ لَوْنُها جَسِدُ
فالعِيرُ تَحْمِلُ أَشْواقاً مَضَعَّفَةً ... والعينُ يُكْحَلُ فيها الصّابُ والرَّمَدُ
وقُلْتُ وَهْيَ بعيدٌ واسْتَمَرَّ بِهِمْ ... آلٌ يُعَمِّمُهُمْ والقَرْقَرُ الجَرَدُ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٩٣ مذكرة: ناقة خِلْقَتُهَا خِلْقَةَ الفَحْلِ، عَنْس: شديدة صُلْبة، فَضْلة: بقيةُ الخمرُ عند تاجرها، هوت بها: سارت، هادية الضَّحل: صخرة في بطن الماء يمرُّ عليها الماءُ، الضَّحل: الماء الرقيق، الكفْل: كساء يوضع على عَجُز البعير ليُرْكَبَ عليه، جسرة: جَسيمة، مَجَنَّة: موضع على أميال من مكة، وافى بها: أتى بها، القلال: الحِبَبَة والجرار، الحَبْل: حبل عرفة، ذِفْراها، هو الناتئ في القفا من الأذُنين، تَزَغَّمُ: تَصيح وتصوّتُ من نشاطها. النِّكس: الضعيف، الوغل، الذي يدخل على القوم يشربون ولم يُدْعوة.

بَحْـرِيَّةٌ فـوقَ غَـيْـرِ الماءِ غـادِيَةٌ   يَزْفي كَـلاً كِلَهُنَّ المْوجُ والزِّبَدُ (١)

ونمضي معه في قصيدته حتَّى نراه يصفُ سيرَها في هدوءِ الليلِ واتزانها فيه، وأنَّها في سيرها تلزمُ الموكبَ، ثُمَّ يشبه مشيَها بمشي النعامةِ لخفَّتِها ورشاقَتِها فيه، فيقول:

لا تُسْـتَـزَادُ ولا تَثْني براكِـبـهـا   إذا تَفَـاضَلَت العـيـدِيَّةُ النُّجُـدُ
تَخْـدي إذا مـا ظَلامُ الليلِ أمكَنَـهـا   مِنْ السُّرَى وفَلاةٌ شَحْـشَحٌ جَـرَدُ
خَدْيَ النَّعَامَةِ راحَتْ وَهي خـائفةٌ   فَـرَّفَعَتْ زِفَّـهـا مَـشْـعُـوفَةً تَخِـدُ
إذا المَطَايَا غـداةَ الرِّبْعِ أتْعَـبَـهـا   رَمْلٌ تَـمُـدُّ له أَعْنَاقَـهـا صَـعَـدُ
وأرْهَقَـتْـهُنَّ منهـا سِـيـرةٌ نَكَظاً   تكادُ منهـا ذِراعُ العَنْسِ تَنْقَـصِـدُ (٢)

فلما كانت الناقةُ سفينةُ الصحراءِ في البادِيةِ، فلا عَجَبَ أن يَهْتَمَّ بها الهُذَليون ويصفوها،ثم يشبهوها بتشبيهات عديدةٍ تناسب بيئتَهم البدوِّيَةَ. وهم يتحدَّثون عنها في كلٍّ مناسبةٍ.

فهذا مُلَيْحٌ أيضاً نراه في إحدى قصائده الغزلية يأخذ في وصف الطريق الذي سارَ فيه إلى صاحبته،ويتحدَّث فيها عن الإبلِ حيث يُشبِّهها بتشبيهاتٍ كثيرةٍ، ويرسمُ صورةً دقيقةً لناقته،... فهي كالفحلِ... ثم هي ماطليَّة، أي: منسوبةٍ إلى ماطل، أي: من كرام الإبلِ حيث تُنْسَبُ الإبلُ الماطليَّة، وهي ناقة يستخفُّها الطربُ في السيرِ حتى كأنها خَرِيعٌ ـ أي فاجرة ـ تَتَثَنَّى في مشيتِها، وتختال في سيرها لتكسُّرِها وتَثَنِّيها للرِّجال، يقول:

---

(١) المرجع السابق ٣/١٠١٣ ملمومة: إبلٌ سمان، النَّيُّ: الشحم: اللَّبَدُ: الوَبَرُ، تحصنت بشبا: أراد حدَّةَ الأنياب، غرِد: مُصَوِّتٌ، مُنْجَرِد: ذاهبٌ، عَطٌّ: شَقٌّ، راجفاتٌ: متحركاتُ الرؤوس في مسيرها، مَجْفَرَة: عظامُ الجُنوب، غُلْب: غلاظُ الرقاب، الثَبَج: الجَنْبُ، القَحَد: الأسْنمة، واحدتُها قَحَدَة، اللّجون: الثقيلة البليدة، مَشْعُوفة: والهة إلى أوطانها وإلى صواحبها، شُرُدٌ: ذاهبة، آلٌ: سرابٌ، يُعَمِّمُهم: يكسوهم ويُلْبِسُهُم، القَرْقَر: الأرض المستوية، الجرَدُ: الذي لا نبتَ فيه، بَحْرِيَّةٌ: سُفُنٌ، يزفي: يَسوق.

(٢) لا تثني براكبها: لا تؤخره عن الموكب، العيديَّة: الإبل المنسوبة إلى عَيدْان بن مَهْرَة: النُّجُود: الماضية، الخديان: ضرب من السير، شَحْشَح: مَحْلٌ لا نبتَ فيه، جَرَدٌ: جرداء، أرْهَقَتْهُنَّ: أدركتْهُنَّ، نَكظاً: عَجَلَة شديدة، تنقَصِد: تنكسر.

obeikandi.com

قَطَعْتُ إذا مـا الليلُ أَدْنى رِواقَـهُ ... بِمُلْتَهِمِ الصحراءِ جَوْنِ الغَيـاطِلِ
بِعيـدِيَّةٍ كـالفَحْلِ أَوْ مـا طِليَّـةٍ ... لَحُـوقِ التَّـوالي ذاتِ جِـدٍّ وَبـاطِلِ
لَجُوجٍ إذا اسْتَلْجَجْتَـها ذاتِ رَيِّعٍ ... إذا خُـودِعَتْ زَهْوَ الخَرِيعِ المُخايِلِ
من الخُـرْسِ إلا أنْ تَرُدَّ بُغـامَـهـا ... إلى طَيِّ مَثْنِيِّ الحَصِـيرَيْنِ قَـافِلِ (١)

أما أسامةُ بنُ الحارثِ فهو يحدِّثنا عن الإبلِ، ثم يصفُ ناقَتَه ويذكرُ أنَّ يدَيْها إذا أَرْقَلَتْ كأنَّهما يدا امرأةٍ في صَدْرِها ضَبّانٍ - أي : حِقْدان - تسابّ كلٌّ منهما الأُخرى، ثم يشبِّهُها بحمارٍ يهش الذبابَ عن جنبيه، فنراه يقول :

أقـامُـوا صُـدورَ مُـسِنّاتِهَـا ... بَواذِخَ يَعْـتَسِـرُونَ الصِّـعابَا
مِنَ المُضْـرِيّاتِ لاَ كَـزَّةً ... لَجُـوناً وَلا رَاشَـةَ الظَّهْـرِ نابَا
كـأنَّ يَـدَيْهـا إذا أَرْقَلَتْ ... يَدَا ذَاتِ ضَـبَّـيْنِ تَعْـرُو سِـبابَا
كـأَصْـحَمَ فَـرْدٍ على عَـانَةٍ ... يُقَـاتِلُ عَنْ طُرَّتَيْـهِ الذُّبَابَا (٢)

وأظنُّ أننا قد أطلْنا في الحديثِ عن النّاقَة، فلنذكر شيئاً عن وصفهم للخيل، ولو أنَّ ذلك كان قليلاً في أشعارِهم، وقد أسلفنا أنَّ الخيلَ لم تكنْ شائعةً عندَهم بحيث يمتلكُها كلُّ فردٍ من أفرادِهم(٣).

وقد تناولَ أبو ذُؤَيْبٍ وصفَ الفرسِ في عَينيَّتِه، حين وصفَ الفارسَ وهو يعتلي صَهوةَ فرسه السريعة، التي عَزَّ على القوي إيقافُها، والتي بلغَ من سرعتِها في عَدْوها أنها تكسرُ الحَلَقَ، وتمزِّقُ الأديمَ، وأن ذلك الفارسَ قد عَنى بفرسه،فجعلَ اللَّبَنَ لها خالصاً، حيث ربّاها ونماها وقواها، فاكتنزَ لحمُها، وتماسكت عضلاتُها، وأن عظامَها

(١) المرجع نفسه ٣/١٠٢٦ . مُلْتَهِمُ الصحراء : يعني الليلَ، الغياطلُ : الظُّلَم الشديدة واحدتها غَيْطَلَة، العيدية : الإبل، التوالي : أرجلها، ما طليَّة : منسوبةٌ، ذات رَيِّع : تَرِيع في العَدْوِ تَرْجِع بالمشي، المُخايلُ : المُفاخِر، الخَرِيعُ : الفاجرة، من الخُرس : يريد إنها لا ترغو، الحصيران، الجنبان، قافل : ضامر.

(٢) المرجع نفسه ٣/١٢٩١، مُسِنّات : يعني الإبلَ، بواذخ : مشرفات، يَعْتَسِرون : يركبون، مَضَرِيّات : منسوبة إلى مَضَرَ، لَجُون : بطيئة ، الكزة : التي لا تسرع في السير، ولا راشَةَ الظهر : ولا ضعيفتَهُ، تَعْرُو سِبابا : تُسابُّ الأُخرى، الأصحم : الحمار، طُرَّتيه : جَنْبَيْه.

(٣) سبقَ ذلك مفصلاً في البابِ الثالث ، فصل : "مصادر الثروات فيها" .

Obeikandl.com

اكتسبَتْ ثوباً من الشَّحْمِ الدسم واللحمِ السمين، بحيث إنَّكَ لو غمزتَ فيه الإصبعَ لم تبلغِ العظمَ، وأن هذه الفرسَ قد تشقَّقَ لحمُها عن النَّسا، فبدا وظهرَ، وأنها ذاوية الضَّرعِ لأنها لم تحملْ قطُّ، ولم يجرِ في ضَرْعِها لبنٌ،وهذا جديرٌ أن يجعلَها قوية متينة،وشديدة مكينة. ثم وصفَ الفرسَ بأنها عزيزةُ النَّفْسِ،مرهفةُ الحسِّ، شديدةُ الأنفة، وأنَّها لا تجري إذا استعملَ معها العنفَ، لأنها معتدَّةٌ بالأصالة، فلا تُساق بسوطٍ، ولا بضربٍ بساقٍ، بل تنساب بفطرتِها في سيرها وتجودُ بما عندها عفواً وفَضْلاً، فهو يقول:

تَعْدُو به خَوْصَاءُ يَفصِمُ جَرْيُها ... حَلَقَ الرِّحَالَةِ فَهْيَ رِخْوٌ تَمْزَعُ

قَصَرَ الصَّبُوحَ لهَا فَشَرَّجَ لحمَها ... بالنيِّ فَهْيَ تَثُوخُ فيها الإِصْبَعُ

مُتَفَلِّقٌ أَنْسَاؤُهَا عَنْ قَانِىءٍ ... كالقُرْطِ صَاوٍ غُبْرُهُ لا يُرْضَعُ

تأْبَى بِدِرَّتِها إذا ما اسْتُغْضِبَتْ ... إلا الحَمِيمَ فإِنَّهُ يَتَبَضَّعُ (١)

وقد عيب على أبي ذؤيب في البيت الثاني قوله " تثوخ فيها الإصبعُ" وتثوخ أي تدخل فيها،قال الأصمعي: "وهذا من أخبث ما تُنْعَتُ به الخيلُ، لأن هذه لَوْعَدَتْ ساعةً لانقطعت لكثرة شَحْمِها،وإنما توصفُ الخيل بصلابة اللحم، وأبو ذؤيب لم يكن صاحبَ خيلٍ"(٢).

والواقع أنَّ الشاعرَ يريدُ أنَّ عليها من الشَّحْمِ واللحمِ ما لو غَمَزْتَ بإصبعك لم تبلغِ العَظْمَ، وقال بعض العلماء: تثوخ أي ترفَضُّ عنها الإصبع لأَنَّها مُكْتنزَةُ اللحمِ، أي : تَعْدِلُ من اكتنازِها، وهذا معنى مقلوب(٣). فالشاعر يقصد أنَّ عليها من

---

(١) قطوف: من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ٢/١٦٥ خوصاء، غائرة العينين، يَفْصِمُ: يفصل بسهولة ويسارة، وقال بعضهم: يَكْسِرُ ، الرِّحالة: سرج من جلود ليس فيه خشبٌ، رِخْو: سهل هيِّن ، تَمْزَع: تسرع، الصبوح: شرب الغداة، شُرِّجَ : خُلط، تثوخ: تَدْخُل وتغيب وقال بعضهم : ترفض، الأنساء: جمع نسا وهو عرق يمتد في الورك والفخذ والساق ويبدأ من متن الظهر قرب الحوض حتى أخمص القدم، وعليه يعتمد في السير، الغُبْرُ: بقيةُ اللبن، الدرة، اللبن، الحميم، العَرَق وأصله الماء الحار، يتبضع: يسيل ويتفجر.

(٢) ديوان الهذليين ١/١٦.

(٣) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ٢/١٦٦.

الشَّحْمِ واللحم ما لو غمزتَ فيه بإصبعِكَ لم تبلغِ العَظْمَ ولم يُرِدْ أنَّ الإصبعَ تغيب فيها.

ونقطة أخرى آخذه الأصمعيُّ عليها في هذه الأبيات وهي قوله:

تَأْبَى بِدِرَّتِها إذا مَا اسْتُغْضِبَتْ إلا الحميمَ فإنه يَتَبَضَّعُ

قال الأصمعي: " وهذا مما لا تُوصف به الخيلُ، وقد أساء، وإنما أرادَ بهذا شدَّة نَفسها، إلا أنه كان لا يُجيدُ في صِفةِ الخيلِ، وظنَّ أن هذا مما تُوصف به(١).

ووجه إساءته أنه وصفَ الفرسَ بما توصفُ به الناقةُ، فإنَّ الذي يُحْمَلُ على سرعةِ العدْوِ بالسوطِ ونحوه إنما هي الناقةُ، وهذا وصفٌ سَيِّئ للفرس.

ومهما يكن من أمرٍ فقد اشتهرَ في وصفِ الخيل من شُعراء هُذَيْل ساعدةُ بن جُؤَيَّة، والحقّ أنه وصفها وصفاً دقيقاً وأجادَ فيه. فهو في إحدى قصائده يصفُ الخيلَ السريعةَ عند قومه، ويحدِّثنا عن قوَّتها وشدَّة بأْسها ويصور لنا خِفَّتَها ورشاقَتها.

وفرسُ ساعدةَ عَبْلُ القوائم، طويلة، ثم إنها سريعة جداً حتى كأنَّها تَنْهَبُ العَدْوَ انتهاباً، ثم هي ممتلئة اللحمِ ومجدولة الخَلْق، وملتفة الأعضاء، وضخمة فخمة، وقد بلغ من شدَّتها أن حوافرَها قويةُ التَّحَمُّلِ، حتى كأنَّ شعراتها اسْتُبدِلَتْ بحجارةٍ صلبةٍ، وفوقَ ذلك يجدُ فرسَه يهتزُّ لرشاقته وخِفَّته، وذلك حيث يقول:

مِنْ كُلِّ فَجٍّ يَسْتَقِيمُ طِمِرَّةٌ شَوْهاءُ أَوْ عَبْلُ الجُزارَةِ مِنْهَبُ
خاظِي البَضِيعِ لَهُ زَوافِرُ عَبْلَةٌ عُوجٌ وَمَتْنٌ كالجَدِيلَةِ سَلْهَبُ
وحَوافِرُ تَقَعُ البَراحَ كأَنَّما أَلِفَ الزِّماعُ بِها سِلامٌ صُلَّبُ
يَهْتَزُّ في طَرَفِ العِنانِ كأَنَّهُ جِذْعٌ إذا فَرَعَ النَّخِيلَ مُشَذَّبُ (٢)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٣٥.

(٢) المرجع السابق ٣ / ١١١٦ الجُزارة: القوائم، طِمِرَّةٌ: طويلةٌ، الشوهاءُ من الخيل: المشرفة، مِنْهَب: سريع، الجديلة: حبل مجدول من سُيُورٍ أو شَعْرٍ أو صوف، خاظي البضيع: ممتلئ اللحم، زوافر الفرس: وسَطه، سَلْهَب: طويل، عبلة: ضخمة، عُوجٌ: ضُلوعٌ متعطفة، تقعُ البراح، تقرعُه، السِّلامُ: هي الحجارة: والبراح، المستوى من الأرض، الزماع، شعرات خلف الحافر، إذا فرع النخيل: إذا علاها، مُشَذَّبٌ: مُنَقَّى.

ولا شكّ أنَّ الشاعرَ قد أجادَ في وصفِ الفرسِ، فمع أن فَرسَه ممتلئةُ اللحمِ وضخمةٌ تبدو مجدولةَ الخَلْق،ملتفةَ الأعضاءِ، وهذا دليلُ قوّةِ الفرسِ، ولا عجبَ بعدَ ذلك أن يهتزَّ فرسُه كأنه جِذْعٌ مِن حدته ورشاقته.

وقد أخذ في قصيدةٍ أخرى يَصفُ المعركةَ التي قُتِلَ فيها ابنهُ ـ بعد أن رثاه ـ واصفاً شجاعتَه وإقدامَه، ثم أخذَ يصفُ الخيلَ، وكيف أنَّ الفرسانَ تناولوا أَرْسَانَ الجياد الطويلة الأعناق، والتي بلغَ من سرعتها أنه لا يدرك عَدْوُها، ثم يصف فرسَه بأنه مُنْجَرِدٌ، ومنتفخ الجنبينِ، وأن ذيلَه كثيرُ الشّعرِ،كأعالِي شجرِ البَرْدِيٍّ، وذلك حيث يقول:

فَناشُوا بأَرْسَانِ الجِيادِ وقَرَّبُوا … عَناجِيجَهُمْ مَجْنُوبَةً بالرَّواحِلِ

وكُلِّ شَمُوسِ العَدْوِ ضَافٍ سَبِيبُهَا … ومُنْجَرِدٍ كالسَّيدِ نَهْدِ المَرَاكِلِ

يُمِرُّ علَى السَّاقَيْنِ وَحْفاً كأَنَّهُ … دَنا حَفَإٍ مَرَّتْ بهِ الرّيحُ مَائِلِ (١)

فالشاعرُ في الموضعينِ وصفَ الفرسَ وصفاً دقيقاً، وصفَ جسمَه وقوَّتَه وعِظَمَ هيكلِه، وهو مفتونٌ بسرعته ونشاطه. ونلاحظ أن فرسَ ساعدةَ فرسُ حربٍ وقتالٍ ونزالٍ، حيث أعدَّه للحربِ والغارةِ والفروسيةِ كفرسَ عنترة الذي يتسربل بالدمِ،وهو ليس كفرسِ امرئ القيس فرس الصيدِ واللهوِ، الذي يباكر الوحوش ويقيدها.

ويتردد ذكرُ حمارِ الوحشِ عندَ شُعراء هُذَيْلٍ على مدىً واسعٍ، وكثيراً ما فعل ذلك صعاليكُ هُذَيْلٍ أثناء الحديثِ عن عَدْوِهم وفرارِهم، حتى ليقول الدكتور يوسف خليف: "إن ذِكْرَ حمار الوحش في صدد الحديثِ عن العَدْوِ خاصَّةٌ هُذَلِيَّةٌ" (٢).

فهذا صَخْرُ الغَيِّ يصفُ صاحباً له بشِدَّةِ العَدْوِ، ويشبِّهه بحمارِ وحشٍ ضامرٍ تعضه الحُمُرُ، فينفلت منها مسرعاً، يقول:

---

(١) المرجع نفسه ٣/ ١١٨٣ ناشوا: تناولوا: العناجيج: الطوال الأعناق، مجنوبة: يعني هذه الخيل تُجْنَبُ إلى الإبل، شَموس: لايُدْرَك عَدْوُها، سَبِيبُها ناصيتُها، ضافٍ: كثير، المُنْجَرِد: الماضي، نَهْدُ المراكل: ضَخْمُ موضع عَقِبَي الراكب، والمراد أنه منتفخ الجنبين، على الساقين وحفاً: يريد ذنباً كثير الشعر، دنا حفإ: يريدُ أعالي البَرْدِيٍّ: والحفأ: البَرْدِيٌّ.

(٢) الشعراء الصعاليك في العصرِ الجاهلي ص ٢٢٠.

مَـــعِي صـــاحِبٌ داجِنٌ بـالغَــزا ... ةِ لَمْ يَكُ في القَـوْمِ وَغْـلاً ضَـعِـيفَـا

تَـرى عَــــدْوَهُ صُــبْحَ إقْــوائِه ... إذا رَفَعَ المَأْبِضَــان الحَـــشِــيــفَـــا

كَــــــعَـــــدوِ أَقَبَّ رَبَاعٍ تَـرَى ... بـفـــائِلِه وَنَسَـــاهُ نُسُـــوفَـــا (١)

أما الأعلمُ فالصورةُ التي يرسمها لحمارِ الوحشِ أكثرُ خطوطاً وألواناً، فحمارُهُ ضامرُ البطنِ ولكن في غيرِ هزال، كأنه عرق السدرِ في حُمْرَتِه، وهو سريعٌ جداً حتى إنّه ليسبق الإبلَ والخيلَ النجيبةَ، وقد خرجَ ليلاً في طلبِ الماءِ، فعرضَتْ له أتانٌ سمينةٌ مكتنزةُ اللحم، وهو حريصٌ على إدراكها... وفي ذلك يقول من قصيدةٍ له يذكرُ فيها فَرَّتَهُ من بني عَبْدِ بن عديٍّ بنِ الدِّيلِ من كِنانة، ويتحدَّث فيها عن جَذِيمة وهو الرجلُ الذي كان يَطلُبُه:

يُـغْـــــرَى جَـــــذِيمَـةُ والـرِّدَاءُ ... كـــــأَنَّـهُ بـأَقَـبَّ قَــــارِبْ

خَـــاظٍ كَـــعِـــرْقِ السِّـــدْرِ يَـ ... ـسْـبِقُ غـارَةَ الخُــوصِ النَّجـائِـبْ

عنَّـتْ لـه سَـــــفْــــعَـــــاءُ لُـكَّـ ... ـتْ بالبَـضِـيعِ لَـهـا الخَـبـائِـبْ (٢)

على أنَّ أبا ذُؤَيْب قد أجادَ في تصويرِ حمارِ الوحشِ وبلغَ قمةَ الأجادَةِ والروعةِ في هذا الميدان، ومعروفٌ أنَّه تحدَّث عن الحيوان كثيراً، وبرعَ في تسجيلِ حركاتِه ومتابعته في الباديةِ، ويظهرُ ذلك جلياً في كلِّ ما كان يَقُصه من قصصٍ، فاستمع إليه في قصيدَته العينية، التي قالها في رثاء أبنائه، حين يتحدَّث عن حمارِ الوحشِ، والعجيبُ في ذلك أن أبا ذؤيب يتَّخِذُ منه عزاءً لنفسِهِ، وتسليةً لها.

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين (١/٣٠١) داجنٌ: معاوِدٌ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ، أو متعوِّدٌ للغزوِ، الوَغل: النّذْلُ: المَأْبِضان: باطِنُ الركبة وباطِنُ المِرفق، والإقواء هنا: النزول في القفر من الأرض، الحشيف: الثوب الخَلَق، الرباع: الذي ألقى رباعيته وهي السِّنُّ التي بين الثنية والنابِ، الفائل والنسا: عِرقان، النُّسوف: آثارُ العضِّ.

(٢) المرجع السابق ١/٣١٣ أقب: حمارُ وحشٍ ضامرُ البطن، القارب: الذي يُصْبِح فيُصَبِّح الماء، خاظٍ، أي: مكتنز ممتلئ لحماً، الخوص: الغائرات العيون من الإبل والخيل، النجائب: الكرام، سفعاء، سوداء الوجه في حُمْرَة، لُكَّتْ: قُذِفَت باللحم، البضيع: اللحم، الخبائب: طرائق اللحم، ولها هنا بمعنى منها.

obeikandi.com

وهو يتحدَّث عن حمار الوحش ويَنْعَتُهُ نَعْتاً عجيباً،فيصفُ الحمارَ الوحشيَّ القَويَّ المنطلقَ مع أُتُنه بكلِّ قُوَّةٍ ونشاطٍ، وكيف أنه يمرح معها في الأراضي الخصْبَة في حريةٍ وقوّةٍ، ويفاعةٍ ومَنَعَةٍ، وكيف أنَّ الحمارَ كان ينطلق بالصريخ بأعلى الأصوات،كناية عن فتائه وقوته وصباه،وأنه أخذَ مع أُتُنه في الاصطراع والمغالَبة والمرامَحَة، مَرَّةً على سبيلِ الجدّ، وأخرى على سبيل اللهوِ والمرحِ، مما يدلُّ على ما كانوا ينعمون به من حرية ومرح وانطلاق، فيقول:

والدهرُ لا يَبْقَى على حَدَثانه ... جَوْنُ السَّراةِ له جَدائدُ أَرْبَعُ
صَخِبُ الشَّوارِبِ لا يزالُ كأَنَّهُ ... عَبْدٌ لآلِ أَبي ربيعةَ مُسْبَعُ
أَكلَ الجَميمَ وطاوعَتْهُ سَمْحَجٌ ... مِثْلُ القَناة وأَزْعَلَتْهُ الأَمْرُعُ
بقَرارِ قيعانٍ سَقاهَا وَابلٌ ... واهٍ فأَثْجَمَ بُرهَةً لا يُقْلِعُ
فَلَبِثْنَ حيناً يَعْتَلِجْنَ بِرَوْضِهِ ... فيَجِدُّ حيناً في العِلاجِ وَيَشْمَعُ (١)

ويواصل الشاعرُ وصفَ حمار الوحشِ، ويذكر أنه عندما انقطعتْ عنه المياهُ، وجفَّتْ مرابعُ الكلأ احتاج إلى العيون القديمة التي فيها الماء، فقد غلبتْهُ شقْوَتُه وكانت منيَّتُه في أُمنيَّته. ويصور كيف أنه نَزَلَ بأُتُنه طراداً من ذلك المكان الكثيرِ المياه، وكيف عارَضَه في طراده طريقٌ واسعٌ مستقيم، وهو يمدُّ في المطاردة. ثم أخذ في رسم صور بيانيةٍ لهذه الحُمُرِ الوحشية وحمارِها الذي يقودهن ، فشبَّه هذه الحُمُرَ وجون السرَّاة الذي يسوقُها أمامه-بين الجِزْعِ والعرجاء-بأنَّها نَهْبٌ مُجْمَعٌ، أي: إبلٌ نُهِبَتْ ثم سِيقَتْ وأُجْمِعَتْ حتى صارت كأنها كتلة واحدة، وهي صورة في غاية الجمال والدقة. ثم يأتي الشاعر بصورة تشبيهية

---

(١) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ٢/١٤٢ ، الحدثان: مصائب الدهر وبلاياه، الجون: الأبيض والأسود فهو من أسماء الأضداد، السَّراة: أعلى كلّ شيء، والمراد أعالي الجبال والهضاب، الجَدائد: جمع جَدود وهي الأتان السمينة، الصخب: الشديدُ الصوت، الشوارب: عروقٌ في الحلق والمراد أنه كثير النهيق ، أبو ربيعة: هو ابن ذُهْل بن شيبان وقيل من بني شجْع من كنانة، المُسْبَع: المهملُ الذي لا يعمل، الجميم: النبت أول خروجه من الأرض، السَّمْحَج: الأتان الطويلة على وجه الأرض دون ارتفاع نحو السماء، القناة : الرمح، أزعلتْهُ: نَشَّطته، الأمرع: جمع مَرْع وهو الخِصْب، القرار، مكان الاستقرار، وذكر السكريُّ أنه جمع قرارة وهي مكان استقرار الماء، القيعان: جمع قاع وهو أرض سهلة مطمئنة، الوابل: المطر الشديد، أثجم، أقام وثبت ودام، البرهة، المدة الطويلة من الزمن، يقلع: ينقطع.

obeikandl.com

جديدة للحمار الوحشيِّ مع أُتُنِه، فيشبهها بمجموعة من القداحِ المتضامَّة يتصرَّف فيها مديرُ لعبة المَيْسر كما يهوَى، ويحركُها كيف يشاء. ثم يأتي بصورة بيانية أُخرَى يَشَبِّه الشَّاعرُ فيها حمارَ الوحشِ بالآلة التي تَصْقُلُ السيوفَ حيث تتقلب في أوضاعٍ شتَّى وهي في كَفِّ الصَّيْقَلِ، وذلك تصوير لحركاته وتنقلاته السريعة بين الأُتُنِ ، على أوضاعٍ متباينة متخالفةٍ، ثُمَّ يصور كيف وردت الحُمُرُ الماءَ لتستقي في الوقتِ الذي كان فيه كوكب العَيُّوق في سمت الجوزاء على صورةِ المُراقب الراصد لعمليات القمارِ ونقلِ القداحِ، ولا شكَّ أنَّها صورةٌ مثاليةٌ ودقيقةٌ في المعنى المراد وهو الثباتُ وعدمُ الحركةِ، فنراه يقول:

حتى إذا جَزَرَتْ مياهُ رُزُونِه ... وبأيِّ حينِ مَلاوةٍ تَتَقطَّعُ
ذكرَ الُورودَ بها وشاقَى أَمْرَهُ ... شُؤْمٌ وأَقْبَلَ حَيْنُهُ يَتَتبَّعُ
فَافْتَنَّهُنَّ مِن السَّواءِ ومَاؤُهُ ... بَثْرٌ وعانَدَهُ طريقٌ مَهْيَعُ
فكأنَّها بالجِزْعِ بَيْنَ نُبايعٍ ... وأُولاتِ ذي العَرجَاءِ نَهْبٌ مُجمَعُ
وكأَنَّهُنَّ رِبَابَةٌ وكأنَّهُ ... يَسَرٌ يُفيضُ على القِداحِ ويَصْدَعُ
وكأنَّمَا هُوَ مِدْوَسٌ مُتَقَلِّبٌ ... في الكَفِّ إلا أنَّهُ هُوَ أضْلَعُ
فَورَدْنَ والعَيُّوقُ مقْعَدَ رَابِىءِ ... الضُّرَباءِ فَوْقَ النَّجْمِ لا يَتَتلَّعُ (١)

ثم يصفُ الأُتُنِ وكيف وردْنَ ذلك الموردَ العذبَ الماء، ودلين رؤوسهن فيه وارتشفن مِن رحقيه، وتلذذن من شربه، حيث نزلن فيه بقوائمهن فرحات مرحات،

---

(١) جَزَرَتْ: نَقَصَتْ وغارَتْ: الرزون: جمع رِزْنٍ وهو الموضعُ الغليظ المُنْخَفض، الملاوة: كالملوة: الزمنُ الطويل من الدهرِ، تتقطع: تنقطع، الورود: الذهاب إلى منابع المياه ومخازنها، شاقَى: غالبَ ، الشؤوم: النَّحس، الحين: الهلاك والدمار، يتتبع: يظهرُ ويجيء قليلاً قليلاً، افْتَنَّهُنّ: طردهن فُنُوناً من الطردِ، أي: جرى بهن أنواعاً من الجري، السواء: وسط الجبل أو الأكمة ،بثر: بمعنى كثير، أو اسم موضع، عانده، عارضَه، المَهْيَع: البيِّن الواضح الواسع، الجِزْع: منعطف الوادي، ونبايع: موضع ، العرجاء : أكمة أو هضبة، نَهْبٌ، منهوب مسلوب: مُجْمَع: مجعول جمعاً سِيق في هذا المكان، الربابة: الجلدةُ التي تَجمعُ قداحَ الميسر والمقصود بها هنا: مجموعة من القداح أنفسها، اليَسَرُ: صاحب الميسر الذي يضرب بالقداح، يفيض : يرسل ويدفع، يصدع: يحكم ويفرق ويميز بينها، المِدْوَسُ: الحجر أو الحديدة أو المِسَنُّ الطويلُ الذي يجلوا به الصيقلُ السيوفَ، متقلب: متحرك، الأضْلَع: الأصلب الأغلظ، العَيُّوق: كوكب، الرابئ: المراقب والملاحظ، فوق النجم، في سمته الأعلى، لا يتتلع: لا يتقدم.

obeikandl.com

ويصور كيف أن الحُمُرَ بعد أن شَرِبَتْ أحسَّتْ صوتاً قريباً منها وغريباً عنها، وكان ذلك الصوتُ هو صوت الصائد وأوتاره وقسيِّه، أو صوتُ الحُمُرِ الأُخر، فهذه الحركة الخفيفة دلت الأُتُنَ على الصائد المتهيِّئ للصيد،المستعدّ له بالرماح والنصال الكثيرة، وكيف أن الأُتُنَ حينما أحسَّتْ بالصائد فزعن وخفن وفررن في اتجاه الفَحْلِ وقريباً منه،ولجأت كلٌّ منهن للفّحْلِ تحتَمي به وتحاولُ التداخلَ فيه، لينقذَها من الخوف ويبلغَها المأمنَ. وفي أثناء هذا الفزعِ والخوف ومضطرب الفرار،وجَّه الصائدُ سهمَه فنفذَ في آتان مسرعة ذات لحم طيِّب ـ لأنها لم تحمل ولم تلد ـ وكيف أن السهمَ خرجَ منها مُغَطّىً بالدماء المتجمدة، حتى توارت ريشُه وبدا السهمُ معها شيئاً واحداً. فنراه يقول:

فَشَرْعَن في حَجَراتِ عَذبٍ بارِدٍ ... حَصِبِ البِطَاحِ تَغيبُ فيه الأَكْرُعُ

فَشَرِبْنَ ثم سَمِعْنَ حِسّاً دُونَهُ ... شَرَفُ الحِجابِ وَرَيْبَ قَرْعٍ يُقْرَعُ

ونَمِيمةً من قانِصٍ مُتَلَبِّبٍ ... في كَفِّهِ جَشْءٌ أَجَشُّ وأَقْطَعُ

فَنَكِرْنَهُ ونَفَرْنَ وامْتَرَسَتْ به ... سَطْعاءُ هادِيَةٍ وهَادٍ جُرْشُعُ

فَرَمَى فَأَنْفَذَ من نَجُودٍ عائطٍ ... سهماً فخرَّ وريشُهُ مُتَصَمِّعُ (١)

ثم يحدِّثُنا عن الصياد الذي كانَ يتربصُ بالحُمُرِ، وكيف أن حياةَ حمارِ الوحشِ انتهتْ على أيدي ذلك الصياد، وانتهى أمرُه بالهلاكِ والفناء، كما أن الأُتُنَ

---

(١) شرعن: بمعنى قَدَّمْنَ رؤوسَهن ليشربْنَ، والحَجرات: جمع حَجْرة وهي الناصية والجانب، حَصِب البطاح: أي بطاحه كثيرة الحصباء أي دليل عذوبة الماء ونقائه، البطاح، بطون الأَودية، الأكرع: جمع كراع والمراد قوائم الأُتُن، الحسّ: الصوت: شرف الحجاب: ما ارتفع من الأرض في الحرَّة عند منقطعها، وهو يريدُ حجابَ الصائد، القرع: صوت الوتر، الريب: المريب المخيف، النميمة: الهمهمة التي نَمَّتْ عن الصائد المتستر، المتلبب: المتحزم بثوبه ليكون خفيف الحركة، الجشْءُ: القضيب، الأجش: في صوته جُشَّة أي خشونة في الحلق، الأقْطَع: جمع قِطْع وهو النَّصْل، نَكِرْنَه، أنكرنه وخفن منه، نفرن: وثبن في فزع، امترست به: مرت بالصائد حتى كادت تحتك به، السطعاء: الطويلة العنق، هادية: متقدمة، الجُرْشَع: المنتفخ الجنبين، النجود: الآتان الطويلة على وجه الأرض، العائط التي اعتاطت رحمُها، أي: أغلقته عن ماء الفحل فبقيت سنين لا تحمل ولا تلد وليست بعاقر، ريشه مُتَصَمِّعُ: متضام متماسك من تجمّدِ الدمِ عليه.

جميعاً ذاقت كؤوس الرَّدَى،وأوردْنَ سبيلَ الفناء،حيث أصابَ كلاًّ منهنَّ سهمٌ اخترقَ جَنْبَها واستقرَّ في أحشائها،فكن بين مصروعة مجدلة، وهاربه يتحرك فيها النَّفَسُ، ولكنّها تعاني من سكرات الموت، وستنتهي كما انتهت الأُخريات، وقد كانت النِّصالُ من الكثرةِ لدرجة تعثرتْ فيها الأُتُن أثناء فِرارها،وكانتْ دماؤُها تسيلُ على الأيدي والأرجلِ حتى كونت خطوطاً حمراً تُري الناظر أنها ملفوفة بتلك البرود الملونة بالحمرة في شبه خطوط طويلة، يقول:

فَبَدَا له أَقْرابُ هذا رائِغاً ... عَجِلاً فَعَيَّثَ في الكِنَانَة يُرْجَعُ
فَرَمَى فأَلْحَقَ صاعِدِياً مُطْحَراً ... بالكَشْحِ فاشْتَمَلَتْ عليه الأضْلُعُ
فأَبَدَّهُنَّ حُتُوفَهُنَّ فهَارِبٌ ... بذَمائه أو بارِكٌ مُتَجَعْجِعُ
يَعْثُرْنَ في حدِّ الظُّباتِ كأنما ... كُسِيتْ بُرودَ بني تَزِيدَ الأَذْرُعُ (١)

إِلى غير ذلك مما وردَ في وصفِ الحمارِ الوحشي عندَ شُعراء هُذَيْلٍ.

وعندي أن ما رسمه أبو ذُؤَيْب للحمار الوحشي مع أُتُنه يُعَدُّ أدقَّ صورةٍ وأروعَ وَصْفٍ في الحديث عنه، ولوحتُه - مع ما فيها من دقَّة - تُصَوِّرُ الحياةَ والحركةَ كما يرسمهما شريطُ الخيالة "السينما" أَتَمَّ الرسمِ وأَدَقَّ التصويرِ.

وقد افتتن شُعراءُ هُذَيْلٍ بالثورِ الوحشي والبقرةِ الوحشية، فوصفوهما كثيراً في أشعارِهم لاسيما في سياق القصص التي يروونها عنهما، والتي تمثلُ صراعَ الثورِ مع كلابِ الصيدِ، الذي يخلف قصصاً حزينةً ومؤثرة في هذا الميدان.

---

(١) الأقراب: جمع قُرْبٍ وهو الخاصرةُ، رائغاً، أي: هارباً، عَجلاً، مسرعاً، عَيَّثَ في الكنانة: وهي خزانة السهام المحمولة معه خلف ظهرة، عَيَّث: مَدَّ يدَه فأدخلها في الكنانة، يرجع: يَرُدُّ يده ليأخذ سهماً آخر، ورمى فألحق صاعدياً أي رمى سهماً مرهفاً منسوباً إلى رجل اسمه صاعد أو إلى صَعْدَةَ وهي إحدى بلاد اليمن وعليه فهو مصنوع في صَعْدَةَ، وهي نسبة سماعية لا يعترفُ بها القياس، مطْحَراً: ملتصق القذذ جمع قذة وهي ريشة الشهم، الكشح: ما بين الخاصرة والضلع الخلفي للفريسة، أَبَدَّهُنَّ: أعطاهن أو قتلهن، الحتوف: جمع حتف وهو الموت والهلاك، الذَّماء: بقية النَّفْس، أي: الحياة، المتجعجع: الساقط المصروع اللاصق بالأرض، الظُّبات: جمع ظُبة وهي طرف النصل من أسفل، البرود: جمع برد وهو الثوب المعلم، بنو تزيد: قبيلة من قُضاعة، الأذرع: أيدي الأتن.

obeikandi.com

وهذا الدَّاخِلُ بنُ حَرام يصوِّرُ حالةَ بقرةٍ وحشيةٍ، ويقف على نفسيتها القلقة الخائفة، وكيف أنَّها كانت مُتَوجِّسَةً مَذْعورةً، وبلغت حالةُ الفزعِ عندها أنه أصابَها النشَّيجُ وهو انتحابٌ من صدرِها وصوتُه شبيه بالنَّفَس، وهي إذا سارتْ تَصِيخ إلى دَوِيِّ الأرض ولا ترفع رأسها أبداً، كما يفعلُ الذي شُجَّ في رأسه، فهي تُصيخ وقد أهوت بأذنها إلى الأرض كأنها لا تستطيع أن ترفعَ رأسَها، يقول:

وَهادِيَةٍ تَوَجَّسُ كُلَّ غَيْبٍ ... إذا سَامَتْ لَهَا نَفَسٌ نشِيجُ
تُصِيخُ إلى دَوِيِّ الأَرضِ تُهْوِى ... بِمَسْمَعِهَا كما أصْغَى الشَّجِيجُ
عَزَزْناها وكانتْ في مَصَامٍ ... كأَنَّ سَراتَها سَحْلٌ نَسِيجُ (١)

ثم يرسم صورةَ الصياد في خطوطٍ سريعة، ويعني بالصياد نفسه، وكيف أنه كان يرتدي ثوباً خَلَقاً، ويُمْعن في إخفاء نفسه، حتَّى كأنَّ لونَه لون الأرض، وكيف أنه لم يزلْ يحوشها حتى ألجأَها إلى ذلك المكان الذي لا تستطيع أن تروغ منه، وكيف أن هذا الصائدَ سوف يُهلكُ نفسَه إن لم ينلْ هذه البقرةَ، وحُقَّ له أن يصابَ سَحْرُه ويُبْعَج بطنُه إنْ لم ينلْها، وكيف أنه لما قصدَ إليها خلفته خَلْفَ وَرِكها عن شمالها وقد أبدَتْ من عُرْضِها حيث كانت مسرعة في شَدِّها، تمر كالريح الهائجة، وكيف أنه رماها بسهم حليف -أي حديد قطعَ حديثاً- وهو ماضٍ يخلو من الشقوق فلم يضعف، وفي هذا يقول:

أُتِيحَ لَها أُغَيْبِرُ ذو حَشِيفٍ ... غَبِيٌّ في نِجاشَتِهِ زَلُوجُ
أَحاطَ النَّاجِشانِ بِها فجاءَتْ ... مكاناً لا تَروغُ ولا تَعُوجُ
ويُهْلِكُ نفسَه إن لم يَنَلْها ... فَحُقَّ لَهُ سَحِيرٌ أو بَعِيجُ
وَيَمَّمَها فَلمَّا ورَّكَتْهُ ... شِمالاً وَهْيَ مُعْرِضَةٌ تَهِيجُ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٦١٢ هادية: بقرة تتقدم كلَّ البقر، تَوجَّسُ: تسمع على ذُعْرٍ، سامَت: رعت وذهبت وجاءت، نشيج: انتحاب في صدرها يُصيبها من الفزع أو هو صوت شبيه بالنَّفَس، غيب، أي: مكان يواريها، تصيخ: تصغي وتتسمع، تُهْوي به: تضعه على الأرض، المِسْمَعُ: الأذن، عززناها: غلبناها على هواها فهربت منا، مصام: يريد موضعاً كانت ترعى فيه، سَحْل: ثوب أبيض، نسيج، أي: كأنَّ في ظهرها ثوباً أبيض يمانياً.

obeikandi.com

دَلَفْتُ لَهَا أَوَانِئِذٍ بِسَهْمٍ حَلِيفٍ لم تَخَوَّنْهُ الشُّرُوجُ (١)

أما ساعدة بن جُؤَيَّه فيرسمُ صُورةٍ جميلةً وهو يُحَدِّثُنا عن حالة أبقارٍ وحشيةٍ قد طُورِدَتْ إلى أراضٍ صلبةٍ وكان الجَوُّ حاراً، وكيف أنها مُنِعَتْ من كلِّ ماءٍ، فهي ضامرةٌ وظلَّت صَوافِنَ، أي :قائمات على ثلاثِ قوائم ثانيات سنبك اليدِ الرابعة، ثم إنَّها تقدر أين موقع الماء حتى تمضيَ إليه فقد منعت الماء من الرماة، يقول :

ظَلَّتْ صَوَافِنَ بالأَرْزانِ صَاوِيَةً في ماحِقٍ من نَهارِ الصَّيْفِ مُحْتَدِمِ
قد أُوْبِيَتْ كُلَّ ماءٍ فهيَ طاوِيَةٌ مَهْما تُصِبْ أُفقاً من بارِقٍ تَشِمِ (٢)

والحقّ أنه أجادَ في رسمِ هذه الصُّورة الدقيقة، وما أظنُّ أحداً يُعْنَى بهذه الصورة إلا إذا كان متلفتاً لها شاعراً بجمالها وحيويتها،فهو لم يكتفِ بأن قالَ: إنها ظلَّت واقفة في ماحِقِ الصيف، وإنما قالَ: إنها كانت صافنةً، وفي وقفتها تلك ذلة ووداعة وفيها مسكنة الحيوان حين يريدُ أن يهدأ(٣).

وهذا أبو ذُؤَيْب الذي برعَ في وصفِ الثور الوحشي،وهو يحدِّثُنا عنه في عينيته بعدَ أن تحدَّث عن حمارِ الوحش، وهو كذلك يتخذ من الثورِ الوحشي عزاءً لنفسهِ وتسليةً لها على ريبِ الزمانِ.

وهو يصور لنا الثورَ الوحشيَّ المكتملَ القُوَى الذي رَوَّعَتْه الكلابُ وأفزَعَتْه، فهامَ في جوانبِ الأرض إلى كل اتِّجاه، وبكلِّ سرعةٍ ونشاطٍ، وكيف أنه كان يختفي عن عيون الصائد، فكان يلجأ إلى شجر الأرْطَى ويحتمي في ظِلاله، مما يدلُّ على حَذَرِه ويقظتِهِ، ولكنه خرجَ مَرَّةً من ظلالِ الأَرْطَى ليقف في الشمس،فلحظَتْه كلابُ الصيدِ،

---

(١) الأُغَيْبِرُ: هو الدّاخِلُ بن حرام نفسُه، حَشيف : ثوب خَلَق ، غَبِيٌّ، لا يُرَى ، أي خَفِيٌّ، النجاشة : استخراجُ الصَّيْدِ وإثارته وَحَوْشُه، زَلُوجٌ، يمر مراً سريعاً، أُتيح لها : قُدرَ لها، الناجشان : اللذان يَحُوشان وهما صائدان، تعُوج : تَعْطف، يهلك نفسَه، أي: باللوم، سَحير: سهم يصيبُ سَحْرَها، أي: رئتها، بَعيج، أي: يبعج بطنها ويشقه، وَرَّكَتْهُ: خلفته خلف وركها، يممها: قصد إليها، تهيج: في شدِّها تمرُّ كالريح الهائجة، الشروج، الشقوق والصدوع، لم تَخَوَّنْه، لم تَضَعَّفْه.

(٣) المرجع السابق ٣ / ١١٢٨ الأرزان: الأمكنة الصلبة واحدها رزْنٌ، الصَّاوي: الذابل، ماحق الصيف، أي : شدَّة الحرِّ، أُوْبِيَتْ: مُنِعت: طاوية: ضامرة، تَشِم: تُقَدِّر، تُصِبْ أفقاً: تجد ناحيةً.

(٣) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص ٢٢٢.

فأصيبَ بالجَزَعِ والفزعِ، وأطلقَ سيقانه للريحِ خوفاً ورعباً، ثم أخذت الكلابُ تطارده، فأدركَتْه، وأخذَ يطعنها بقرنيهِ الحادَّيْن، وغرزهما في لحمها فتلطَّخا بالدم، وظهرا كأنهما مصبوغان بصبغ أحمر، ثم يشبِّه قرني الثور وقد تلطخا بدماءِ الكلاب بسَفُّودَيْنِ وُضِع عليهما الشواءُ ثم نُزِعَ قبل نضجه وإدراكه، فظهرا ملوثين بدم اللحمِ النِّيْء، وهي صورة تمثل حالةَ دفاعه الشديدِ عن نفسه،ومحاولته الاحتفاظ بالحياة، ثم كانت نهاية الثور المحتومة بعد مقاومته ودفاعه عن نفسه، حيث وقع على الأرض، وتعفَّرَ بالتراب وتمدد على جنبه بعد أن لقيِ مصرَعه، وذلك حيث يقول:

والدَّهْرُ لا يَبْقَى على حَدَثانِه ... شَبَبٌ أَفَزَّتْهُ الكِلابُ مُرَوَّعُ
شَعَفَ الكِلابُ الضَّارياتُ فُؤَادَهُ ... فإذا رأى الصُّبْحَ المُصَدِّقَ يَفْزَعُ
ويَعُوذُ بالأَرْطَى إذا ما شَفَّهُ ... قَطْرٌ وراحَتْهُ بَليلٌ زَعْزَعُ
يَرْمِي بِعَيْنَيْهِ الغُيوبَ وطَرْفُهُ ... مُغْضٍ يُصَدِّقُ طَرْفُهُ ما يَسْمَعُ
فَغَدَا يُشرِّقُ مَتْنَهُ فَبَدَا لَهُ ... أُولَى سَوابِقِها قريباً تُوزَعُ
فاهْتَاجَ من فَزَعٍ وسَدَّ فُرُوجَهُ ... غُبْرٌ ضَوارٍ وافِيانِ وأَجْدَعُ
يَنْهَشْنَهُ ويَذُبُّهُنَّ ويَحْتَمِي ... عَبْلُ الشَّوَى بالطُّرَّتَيْنِ مُوَلَّعُ
فَنَحَالَها بِمُذَلَّقَيْنِ كأنَّما ... بهِما من النَّضْحِ المُجَدَّحِ أَيْدَعُ
فكأنَّ سَفُّودَيْنِ لَمَّا يُقْتَرا ... عَجِلا لهُ بِشِواءِ شَرْبٍ يُنْزَعُ
فصرَعْنَه تحتَ الغُبارِ وَجَنْبُهُ ... مُتَتَرِّبٌ ولكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ (١)

---

(١) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ٢ / ١٥٥ الشَّبَبُ: الثور الذي اكتملت سنه أو هو الذي تم شبابه، أفزَّته: استخفَّتْه وطيَّرته وأذهبتْ قلبه، مروع: مخوف ومفزع، شعف الكلاب فؤاده: أذهبنَ قلبَه أو ملأن قلبَه خوفاً، الشعفُ إحراق الحبِّ القلبَ، الضاريات: اللاهجة بالصيد المتعودة على مطاردته، الصبح المصدق، هو الفجر الصادق، أي: الحقيقي، أو المصدِّق هو المضي إضاءة ثابتة مستمرة، يعوذ بالأرْطَى: يلجأ إليه والأرْطَى: شجر، شَفَّه: آذاه وجَهَدَه، القطر: المطر، راحَتْه: أصابَتْه الريحُ، البليل: ريح الشمال الباردة، الزعزع: العنيفة، الغيوب، جمع غيب وهو الموضع الذي لا يُرَى ما وراؤه، طَرْفُه مُغْضٍ، أي: مطرق، الطرف: العين، غدا: أصبح، يشرق متنة: يعرض ظهرَه للشمس، بدا له: ظهر له، أولى سوابقها، أي:الكلاب المطاردة له، توزع: توقف وتحبس أو بمعنى تُغْرَى به وتُوَجَّه إليه، =

obeikandi.com

ثم نرى الشاعرَ قد أخذَ يصوِّر دفاعَ الثورِ عن نفسه وكيف أنَّه ذادَ الكلابَ عن حماه، وأعملَ قَرْنَيْه في النضال معها فقتلَ مجموعة منها وفَرَّت البقيةُ أمامه وأخذت تعوي وتتذلل من هول ما لَقِيَتْ من هذا الصراع، وكيف أنَّ الصائدَ بعد نزال كلابه ظهرَ للثور وفي كفِّه عدَّةُ نِصَالٍ رقيقةٍ متلألئةٍ، وريشُهن خفيفٌ سريعُ التَّحرك نحو الضريبة، فقال:

حتى إذا ارْتَدَّتْ وأَقْصَدَ عُصْبَةً ... منها وقَامَ شَرِيدُها يَتَضَوَّعُ

فَبَدَا لَهُ رَبُّ الكِلابِ بِكَفِّهِ ... بِيضٌ رِهَابٌ رِيشُهُنَّ مُقَزَّعُ (١)

ولعلّ من الواضح أن ما ذكره في هذين البيتين يتناقضُ ويتنافر مع الأبياتِ السابقة، حين ذكر الشاعرُ أنَّ الكلابَ تغلبت على مقاومة الثور فوقع على الأرض، وتعفر بالتراب،وتمدَّدَ على جنبه بعد أن صُرِعَ وكانت تلك نهايته.

والحقّ ما يراه أستاذُنا الدكتور عبد السلام سرحان من أنَّ البيتَ الأول لما كان يتناقض ويتنافر مع المعنى السابق فإن هذا يؤكد أنه رُتِّبَ في غيرِ موضعه من القصيدة، وربما كان زائداً عنها، أو منقولاً من غيرها إليها. ويرى أن من الجائز أن يكون هو وما بعده حكايةً مفصلةً لما حدثَ بين الكلاب والثور قُبَيْلَ مصرَعه،وإن كانت طريقةُ موته مختلفةً، إذ إن المعنى فيما سبق من الأبيات يعين أن الكلاب صَرَعَتْه، والبيتُ الثاني من البيتين الأخيرين يحدِّدُ أنه ماتَ بسهم صاحبِ الكلاب.

= اهتاج: تحرك مسرعاً،سد فروجَه: ملأ قوائمه عدواً، والفروج ما بين القوائم، الغُبْرُ: جمع أغبر وغبراء وهي الكلاب المطاردة ذات اللون الأغبر المشبه للتراب، وافيان: الصحيحان السليمان، الأجدع: المقطوع الأذن، يَذُبُّهُنَّ: يذودهن عن نفسه، يحتمي: يمتنع على الكلاب، عبل الشوى: ضخم القوائم غليظها، الطرتان: خطان في جنبيه يفصلان بين الجنب والبطن، مولع: فيه توليع، أي لونان مختلفان أبيض وأسود، المذلقان: القرنان الأملسان، المجدّح: المحرك، الأيدَع: صِبْغُ أحمر، لما يقترا: لم يظهر منهما ريح قتار اللحم، شَرْبٌ: جماعة الشاربين، صرعنه، أوقعنه على الأرض.

(١) ارتدت: رَجَعَتْ عن مطاردته، أقصدَ: قتلَ، شريدها: الهارب المتشرد منها، يتضوع: يعوي من الخوف والفزع، بيض: جمع أبيض وهو النصل، الرهاب: جمع رَهْب وهو الرقيق من النصال، المقَزَّع: الخفيف السريع.

ويرى أنه يمكن الجمع بين المعنيين بأن نفهمَ مما سبق أن الكلابَ أوقعته على جنبه ونفهم من البيتين الأخيرين أن صاحبَها ضربَه بالسهم آنذاك[1].

ونمضي مع أبي ذؤيب في وصف الصائد الذي عَزَّ عليه أنْ قَتَلَ الثورُ بعضَ كلابه،وفَرَّ أمامَه باقيها، فرماه بسهم صائبٍ دخلَ تحت جنبيه وخرج طرفُه من الناحية الأُخرى، فسقط الثورُ مُكبّاً على وجهه من ذلك السهم كما يسقط الجملُ الضخم ميتاً،ويَيْبَس جسمه وتتجمد دماؤه، وإن كان الثورُ أبرعَ وأسرعَ من البعير في حركاته، فيقول:

فَرَمَى لِيُنْقِذَ فَرَّهَا فَهَوَى لَهُ ... سَهْمٌ فَأَنْفَذَ طُرَّتَيْهِ المِنْزَعُ

فكَبَا كَمَا يَكْبُو فَنِيقٌ تارِزٌ ... بالخَبْتِ إلا أنَّهُ هو أَبْرَعُ[2]

والحق أنَّ أبا ذُؤَيْبٍ قد أجادَ في وصف هذه الصورة الدقيقة، ولا شكَّ أنَّها صورةٌ نابضة بالحياة والحركة، حتى ليمكن أن يقال: إنَّها أشبه بصور الخيالة "السينما" لا سيما تصويره لنهاية الثور ومصرَعه، تلك النهايةُ المفزعةُ التي تَمَّتْ على أيدي الصياد وكلابه، أو الكلاب وحدَهم.

ونلاحظ أن شُعراء هُذَيْل يمكنون سهامَ الصائد من قلب الثور، ويمكنون الكلابَ منه، فتصرعُه وتُرْديه قتيلاً، وقد لاحظ الجاحظُ أنَّ الشعراءَ يجعلون كلابَ الصيد هي التي تقتل بقرَ الوحش، إذا كان الشِّعْرُ في مجال الرثاء والموعظة، أما إذا كان الشِّعْرُ مديحاً فتكون الكلابُ هي المقتولة،والثيران هي المنتصرة السالمة، فقال:

"ومن عادة الشُّعراء إذا كان الشعر مَرْثيَةً أو موعظةً أن تكونَ الكلابُ هي التي تَقْتُلُ بقرَ الوحش، وإذا كان الشِّعْرُ مديحاً، وقال: كأنَّ ناقتي بقرةٌ وحشٍ من صفتها كذا، أن تكونَ الكلابُ هي المقتولة، ليس على أن ذلك حكاية من قصة بعينها،

---

(١) المرجع السابق ٢/١٦٢.

(٢) المرجع نفسه ٢/١٦٣، فَرَّها، أي:الكلاب والفَرُّ جمع فارٍّ وهو الهاربُ من سطوة الثور، الطرتان: مكانا اللونين الأبيض والأسود في جنبيه، أنفذ الطرتين: يعني دخل السهمُ جوفَ الرمية وخرج طرفه من الشِّقِّ الآخر وباقيه في الجوف،المِنْزَع: السهم، كبا: سقط لوجهه، الفنيق: فحل الإبل، التارز: الميت الذي يبسَ جسمُه وتجمد دمه ولحمه، الخَبْت: المكان المستوي.

ولكن الثيران ربما جَرَحَتْ الكلابَ وربما قَتَلَتْها، وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة، والكلابُ هي السالمةُ الظافرة، وصاحبها الغانُم"[1].

وقد تناولَ الشعراءُ الهُذَليون كلَّ ما وقعت عليه أنظارُهم من حيوان الصحراء، فقد وصفوا الأسودَ والنمورَ والذئاب والضباع والثعالب، كما وصفوا الحمامَ والنَّعام والصقورَ والعِقبان، ثم الحيات وغيرَ ذلك من الحيوانات والطيور الأُخرى التي تناولوها في أشعارِهم. ثم النحل الذي وصفه شعراء هُذَيْل وأجادوا فيه لا سيما أبو ذؤيب الذي وصفَ النحلَ ووصفَ مُشْتارَ العَسَلِ في عدَّة مواضعَ من شِعْرِه.

فقد كان شُعراء هُذَيْلٍ في البادية يحملون لها طاقات هائلة من الحبِّ والشغف والفتنة، وقد دفعَهم ذلك إلى رسم تلك اللوحات الرائعة لكلِّ ما كانوا يرونه حولَهم فيها هنا وهناك. فالصحراءُ لم تكن في أعناقهم طبيعةً صامتةً فحسب، ولكنها كانت أيضاً طبيعة حيَّةً متحركةً، تتمثل في تلك الحيوانات التي كانوا يرونها في الصحراء، سارحةً فوق رمالها أثناءَ رحلاتهم وتنقلاتهم بين أفناء البادية.

وهذا ساعدةُ بن جُؤَيَّةَ نراه في قصيدةٍ له يرثي بها ابنه سفيان يُصوِّر حالةَ أسدٍ في غابةٍ، ويصفُ جماعةً من القوم حين غَشِيَهم، وبعدَ أن صوَّرَ لنا الأسدَ وأشبالَه في مأْسَدَتِه حيث يستُره الغيلُ والشجر الكثيف، أخذ يصف الناسَ ومواشيَهم التي تركوها تسوم وراء الكلأ، وكيف أنَّ الأَسدَ نهضَ إليها وغَشِيَها في بيوتهم، ويصور الأسدَ وهو يقصمُ أعناق المخاض كأن زِجاج الرماح في أنيابه، أو كأنَّ أنيابَه رماحٌ قد وُتِّدَتْ، يقول:

فما خادرٌ من أُسْدِ حَلْيَةَ جَنَّهُ ... وأَشْبُلَهُ ضافٍ من الغيل أَحْصَدُ

إذا أَحْتَضَرَ الصِّرْمُ الجَميعُ فإنَّهُ ... إذا ما أراحُوا حَضْرَةَ الدارِ يَنْهَدُ

وقاموا قياماً بالفجاجِ وأَوْصَدُوا ... وجاءَ إليهمْ مُقْبِلاً يَتَوَرَّدُ

يُقَصِّمُ أَعْناقَ المَخاضِ كأنما ... بَمَفْرَجِ لَحْيَيْهِ الزِّجاجُ المُوتَّدُ[2]

---

(١) الحيوان ٢ / ٢٠.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١١٦٨ الخادر: هو الذي اتخذ الغيضة خِدْراً، أحصدُ: مكتنز، الغيل: ما كثف من الشجر، نهدَ إليهم: نهض إليهم، حضرة الدار: حيث تكون الدار، احتضر الصِّرْم، أي: أهلُ الدارِ، الصِّرْم: الجماعة من البيوت ليس بالكثير، يتورد: =

وهذا أبو كبير يصفُ ذئبةً عَجْفَاءَ مهزولةً ولكنها ضاريةٌ حديدةُ الناب، كأن نابها طرفُ معْوَل، ولكنه لما زجرَها مَضَتْ خائفة تتلفَّتُ كتلفتِ الغضبان، يقول:

أَخْرجتُ منها سِلْقَةً مَهْزولَةً ... عَجْفاءَ يَبْرُقُ نابُها كالمِعْوَلِ

فَزَجَرْتُها فَتلَفَّتَتْ إذ رُعْتُها ... كَتَلَفُّتِ الغضبانِ سُبَّ الأَقْبَلِ (١)

ويبدو أنَّ الذئابَ كانت تهدِّدُ أغنامَهم في البادية،وقد صوَّر الشُّعراء ذلك في أشعارهم، وقد سبقَ في أرجوزة لعمرو ذي الكلب أن وصفَ فيها ذئباً جائعاً،ورسم له صورةً دقيقةً، تحدَّث فيها عن الغنم ، وعن الذئب الذي جاء مسرعاً من عُلاوَة الريح،وكيف أنَّ الذئبَ قد اختارَ من الغنم لَجْبَةً، وهي التي أَتتْ عليها أربعة أشهر من ولادِها فخفَّ لبنها(٢).

وقد وردت الذئابُ كثيراً في شعْرِ أبي كبيرٍ، وفي حديثه لابنته زُهَيْرةَ تفهم أنه عَرَفَ الذئابَ كثيراً في أيام الشباب، فنراه في إحدى قصائده يذكرُ أنَّه بلغَ من جرأته أَنْ أتى مَوْردَ ماءٍ لا يردُهُ إلا الذئابُ النحيلُة التي تسرع في مشيتها،وهي تريد أن تشربَ منه كما تشرب الحيات، وكيف أنَّ الذئابَ لا تستطيع الوصولَ إليه إلا من طريقٍ ضَيِّقة جداً، حتى إن الذئبَ يمشي فيها على حرْفٍ كما يمشي الأخلفُ - وهو المُعْوجَ - إذا مشى، كما أنَّ الذئابَ تَعْوي حولَ ذلك الماء من شدَّة الجوع، وذلك حيث يقول:

ولقد وَرَدْتُ الماءَ لم يشربْ به ... بين الربيع إلى شهورِ الصَّيِّفِ

إلاَّ عَواسِلُ كالمراط مُعيدَةٍ ... بالليلِ مَوْرِدَ أَيِّمٍ مُتَغَضِّفِ

يَنْسِلْنَ في طُرُقٍ سَباسبَ حولَهُ ... كقِداحِ نَبْلٍ مُحَبِّرٍ لم تُرْصَفِ

تعوي الذئابُ من الجاعة حَوْلَهُ ... إهْلالَ رَكْبِ اليامنِ المُتطَوِّفِ

زَقَبٌ يَظَلُّ الذئبُ يَتْبَعُ ظِلَّهُ ... من ضيقِ مَوْرِده اسْتِنانَ الأَخْلَفِ (٣)

= يغشاهم في بيوتهم، الوصيد: الفناء، يُقصِّمُ: يكسر، مَفْرَجُ لحييه: مُنْفَتَحُ لحييه يريد فاه، الموتد: أي كأنها رماحٌ قد وُتِّدَتْ.

(١) المرجع السابق ٣/١٠٧٧ سلقة: ذئبة، عجفاء: مهزولة، إذ رُعْتُها: أفزعتها.

(٢) انظر الباب الثالث فصل " مصادر الثروات فيها".

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١٠٨٥ عَواسِل: تَعْسِل في مَشْيها، أي: تسرع فيه يعني الذئاب، المِراط: النَّبْلُ المُتمرِّطَةُ الريشِ، مُعيدَةٌ، أي: مُعيدَةُ الشربِ، الأيِّم: الحيَّة، =

فهذه صورةٌ متحركةٌ في وصف الذئب، وهو تتبعٌ دقيقٌ في رسم صورة الذئاب، وإنني مُعْجَبٌ بهذا الوصف لا سيما عندما شبَّه مشي الذئب في الطُّرُق الضيقة المؤدية لمورد الماء بمشي الأَخلف الذي يمشي بحذرٍ خشيةَ التَّعثر أو الوقوع،وكلُّ هذا يدلُّ على أن الشاعرَ قد عَرَفَ الكثيرَ من أمر الذئاب، وأنَّه عَلِمَ بها وبأحوالها وطبائعها، ولذا كانت صورتُه دقيقةً للغاية، وكانت صورةً متحركةً نابضةً بالحياة، قد بلغتْ قِمَّةَ الجودة في وصف الذئب والذئاب.

وهذا يذكِّرنا بصخر الغَيِّ حين يعرض للنمر في مشيته عندما تهبُّ عليه الرياحُ الباردةُ، حيث يَقْشَعِرُّ وينقبضُ ويتحرف ولا يستمرُّ في المضي، وحيث يقول:

ومـــــاءٍ وَرَدْتُ عـــلى زَوْرَةٍ كَمَشْيِ السَّبَنْتَى يَراحُ الشَّفِيفَا(١)

وتحتل الضباعُ جزءاً كبيراً من شِعْرِ الأَعلم، وهو يصفها وصفاً دقيقاً،ويصف جراءَها وانتفاخ بطونها، ويشبِّه جلودَها بثياب الرهبان السُّود، ثم يشبِّهُ آذانها بالمغارف لأنها قصيرةٌ وعريضةٌ، ثم يصوِّر فعلَهُنَّ بالفريسة، وكيف ينزِعْنَ جلدَها نَزْعاً شديداً،كما ينزع الحدادُ بطائن الجفون البالية، يقول:

وتَجُرُّ مُجْرِيَةٌ لها لَحْمِي إلى أَجْرٍ حَواشِبْ
سُودٍ سَحَالِيلٍ كأَنَّ جُلودَهُنَّ ثِيابُ رَاهِبْ
آذانُهُنَّ إذا احْتَضَرْنَ فَرِيسَةً مثلُ المَذَانِبْ
يَنْزِعْنَ جلدَ المرءِ نَزْعَ القَيْنِ أَخْلاقَ المَذاهِبْ(٢)

= مُتَغَضِّف: مُنْطوٍ وَمُتَثَنٍّ، لُحَبِّر: المُحَسِّن المُزَيِّن للشيء، يَنْسِلْنَ: الذئاب يَنْسُلْنَ: أي: يُسْرِعْنَ، وهو شبيه بالعسلان، السَّباسب: المستوي البعيدُ، اليامن: الذي يجيء من اليمين، الزَّقَبُ: الضَّيِّقُ، الاستنان: العَدْوُ.

(١) المرجع السابق ١ / ٣٠٠ زورة: ازورار، السَّبَنْتَى: النمر وهو اسم من أسمائه، براح: يجد الريح، الشفيف: البرد.

(٢) المرجع نفسه ١ / ٣١٤ مُجْرِية: ضَبُعٌ ذات جراء، أَجَر: جمع جرْوٍ، حَواشبُ: منتفخات البطون، السحاليل: جمع سِحلال وهي العظام البطون، المذانب: المغارف، المذاهب: أخِلَّة السيوف، القيْن: الحدّاد.

وفي قصيدة أخرى تظهرُ دقته في وصفِ الضَّبُعِ، فالضَّبُعُ غليظةٌ لها ثماني جواعر،وهي الخروق التي فوقَ دُبُرها،ثم ينظر إلى زِماعِها ، وهي الشعرات الجافة في مؤخر رجلها، فيذكر أن لها فوقه وشماً كأنَّهُ الخَلْخال، ونراه يبعد في وصفها فيذكر أنَّ هذه الضَّبُعَ ليست ككل الضِّباع،وإنما هي غليظةُ الرأسِ، ولها في أسفل بطنها جرابٌ كجرابِ قضيبِ البعيرِ،يريد أنها خنثى،وذكر ابن حبيب أن المقصودَ بذلك أن لها ما للذكر والأنثى،يقول:

عَشَنْزَرَةٌ جَواعِرُها ثَمانٍ … فُويْقَ زِماعِها خَدَمٌ حُجُولُ
تَراها الضُّبْعُ أَعْظَمَهُنَّ رأساً … جُراهِمَةٌ لَها حِرَةٌ وَثِيلُ (١)

على أنَّ ساعدةَ بن جُؤَيَّةَ قد رسم لنا صورةً متحركةً حقاً، حين وصف الضَّبُعَ وهي تمشي في هدوء الليل مشياً وئيداً، وكانت الضَّبُعُ مثقلةً ومُسِنَّةً، تقضي الليلَ بحثاً عن حمارٍ مات أو إنسان قُتِلَ، ثم يشبِّه مشيها وهي تسير في هدوء الليل بمشي الرجلِ الأقْبَلِ ـ أي الأحْولِ ـ الذي يسيرُ بالليلِ وكأنَّه يتلفَّتُ ويديرُ عينيه، ثم يصفها حين مرت بين طُرُقِ المقابرِ ثم فَتَحَتْ ما بين يديها وأخذت تنبش الترابَ، فنراه يقول:

إذا ما زارَ مُجْنَأَةً عليها … ثِقالُ الصَّخْرِ والخَشَبُ القَطِيلُ
وَغُودِرَ ثاوِياً وتَأَوَّبَتْهُ … مُذَرَّعَةٌ أُمَيْمَ لهَا فَلِيلُ
لها خُفَّانِ قد ثَلِبا ورَأسٌ … كرأسِ العَوْدِ شَهْبَرَةٌ نَؤُولُ
تَبيتُ الليلَ لا يَخْفَى عليها … حِمارٌ حيثُ جُرَّ ولا قَتِيلُ
كَمَشْيِ الأَقْبَلِ السَّارِي عليها … عِفاءٌ كالعَباءَةِ عَفْشَلِيلُ
فَذاحَتْ بالوَتائِرِ ثم بَدَّتْ … يَدَيْهَا عِنْدَ جانِبِهِ تَهِيلُ (٢)

---

(١) المرجع نفسه ١ /٣٢٢ عَشَنْزَرَة: غليظة مُسنَّة يريدُ الضَّبُعَ: الخدَم: واحدُها خَدَمَة وهي مثلُ الخَلْخَال يريد لوناً يخالفُ سائرَ لون رجْلها، حجول: جمع حجْل وهو الخَلْخَال، جواعرها ثماني: يريد أن خَلْقَها منتشرٌ لأنهما جاعرتان، جُراهِمة: مُغْتَلِمة، لها حِرَةٌ وثيلٌ: يريد أنها خنثى.

(٢) المرجع نفسه ٣ /١١٤٦ وسبق شرح الألفاظ في الباب الثالث فصل" بين أفناء البادية" .

obeikandi.com

ولا شكَّ أن هذه صورةٌ حيَّةٌ ومتحركةٌ تدلُّ على ذكاءِ الشاعرِ وعبقريَّتِه وقدرتِه على الوصفِ الدقيق الذي ينبضُ بالحياة.

وهناك صُوَرٌ عديدةٌ للوعولِ تتردَّدُ في أشْعارِهم وكثيراً ما كانوا يَحْرِصون على وصفِها مع تسجيلِ مناظرِ الصيدِ والصائد، وهذا صخرُ الغيّ يصف وعلاً مُسنّاً وكيفيَّة اصطياده، فنراه يصفُ الوعلَ في تَيْهُورةٍ تحت السحاب، وفي مَوْضِعٍ مُخْصِبٍ قد أصابَه المطرُ، واستطاع فيه أن يتمتَّعَ بطولِ الحياة، فشبَّ مع الأيام وطالَ عمرُه، حتى أشرفَ قرنُهُ وتَثَنَّى، وهو يصفُ الوعلَ كانساً إذا أبصرَ الليل وأنه يبيت كرجلٍ كبيرٍ عليه غطاؤه قد حاربَ أهلَه، أي: عاداهم وتنحَّى عنهم، وذلك حيث يقول:

أَعَيْنَيَّ لا يَبْقَى على الدهرِ فَادرٌ ... بتَيْهُورةٍ تَحْتَ الطِّخَافِ العَصَائبِ

تَمَلَّى بِها طُولَ الحَياةِ فَقَرْنُهُ ... له حِيَدٌ أَشْرافُها كالرَّواجبِ

يَبِيتُ إذا ما آنسَ اللَّيلَ كانساً ... مَبِيتَ الكبيرِ ذي الكِساءِ المُحارِبِ

مَبِيتَ الكبيرِ يَشْتَكِي غيرَ مُعْتَبٍ ... شَفِيفَ عُقوقٍ من بَنِيهِ الأَقَارِبِ [1]

ونمضي معه حتى نراه يحدِّثنا عن الوعلِ وقد قُدِرَ له صائد يكسب لأبيه الشيخِ الذي احْدَوْدَبَ ظهرهُ وتحنت عظامُه، ويحدِّثنا عن أمرِ الصائد الذي يحمي شيخَه من كلِّ أَذَى، ثم يرسم صورةً دقيقةً واضحةً لانتهاءِ حياةِ الوعلِ على أيدي ذلك الصَّيّادِ الذي رماه بسهمٍ عريضٍ واسعِ النَّصْلِ فقتلَه، وذلك حيث يقول:

أُتِيحَ لهُ يوماً وقد طالَ عُمْرُهُ ... جَرِيمةُ شَيْخٍ قَدْ تَحَنَّبَ ساغِبِ

يُحامِي عليه في الشتاءِ إذا شَتَا ... وفي الصيفِ يَبْغِيهِ الجَنَا كالمُناحِبِ

فلمَّا رآهُ قالَ للهِ مَنْ رَأَى ... من العُصْمِ شاةً قبلَهُ في العَواقِبِ

لو أنَّ كَرِيمِي صِيدَ هذا أَعاشَهُ ... إلى أنْ يَغِيثَ الناسَ بعضُ الكَواكِبِ

---

(١) المرجع نفسه ١ / ٢٤٦ الفادر: الوعلُ المُسنُّ: التَّيْهُورَة: ما اطمأنَّ من الرمل، الطِّحاف: ما رَقَّ من الغيم، حِيَدٌ: جوانب، الرواجب: ما نتأ من أصول الأصابع إذا ضممت كفَّكَ، مَبيت الكبير، أي: منقبضاً كأنه شيخ كبير في كساء، غير مُعْتِب، أي: لا يُطْلَب رضاه فقد اسْتَخَفّوا به، العقوق: القطيعة، الشفيف: الوجع.

أَحـــاطَ به حـــتى رَمـــاهُ وَقْـــد دَنـا   بأَسْـمَـرَ مَـفْـتُـوقٍ من النَّبْلِ صَـائِبِ (١)

وكثيراً ما كان شعراء هُذَيْل يحدِّثوننا عن الحيوان في صَدَد الحديث عن عَدْوِهم، وهذا الأعلمُ يحدِّثنا عن الظَّليم في قصيدة له يذكر فيها فَرَّته من بني عَبْد بن عَدَيّ، ويذكر أنه كان من شِدَّة عَدْوِهِ أشبه بالظَّليم، ثم يمضي يصفُ الظَّليمَ، بأنه سريعٌ يعترض فراخه في وقت العشية، وهو غليظُ الساقين طويلهما، وقد تساقط ريشُه، ثم هو مَذعورٌ قد اختبأ بين أشجارِ طويلةٍ، فإذا عَدا يخفقُ جناحه كما تخفقُ الريحُ الجنوبية بثياب جديدةٍ غير بالية، وذلك حيث يقول:

كـــأَنَّ مُـــلاءَتَـيَّ عَلـى هِزَفٍّ   يَعُنُّ معَ العَـــشِـــيَّـــةِ للرِّئَالِ

علَى حَتِّ البُـرايَةِ زَمْـخَـرِيِّ الـ   سَّـواعِـدِ ظَلَّ في شَـرْيٍ طِوَالِ

هِزَفٍّ أَصْنَفِ السَّـاقَـيْنِ هِقْلٍ   يُبـادِرُ بَـيْـضَـهُ بَـرْدَ الشَّـمَـالِ

أَحَـسنَّ ضَـبَـابَـةً وَعَـمَـاءَ لَيْلٍ   يُبَـــادِرُ غَـــوْلَ وادٍ أَوْ رِمَـــالِ

كـأَنَّ جناحَـهُ خَـفَـقَـانُ رِيحٍ   يمانِيَـــةٍ بِرَيْطٍ غَـــيـــرِ بالِي (٢)

ولم يكتفِ شُعراءُ هُذَيْلٍ بالوصف فحسب، بل إننا نرى لهم أحياناً حواراً مع بعض الطيرِ،ولعلَّ من الطريف ما فعله صَخْرُ الغيّ حين جعل حواراً بينه وبين حمامة تشاركه في الظروف التي يمرُّ بها، ففي إحدى قصائده التي يرثي فيها ابنه تليداً، يذكر أنه حين خرجَ في الليل ملتاعاً حَزيناً على فَقْد ابنه، سمع صوتَ حمامةٍ تنوحُ في هدوء الليلِ بموضع سَبْلَل، وأنها لا تنامُ مع النيام، والطريفُ أنَّها تنوحُ على ولدها، ثم يأخذ الشاعر في وصفِ حِوارٍ دارَ بينه وبين الحمامةِ حيث سألها عن ابنه تليد وسألته عن فرخها، يقول:

---

(١) جريمةُ شيخ: كاسبُ شيخ، أي صائد يكسبُ لأبيه، تَحَنَّبَ: احْدَوْدَبَ، ساغب: جائع، المناحب: المجاهد، أو هُو: الذي يشادّ في النَّذْر: العصم: الأروى، كريمهُ: شَيْخُهُ، مفتوق من النبل: يعني سهماً واسع النَّصْل، صائب: قاصد.

(٢) المرجع السابق ١ / ٣١٩ الهِزَفّ: الظَّليمُ السريع، يَعنُّ: يَعْرِضُ، الرئال: فراخُ النَّعام، الحَتّ: السريع، البُراية: إذا براه السير، زَمْخَرِيٌّ: غليظ طويل، السواعد: العروق، الشَّرْيُ: شجر تتخذ منه القسيُّ، أصنف: متقشر، هقْل: من أسماء النعام، العماء: أشد الغيم ارتفاعاً غَولٌ: بُعْدٌ، اليمانية: الجنوب، الرَّيط: ملاحفُ غيرُ مُلَفَّقَة.

obeikandi.com

وما إنْ صَوْتُ نائحةٍ بلَيْلٍ بِسَبْلَلَ لا تنامُ مع الهُجُودِ
تَجَهْنَا غادِيَيْنِ فساءَلَتْني بواحِدِها وأَسْأَلُ عن تليدِي
فقلتُ لها فأمَّا ساقُ حُرٍّ فبانَ مع الأَوائلِ من ثَمودِ
وقالتْ لن تَرَى أَبداً تَليداً بعينِكَ آخرَ العُمْرِ الجديد
كِلانا رَدَّ صاحِبَهُ بيَأْسٍ وتأْنِيبٍ ووَجْدانٍ بَعيدِ (١)

أما أبو خِراش فإنه يرسمُ في بعَض شِعْرِه صورةً صادقةً لوجهٍ من أوجه الصراع الذي يدور في تلك الصحراء المقفرة بين كائناتها الحيَّة، ويظهرُ في هذا الشِّعْرِ دقةُ الوصفِ، حيث يصور لنا صراعاً بين صقرٍ وأرنب، فالصقرُ فوقَ مرتفع مشرف على الآفاق، وقد رأى على بُعْدٍ منه أرنباً بين شقوق الأرض، وكيف أن الصقرَ ضَمَّ جناحَيْهِ وَهوَى إليها، وانتظم قلبَها، ولا عجبَ في ذلك فهو صيود لحبات القلوب،وذلك حيثُ يقولُ:

ولا أَمْعَرُ السَّاقَيْنِ ظَلَّ كأَنَّهُ على مُحْزَئلَّاتِ الإِكامِ نَصِيلُ
رأى أَرْنَباً من دونِها غَوْلُ أَشْرُحٍ بَعيدٌ عليهنَّ السَّرابُ يَزولُ
فَضَمَّ جناحَيْهِ ومن دونِ ما يَرَى بلادٌ وحوشٌ أَمْرُعٌ ومُحولُ
تُوائِلُ منه بالضَّراءِ كأَنَّها سَفاةٌ لها فوقَ الترابِ زَلِيلْ
يُقَرِّبُهُ النَّهْضُ النَّجيحُ لما يَرَى ومنه بُدُوٌّ مرةً ومُثُولُ
فأهْوَى لها في الجَوِّ فاخْتَلَّ قَلْبَها صَيُودٌ لَحَبّاتِ القلوبِ قَتُولُ (٢)

---

(١) ديوان الهذليين ٢/٦٧ نائحة: يعني حمامة، سَبْلَل: بلدٌ، الهجود: النيام، تَجَهْنا: تواجهنا وتقابلنا، ساقُ حُرٍّ: ظنَّ أنَّ ساقَ حُرٍّ ولدُها فجعلَه اسماً له، وذكر أبو عمرو أن ساقَ حُرٍّ: واحدها.

(٢) المرجع السابق ٢/١٢٣ أمعرُ الساقين: لا ريشَ عليهما ويريدُ به صقراً، المُحْزَئِلُّ: المشرف، النصيل: حَجَرٌ يجعل في البئر، الأَشْرُج: شقوق تكون في الأرض بعيدةٌ طِوال، غَوْل: ذات بُعْد، يزول، أي: يتحرَّك، بلادٌ وحوشٌ، أي: بلاد واسعة تسكنها الوحوش، توائل، أي: تتواري لتَنْجُوَ منه، الضَّرَاء: ما واراك من الشجر، السَّفاة: الشوكةُ، وقوله: لها فوق التراب زَلِيل، أيَ: من خفتها تَزِلّ فوق الأرض، اخْتَلَّ قلبَها، أي: انتظَمَه.

وافْتَنَّ بعضُ شُعرائهم في وصف العُقاب، وترى أبا كبير يعجبُ بمنقارها الأسود الحادِّ،فيذكر أنه انتهى إلى عشها، وأن طرفَ مِنْسَرِها حَدِيدٌ دقيقٌ كأنه المِخْصَفُ الذي تُخْصَفُ به أخفاف الإبل، وذلك حيث يقول:

حيث انْتَهَيْتُ إلى فِراشِ عَزيزَةٍ سَوْداءَ رَوْثَةُ أَنْفِها كالمِخْصَفِ (١)

واشتهرَتْ قبيلةُ هُذَيْلٍ بتربية النَّحْلِ، واشتيارِ العسلِ،وفي أشْعارهم الكثيرُ من المقطعات التي يصف فيها الشُّعراء النَّحْلَ وسعيَه في الأرض بحثاً عن الأزهارِ والأشجار التي يمتصُّ رحيقَها، واستمعْ إلى أبي ذُؤَيْبٍ لترى دقتَه في وصف النحلِ وكيف يرسمُ بريشته صورةً دقيقةً له، فيذكرُ في قصيدةٍ له أن النَّحْلَ تأوي إلى شُعُوف الجبال، أي: رؤوسها، فتأكلُ من ثمرِها ثم تنزلُ إلى وسطها أو أسفلها حيث البرودة فتعسلُ فيه، وذلك لصلاحية المواضعِ الباردةِ للتعسيل، وكيف أن النحلَ طارتْ في ذلك الموضع وشَقَّ عليها الطَيرانُ لطولِ ذلكَ الجبل، ومع ذلك كانت سريعةً ونَشطَةً، حتى إنه يشبِّهُها في سرعتها بقتر الغلاء-أي نصال السهام- التي تتابعت إلى مقاصدها، هذا بينما تظل وصغار اليعاسب على الثَّمْراء في انتظار أمهاتها، فنراه يقول:

جَوارِسُها تَأري الشُّعُوفَ دَوائباً وتَنْصَبُّ أَلْهاباً مَصِيفاً كِرابُهَا

إذَا نَهَضَتْ فيهِ تَصَعَّدَ نَفْرَهَا كَقِتْرِ الغلاءِ مُسْتَدِراً صِيابُهَا

يَظَلُّ على الثَّمْراءِ منها جَوَارِسٌ مراضِيعُ صُهْبُ الرِّيشِ زُغْبٌ رِقَابُهَا (٢)

ونلاحظُ أنَّ الشَّاعرَ سمَّى صغارَ النَّحْلِ، "مراضيع" مع أنَّ النَّحْلَ لا تُرْضِعُ صغارَها، ولكنه سماها بذلك لأن الأمهات من غير الطير تُسمّى مراضيع، إذا أرضَعْن، ذكر هذا ابن حبيب(٣). والمرادُ أنَّ معها نحلاً صغاراً.

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١٠٨٩ المِخْصَف: هو الذي تُخْصَفُ به أخفافُ الإبل، الروثة، طرف الأنف ويريد طرف منقارها، فِراشُها: عُشُّها.

(٢) المرجع السابق ١/٤٩ جوارسها: يريد أواكل النحل، تأري الشُّعوفَ، أي: تُعَسِّلُ في الشُّعوف، الشُّعوف: رؤوس الجبال، الألهابُ: جمعُ لِهْبٍ وهو الشِّقُّ في الجبلِ، مصيفاً: أصابها مطر الصيف، الكربة: فَصْلٌ ما بين الجبلين، تَصَعَّدَ نَفرَها: شَقَّ عليها، القِتْر: نصال السهام، مُسْتَدِرٌّ: ذاهب، صيابُها: قواصدُها، الغلاء: السِّهام يتغالَوْن بها، الثَّمْراء: هضبة بشقِّ الطائف مما يلي السَّراة، ويقال جبل،وقال بعضهم: شجر مُثْمِر، مراضيع، حديثات عهد بالتفريخ، صهب الريش: يعني أجنحتها.

(٣) المرجع نفسه ١/٥١.

وعلى هذا النَّحْوِ كان وصفُهم لأنواع الحيوان وصنوف الطير، فقد كانوا يرصدون مظاهرَ البداية، ومناظرَها المتعددةَ ليسجِّلوها في أشْعارهم، لوحات رائعة، والحقّ أنهم برعوا أشدَّ البراعة في تصويرهم هذا حتَّى لتُعَدّ رسومُهم الشعريةُ لوحاتٍ فنيةً رائعةً، توفرت لها كلّ مقومات الفنِّ والصناعة، وتظهرُ فيها كذلك تجاربُهم المتعددة، وخبراتُهم الواسعةُ ودُرْبَاتُهم المتنوعة، في عنايةٍ ملحوظةٍ بالتفاصيل والجزئيات، ومهارةٍ فائقةٍ في استخدام الأصباغ والألوان، وبراعةٍ ممتازة في توزيع الظلال والأضواء، ومقدرةٍ جديرة بالإعجاب على إشاعة الحركة، وبث الحياة في كلِّ لوحةٍ منها، بحيث يقدرها لهم الأدباء والنُّقَاد في كلِّ العصور.

يقول الدكتور أحمد كمال زكي: "والشِّعرُ الهُذَليُّ تحدَّثَ عن الحيوان كثيراً، وعنى به عنايةً تامةً فوصفَه ووصفَ حركاته ومثل هيئاته، وقصَّ علينا من عاداته الشيء الكثيرَ. كل ذلك في استغراق وأناةٍ حتى أصبح في ديوانهم باباً مستقلاً بذاته، وقد يقال: إن شعراء العرب جميعاً ـ لا سيما في العصر الجاهلي ـ فعلوا ذلك، حيث نجدُ في معلقات القدماء وفي غيرها إشارات قويةً إليه، بل وقفات طويلة يهتم فيها الشاعرُ بوصفِ كلِّ جزء من أجزاء الحيوان كما نرى عند طَرَفةَ حين وصفَ ناقتَه.

ولكن عنايةَ الهذليين بالحيوان كانت أقوى، واهتمامَهم بالتحدُّث عنه ووصفه كانا أوضح وأشدّ. وإذا كان قد غلبَ على شُعراءِ المعلقات أن يصفوا الناقَةَ أو الفرسَ، فإن الهُذَليين لم يعنوا بهما ـ خاصَّة الفرس ـ وحتى هؤلاء الذين وصفوا الحيوان الأخير أخطؤوا في وصفهم لأنه لم يكن في حياتهم دائماً.

ووجَّه الهُذَليون أنظارَهم إلى البادية ووصفوا ما فيها من وَحْشٍ، فتكلموا عن الذئاب والضباعِ والحُمُرِ والبقرِ، وعرضوا للظليم والنسور والعقبان، وتكلَّموا عن أشكالها وطبائعها، ووقفوا على سلوكها في الفجر وخلال النهار وإذا الليل أقبلَ. كلُّ ذلك في تأنٍّ وفي ميلٍ كبيرٍ إلى نَقْلِ كلِّ ما يتصلُ به نقلاً دقيقاً يدلُّ على قوَّة ملاحظتهم. شعْرُ الهذليين في الحيوان يتكلَّم عن ذلك كلِّه، ونراه في كلِّ موْضعٍ بديوانهم حتى ليخيَّلَ إلينا أن الشاعرَ يقحم هذا الوصفَ في قصائده، إقحاماً، وكأنما كان يلتمسُ كلَّ وسيلةٍ ليتحدَث عنه"(١).

---

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص ٢١٤.

وعلى الرغمِ مِن أنَّ عنايةَ الهُذَليين بوصفِ الحيوان كانت شديدةً فائقةً، فإنهم كانوا يربطون ذكرَ الحيوان بما كان يحيطُ به من طبيعةٍ ساكنة،فتأملوا في الصحراء ورمالِها وديارِها وأطلالِها،وما يمرُّ عليها مِن رياحٍ أو سحابٍ أو أمطارٍ، وكانوا يتأملون السماءَ والنجومَ،ويصفون البرقَ والرعدَ والغمامَ، ويذكرون شدَّةَ الحَرِّ وقسوةَ البَرْد.

تأمل الشُّعراء الهُذَليون في الليل وظلامه الحالك، وهذا أُمية بن أبي عائذ يشبِّه الليلَ وظلامَه بإبلٍ عليها أَخْبِيَةٌ سودٌ، فكأنَّ بقايا الليلِ بُخْتٌ جُلِّلْنَ مظالَّ سوداً من المظالِّ التي يتخذها الأعراب، وذلك حيث يقول:

وليلاً كأنَّ أَفانِينَهُ ... صَراصِرُ جُلِّلْنَ دُهْمَ المَظَالِي (١)

ثم لنقرأ ما يقوله المُتَنَخِّل وهو يصفُ البرقَ والرعدَ والمطرَ والسحابَ،ويصف سيلاً جارفاً قلع الأشجارَ،ويصوِّر ذلكَ بقوله:

هل هَاجَكَ الليلُ كَلِيلٌ على ... أَسْمَاءَ مِنْ ذِي صُبُرٍ مُخْيِلِ
أَنْشَأَ في العَيْقَةِ يَرْمِي لَه ... جُوفُ رَبَابٍ وَرِهٍ مُثْقَلِ
فالْتطَّ بالبُرْقَةِ شُؤْبُوبُهُ ... والرَّعْدُ حتى بُرْقَةِ الأَجْوَلِ
أَسْدَفُ مُنْشَقٌّ عُرَاهُ فَذُو الأَ ... دْمَاثِ ما كانَ كذي المَوْئِلِ
حَارَ وَعَقَّتْ مُزْنَهُ الريحُ وانْـ ... ـقَارَ به العَرْضُ ولَمْ يُشْمَلِ
مُسْتَبْدِراً يَزْعَبُ قُدَّامَهُ ... يَرْمِي بِعُمِّ السَّمُرِ الأَطْوَلِ (٢)

ولم يتركِ الهُذَليون مظهراً من مظاهرِ الحياة وقعَتْ عليه أنظارُهم إلا سجَّلوه في أشعارِهم، حتى الأشياء الصغيرة التي قد تبدو قليلةَ الأهميةِ لا تَلْفِتُ النَّظرَ، ولا

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٥١٢ أفانينه: نواحيه، صراصر: إبل من إبل الشام يقال لها "الصَّرْصَرانيَّة".

(٢) المرجع السابق ٣ / ١٢٥٤ كَليل: برقٌ ضعيفٌ، الصُّبُر: جَمْعُ صَبِير وهو الغيم الأبيض، مُخْيِلٌ: سحاب ذو مَخيلة للمطر، العَيْقة: الساحة، الجُوفُ: العظام الكثيرة، رَبابٌ: سحابٌ، الوَرِه: المتساقط، التَطَّ: سُتِرَ، شؤبوبه: مطره، بُرْقَةَ الأجْوَل: موضع، الأَسْدَف: الأسْود: عُراه: نواحيه، الموئل: الملجأ من هذا المطر، حارَ: تحيرَّ وتردد ، عَقَّتْ: شقت الريح سحابَه، انْقارَ: انقطعت منه قطعة من عَرْضه وهي لغة لهم، لم يُشْمَل: لم تُصبْه شَمالٌ فيذهب كلُّه، يَزْعَبُ: يمضِي يتدافع، العُمُّ: الطوال، السُّمُر: شجر طِوال وله شوك صِغار.

obeikandl.com

تستحقّ التَّسجيلَ، على نَحْوِ ما نرى في هذه الأبيات وهي للمُتَنَخِّل، يتحدَّث فيها عن الماء الذي وَرَدَهُ، وما كان حولَه من البعوض فيقول:

كـأنَّ وَغَى الخَـمُـوشِ بِجَـانِبَـيْـهِ ... وَغَى رَكْبٍ أُمَـيْـمَ ذَوِي هِـيَـاطِ

كـأنَّ مَـزاحِفَ الحَـيَّـاتِ فـيـه ... قُـبَـيْـلَ الصُّـبْحِ آثارُ السِّـيَـاطِ

شـرِبْتُ بِجَـمِّـهِ وصَـدَرْتُ عَنْهُ ... وأبْيَضُ صَـارِمٌ ذَكَـرٌ إِبَاطِي [1]

فلم يرق للشاعرِ أن يشبِّهَ موردَ الماء وما حولَه من البعوض إلا بالركبِ أو القافلة وما يصحبُها من الصياحِ والجلبةِ والمجادلة،والحقُّ أنها صورةٌ جميلة ورائعة،وهو تشبيه طريفٌ من صميم البادية.وعلينا أن نلاحظَ ما في البيت الثاني من جمالٍ وروعةٍ، حيث شبَّه الشاعرُ آثارَ زحفِ الحيات في ذلك المكان بالآثار الباقيةِ نتيجةَ الضَّرْبِ بالسياطِ،وقد ذكَر السُّكَّرِيُّ في هذا البيت أنه بيت القصيدة، وأنه أحسنَ ما وصفَ[2].

وكذلك نراهم قد وصفوا البحرَ والتيارَ، والطريفُ أنَّ تشبيهاتهم مستمدةٌ من صورِ البادية التي أحبّوها وعشقوها، فهذا ابنُ بَرَّاق الهُذَليُّ يصفُ البحرَ والتيارَ، ونراه يستخلص عناصرَ التشبيه من البادية، حيث شبَّه قواذفَ التيارات المتلاحقة بالنعاجِ اللاتي يرتعن إلى جانب نعاج أخرى وهكذا... فيقول:

ألا هَلْ لِلْهُـمُـومِ مِن انْفِـراجِ ... وهَلْ أَنا مِنْ رُكُوبِ البحـرِ ناجِي

أَكُلَّ عَـشِـيَّـةٍ زَوْرَاءُ تَهْـوِي ... بِنا في مُظْلِمِ الغَـمَـراتِ داجِي

يشُقُّ الماءَ كَلْكَلُهَـا مُلِحّـاً ... على ثَبَجٍ مِن الملحِ الأُجَـاجِ

كـأَنَّ قَـواذِفَ التَّـيـارِ منهُ ... نِعـاجٌ يَرْتَعِينَ إلى نِعَـاجِ [3]

---

(١) المرجع نفسه ٣ / ١٢٧٢ الخَمُوش: البعوض، الهياط: الصياح والمجادلة، الوغى: هو الصوت في الحرب، جَمُّه: ما اجتمع في البئر من الماء، إباطي: تأبَّطَ السيَف. والشطر الثاني من البيت الأول مروي في التهذيب هكذا:
"مآتم يَلتَدِمْنَ على قَتيلِ"
وانظر روايات البيت المختلفة في تعليق الدكتور عبد السلام سرحان على رواية التهذيب في هامش الصفحتين ٩٥، ٩٦ من الجزء السابع، طبعة لجنة التراث سنة ١٩٦٧.

(٢) المرجع نفسه ٣ / ١٢٧٣.

(٣) المرجع نفسه ٢ / ٨٧٨ زوراء: سفينة لاعْوِجَاجِها.

هذا إلى وصفهم المرأة وما فيها من مفاتن، وكذلك مجالس اللهو وشرب الخمر ووصف النساء، على نحو ما مر في طائية المُتَنَخِّل في الغزل.

وهكذا يتضح أن الوصفَ بصفةٍ عامَّةٍ كان من الفنون البارزة التي بَرَعَ فيها شُعراءُ هُذَيْلٍ، فقد نظروا في الطبيعة الصحراوية،ودقَّقوا النَّظَر، فوصفوا كلَّ ما وقعتْ عليه أعينُهم، ووصفوا فجاجَها وما فيها من صُنوف الحيوان، وأنواعِ الطَّيْر، كما وصفوا البرقَ والرعَد، والأمطارَ والسحابَ،والنورَ والظلامَ، فرسموا بذلك لوحاتٍ فنيةً تنطقُ بالفنِّ الأصيل، واتضحَ أنَّهم قد عنوا بكل صغيرةٍ وكبيرةٍ من مشاهد الصحراء التي أَحبّوها وفُتِنوا بها، وأنهم لم يتركوا شيئاً من ذلك إلا سَجَّلوه في أشعارهم.

والحقّ أنَّ الناظرَ في أشْعارِ هُذَيْلٍ، يُحِسّ إحساساً عميقاً بأنهم كادوا لا يتركون شيئاً من مظاهر الحياة في البادية، وما فيها من حيوان أو وحش أو طير دون أن يقفوا عنده ليصفوه في دقةٍ تَلْفِتُ النَظَرَ، وتنتزع الإعجاب.

٤- الحماسةُ:

الحماسةُ لغةً القوَّةُ والشِّدَّةُ والشَّجاعةُ[١]. والحماسةُ فنُّ الحربِ والقتال والشجاعة، والتغني بصفات البطولة والرُّجولة، وركوبِ المخاطر،وخوضِ غمراتِ القتالِ ووصفِ ما في الحربِ من كَرٍّ وفرٍّ وعُدَدٍ وسلاحٍ ودماءٍ وجرحَى وقتلَى، ثم دعوة للحربِ وأخذ بالثأرِ وما إلى ذلك.

وقد أكثرَ شُعراء العربِ من تناول هذه المعاني والإلحاح عليها، لأنَّ الشَّجاعةَ والإقدامَ، وركوبَ الأهوالِ وإيثارَ الموت، وخوضَ غمراتِ الحروب، والأخذَ بالثأر من الخلائقِ العربية المركوزة في أعماقِ نفوسهم إذ كانت حياةُ البداوةِ والتنافسُ بين القبائل والحروبُ التي لا تنقطعُ تَستدعي ذلك أشَدَّ الاستدعاء.

يقول بروكلمان: "ولكنَّ الحربَ كانت في بعضِ الأحيان تكادُ تستأثرُ بكلِّ تفكيرِ البدوِ،ولذلك لعبت دوراً[٢] من أهمِّ الأدوارِ في أشعارِهم. ولم يكن عرضاً أن

---

(١) والأحمس: الشجاع والشديد الصلب في الدِّين والقتال، وسميت قريشٌ وكِنانة حُمْساً لتشدُّدهم في دينهم في الجاهلية. الصحاح واللسان: (حَمِسَ).

(٢) كذا شاع هذا التعبير بين المؤلفين والأدباء والمترجمين وفي لغة الصحافة وهو خطأ والصواب: "أدت دوراً" وقد نبه أستاذنا الدكتور عبد السلام سرحان إلى ذلك مراراً في مناقشة الرسائل.

سُمِّيتْ أقدمُ مختارات الشعر العربيِّ بالحماسة،نظراً إلى أول أبوابها وأغزرها مادةً، وهو بابُ التعبير عن ضروب الشجاعة المختلفة. وكان العربُ يفرغون حميَّةَ الشجاعة وثوراتها في أبياتٍ من الشِّعْرِ قَبْلَ القتالِ وفي أثناء مراحله المحتدمة...(١)."

ومن ثم رأينا هذا الفنَّ من الشِّعْرِ يحتلُّ المكانَ الأوَّلَ في مختارات أبي تمام المُتَوفَّى سنة ٢٣١هـ حتى سُمِّيَتْ باسم الحماسة، وكذلك فعل البحتريُّ المتوفَّى سنة ٢٨٤هـ في مختاراته، وابنُ الشجري المتوفَّى سنة ٤٥٢هـ وغيرهم.

وشِعْرُ الحماسة ـ على كثرته ـ من أصدقِ الأشْعارِ وأقواها وأشدّها أثراً في النفوسِ، ذلك لأن الشُّعراءَ كانوا أنفسهم فرساناً يخوضون غمرات القتال، فيعبرون عن واقعٍ مشْهُودٍ، ويصفون إحساساتهم في ميادين الحروب، و "الحماسة أهمُّ موضوعٍ استنفذ قصائدَهم، فقد سعرتهم الحروب، وأمدّها شعراؤهم بوقودٍ جَزْلٍ من التَّغَني ببطولتهم وبكونهم لا يرهبون الموتَ،فهم يترامون عليه تحتَ ظلالِ السيوفِ والرماح مدافعين عن شرفِ قبائلهم وحماها"(٢).

والعربُ بطبيعتهم أمةٌ مغالبة مجالدة،ومساورة معاندة، لا ترضى بالضيم ولا تقيم على الذلِّ والهوان، ولقد مَرَدُوا على المخاطرة، واعتادوا القتلَ والقتالَ، وألفوا الصولةَ والصيالَ، فانْتُزِعت من نفوسهم غريزةُ الخوف، وغلبت عليهم الحريةُ الشخصية. وصارت الحربُ تهيج عندهم لأَوْهَى سَبَبٍ، وتَشتَعِل لأقلِّ حدث، ولا تخبو إلا لتستعر، وقد تظل ملتهبةً بين القبائلِ أعواماً طوالاً، لا تهدأ نارُها، ولا يخبوُ أُوارُها.

وللعرب كثيرٌ من الوقائع العظيمة التي حركت قبائلَهم،وأثارتْ عصبياتهم،والتي تحدَّث عنها الشعراءُ في أشعارهم، وكانت مادةً رائعةً، تكشفُ عن أخبارِهم وتاريخهم. وقد سُمِّيَتْ هذه الوقائع بأيام العرب، وهي ينبوعٌ ثَجّاجٌ من ينابيع الأدب، وميدانٌ فسيحٌ من ميادين البيان، لما اشتملت عليه من روائع القصص، وبدائع القول، وبليغِ الشِّعْرِ، كما أنَّها صورةٌ صحيحة للعرب وعاداتهم وتقاليدهم، ورسمٌ صادقٌ لأسلوبِ حياتهم وشأنهم في الحروب والسلم ونحو ذلك.

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/٤٩.

(٢) العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ٢٠٢.

وقبيلتنا هُذَيْلٌ مشهورةٌ بكثرة الحروب والأيام، التي خاضَتْها مع جيرانها من قبائلِ العرب، والواقعُ أن مَن يقرأ أشْعارَهم يبهرُه كثرةُ حروبهم وأيامهم، فكأنها كانت شغلُهم الشاغلُ، وعملُهم الدائمُ، فلا ينتهون من موقعةٍ إلا ليفكروا في الأخرى، حتى عُرِفَ ذلك عنهم، وقد سبق قولُ دَغْفَلٍ النسابة حين قال عنهم: " كانوا قبيلاً (جِدَّ) أكياسٍ، أهل مَنَعةٍ وباس، ينتصفون من الناس"(١).

وكان لهُذَيْلٍ مهابةٌ عند القبائلِ العربية، ومن ناحية أُخرى كَثُرَ أعداؤُهم وخصومُهم، حتى كانت لهم أيامٌ مع قبائلَ كثيرةٍ أشهرُها سُلَيْم، وخُزَاعةَ، وفَهْم، وكنانة، وهَوازن، وجُهَيْنَة، والأَزْد، وغيرُهم، على نحوِ ما سبقَ في الحديثِ عن حروب هُذَيْلٍ(٢).

ولا شكَّ أن كثرةَ الأيام والوقائع التي خاضَتْها هُذَيْلٌ كانت سبباً في كَثْرَةِ أشْعارِهم، فقد سَجَّل شُعراؤهم تلك الأيام، وقاموا برثاء قَتْلاهم، ثم تحدَّثوا عن انتصاراتهم ومنجزاتهم، وما حقَّقوه من الأخذ بالثأر والانتقام لقتلاهم، وكذلك ترنَّموا بأهازيج قوتهم وبسالتهم، واستماتتهم في الدفاع عن شرفهم وشرف قبيلتهم،وحَسَبِها ومكانتها، فكانت هذه الأيام تُؤَرِّجُ عواطفَهم،وتبعثُ شعورَهم،وتثيرُ شاعريَّتَهم، وكان الشُّعراءُ مع الفوارس يُذَكُّون حَمِيَّتَهم، ويلهبون شجاعَتَهم، ويصفون خيلَهم وسلاحَهم، ويشيدون ببطولتهم ومواقفهم،ويحرضونهم على الثأر والانتقام.

والمعركةُ هي الميدان الفسيحُ الذي يستمدُّ الشاعرُ منه معانيه الحربية، فيعرض في شِعْرِه صوراً من أهوالِ القتالِ وما يكون فيه من كَرّ وفَرّ وجرحَى وقتلَى وصياحٍ وجَلَبَةٍ، وما يستعمل فيه من رماحٍ وتروس، ودروع وسيوف،وتكاد تسمع أصواتَ الرماحِ تتكسر على التروسِ ، وترى السهامَ وهم يتراشقون بها فتستقر في الصدور والأفئدة.وهذا ساعدة بن جُؤَيَّة يصور المعركةَ والخيلَ التي تجري هنا وهناك، وقد أُدْخِلَتْ رؤوسُها في اللُّجُم،وكيف يستخرجُ الفرسانُ ما عندها من الجَرْي بأرجلهم وبالسياط، ثم يصور القتالَ وكيف أن الفرسانَ يسقي بعضُهم بعضاً كؤوس الطِّعان،

---

(١) في ذيل الأمالي والنوادر للقالي، ص ٢٥ : "كانوا قليلاً أكياس» وهو خطأ واضح لم ينتبه له محققوه ، والصواب ما أثبتناه.

(٢) في الباب الثاني فصل " مكانتها الاجتماعية والأدبية".

ويتساقطون كأنهما يتساقَوْن السُّمَّ، ويصور السيوفَ البُصْرِيَّة ووقعَها الشديدَ الأليمَ، حيث تقطع الأيدي والرقاب،فيصرعون الملوكَ ضرباً بالسيوف فيتساقطون صرعَى مقطعي الأطرافِ، وذلك حيث يقول:

بِمُقْرَبَاتٍ بأَيْدِيهم أَعِنَّتُهَا ... خُوصٍ إذا فَزِعُوا أُدْغِمْنَ في اللُّجُمِ

يُوشُونَهُنَّ إذا ما نَابَهُم فَزَعٌ ... تحت السَّنَوَّرِ بالأَعقابِ والجِذَمِ

فأَشْرَعوا يزَنِيَّاتٍ مُحَرَّبَةً ... مِثْلَ الكواكِبِ يَسَّاقَوْنَ بالسِّمَمِ

كأنما يقعُ البُصْرِيُّ بينَهُمُ ... من الطوائفِ والأَعنَاقِ بالوَذَمِ

يُجَدِّلُونَ ملوكاً في طَوَائِفِهِمْ ... ضَرْباً خَرادِيلَ كالتَّشْقِيق في الأَدَمِ (١)

ثم أخذَ الشاعرُ يصوِّرُ آثارَ المعركة ويصفُ المندحرينَ والمنتصرينَ فيها، فهذا رجلٌ حزينٌ مكتئبٌ، وآخرُ عطشان وهو ثَمِلٌ متكسرٌ من الجراح، وغيرُه من الأشراف الخضارم قد هلك، وقد كان يُؤْوي اليتيمَ في ذمته إذا لم يتكفله أحدٌ، ورجلٌ شجاعٌ طويلٌ قد دَمِيَ نحرُه وصفحتُه يصيح مثل صياح النَّسْرِ من شدَّة الألم، وقد كان قبل ذلك يصيح بين الفرسان ويحملُ عليهم ويرد الخيلَ إلى المُعْتَكَرِ كالفحل الذي يهدر بين قطيع الإبل، ثم يصور امرأةً قد أُسرت بعد أن كانت حُرَّةً وهي الآن في مَرْكَبِ الكَرْه والذُّلِّ، تمشي على تَجَشُّمٍ ومشقَّةٍ بالغة، ودموعها تَذْرِفُ على خدَّيْها، ثم هي الآن تَلْبَسُ الثوبَ الخَلَقَ المرقَّعَ بعد أن كانت تَلْبَسُ البرودَ الحُمْرَ ذوات الخطوط الخُضْرِ. ولا عجبَ في ذلك فقد كُسرَ القومُ الأَعزَّةُ،على أيدي أعدائهم الذين هاضوهم وجعلوهم كأنهم أرجاء هارٍ اسْتَخَفَّه اليَمُّ فتداعَى وانْثَلَم،بينما المنتصرون يمشون على مَهْلٍ في كِبرياء وخُيلاء، وقد ربطوا الأسارى في حبالِهم وساقوا الجمالَ التي تشبه الطَّودَ في كثرتها فنراه يقول:

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١١٣٣ المقربات: اللواتي عند البيوت لصارخٍ أو لفزع، أُدْغِمْنَ في اللُّجُم: أُدخلَتْ رؤوسهن في اللجم، يوشونَهنَّ، أي: يستخرجون ما عندهن من الجري بأرجلهم وبالسياط، السَّنَوَّرُ: ما عُمِلَ من حَلَق الحديد من درْع أو مِغْفَر، الجِذْمَة: السَّوْط، أشرعوا ، أي: سَدَّدوهن للطعَنِ، مُحَرَّبة، أي كأن بها غضباً، يَسَّاقَوْن، أي: يَسْقي بعضُهم بعضاً، الطعنَ، البُصْرِيُّ، أي: السيف المصنوع في بُصْرَى، الطوائف: النواحي، الوَذَمَةُ، السَّيْرُ بين العَرْقُوَةِ وأُذُن الدَّلْوِ، يُجَدِّلون: يصرعون، خراديل: يقال خردل الشاة إذا قَطَّعَها قِطَعاً.

مــاذا هُنالكَ مِن أَسْـوانَ مُكْتَـئِبٍ   وسـاهِف ثَمِلٍ في صَـعْـدَةٍ حِطَمِ
وخِـضْــرِمٍ زاخِـرٍ أَعْــراقُــهُ تَلِفٍ   يُؤْوِي اليـتـيـمَ إذا مـا ضُنَّ بالذِّمَمِ
وشَـرْجَبٍ نَحْـرُهُ دامٍ وصَـفْـحَـتُـهُ   يَصيحُ مـثلَ صياحِ النَّسْرِ مُنْتَحِمِ
مُطَرِّفٍ وسْطَ أُولَى الخَيْلِ مُعْتَكِرٍ   كالفَحْلِ قَرْقَرَ وَسْطَ الهَجْمَةِ القَطِمِ
وحُـــرَّةٍ من وراءِ الكورِ وارِكَـــةً   في مَرْكَبِ الكَرْهِ أو تَمْشِي على جَشَمِ
يُذْرِينَ دَمْعاً على الأشْفارِ مُنْحَدِراً   يَرْفُلْنَ بَعْـدَ ثـيـابِ الخَـالِ في الرُّدُمِ
فـاسْتَـدْبَرُوهُمْ فَهاضُـوهُمْ كـأَنَّهُمُ   أَرْجـــاءُ هارٍ زَفـــاهُ اليَمُّ مُنْثَلِمِ
فَـجَلَّزوا بِأُسَـارَى في زِمَـامِـهِمُ   وجَـامِلٍ كَـحَـزِيمِ الطَّوْدِ مُـقْـتَـسَمِ (١)

وكان شعراءُ هُذَيْلٍ يباهون ببطولَتِهم، ومَضاء أسلحَتِهم،ويتغنون بالمُثُلِ العليا التي جعلَتْهم فرساناً لا يهابون الموتَ،فهم شجعان يقذفون أنفسَهم في المخاطر، ويخوضون غمرات المنيَّة، ويأبون الذُّلَّ، ويأنفون من الجُبْنِ والهزيمة،ويصورون النصرَ حليفَهم في المعارك دائماً، ويتحدثون عن لَذَّةِ الفوزِ ونَشْوَته،ويرسمون المعارك التي أوقعوا فيها بأعدائهم.

فيروى أنَّ الجَدَرَةَ وهم "جِعْثِمةُ" حَيٌّ من الأَزْدِ أزد شَنُوءَةَ ـ أغارَتْ على بني قُرَيْم بن صاهلةَ بن هُذَيْل، وكانوا ستين رجلاً، فَطَرَّقَتْ عليهم بنو قُرَيْمٍ فلم يَنْجُ من الجَدَرَةِ إلا رجلٌ واحدٌ يُدْعَى سُنَيْنَةَ،فقال أبو بُثَيْنَةَ الصاهليُّ الهُذَليُّ يذكرُ ذلكَ،ويعلنُ لأقربائه مِن هُذَيْلٍ الذين كانوا في شِقِّ اليمنِ،بأنهم قطعوا أنوفَ الجَدَرَات الذين أغاروا عليهم،ويصور كيف قتلوهم وصرعوهم على الأرض، وكيف أنَّ جلودَهم كانت مُصْفَرَّةً بعدَ قتلِهم وضربِهم بنصالِ السيوف، وذلك حيث يقول:

---

(١) أسْوان: حَزين، الساهف: العطشان، حطَمٌ: كسرٌ، صَعْدَةٌ: قَناةٌ، الخضْرِمُ: الواسع الخُلُق، والخضارم: الأشراف، تَلَفٌ: هالكٌ، الشَّرْجَبُ: الطويل، الانتحام: شبيه بالنَّفَس من الصَّدْر، المُطَّرَف: الذي يَرُدُّ أوائلَ الشيء، القَرْقَرَة: الهَدْرُ، الهَجْمَة: القطعةُ من الإبل، تمشي على جَشَم: تَمْشِي على كَرْه ومَشَقَّة، مركبُ الكَرْه، الرَّحْلُ، ثياب الخال: بُرودٌ حُمْرٌ فيها خطوط خُضْرٌ، الثوبُ المُرَدَّم: المُرَقَّع، هاضُوهُم: كسروهم، أرجاء: نواح، هارٍ: تكسَّرَ وانهدَم وانهارَ، اليَمّ: البحر، زفاه: اسْتَخَفَّه: في زِمامِهِم: في حبالِهم ، حزيمه: وسَطُه، جلَّزوا: مضوا ومرّوا مرّاً خفيفاً.

أَلا أَبْلِـغْ يَمــــــــانِينَـا بـأَنّـا ... جَــــدَعْنَـا آنُـفَ الجَـــدَراتِ أَمْسِ

عَــدَوْنَا عَــدْوَةً شــقَّتْ عَلـيْـهِـمْ ... بِمَــعْدى يَحْطِمُ السُّهْلِيَّ شِكْسِ

تَرَكْناهُم ولا نَرْثي عليـــــهِمْ ... كـــأَنَّ جُلودَهُمْ طُلِيَتْ بِوَرْسِ

فـأَعْلُوهُمْ بنَصْلِ السيفِ ضَرباً ... وقُلْتُ لَعلَّهُمْ أصـحــابُ فَـرْسِ

فـــأُغْـــرِيهِمْ ولا أُغْـــرِي أَلِيّــاً ... فِـدىً لِصحَابَةِ المُغْرِينَ نَفْسي (١)

وكان بنو عَدِيٍّ بن الدِّيل بن بكر،وهم إخوة قُصَيٍّ بن كلاب الذين كانوا حلفاء للجَدَرَة(١)، ويروى أن أُهْبانَ بن لُعْطٍ وهو من بني عَدِيّ بنِ الدِّيلِ بن بكر أجاب أبا بثينة فقال يعنفه على هذا الفعل ويهدِّده بقوله:

ألا أَبْلِغْ لَدَيْكَ بني قُـــريْمٍ ... مُـغَلْغَلَةً يَجِيءُ بها الخَـبِـيـرُ

فَــــرُدُّوا لي المَوالِيَ ثم حُلُّوا ... مَــرابِعَكُمْ إذا مُطِرَ الوَتيـــرُ

فَمـــا إنْ حُبُّ غـانِيَـةٍ عَناني ... ولكِنْ رَجْلُ رايةَ يَوْمَ صِيـــرُوا

وقلتُ أبا بُثَـيْـنَةَ غـيـرَ فَخْـرٍ ... شَهِدْتَ بني عُتَيْبَةَ إذ أُبِيرُوا

غَـداةَ جُنَيْـدِبٌ يَحْـدُو رَعِيلاً ... كـمـا أَنْحَى على الجَلَبِ الأجِيـرُ

فـإنَّ قَـصَـارَكُمْ منَّا لَحَـرْبٌ ... تُزِفُّ الشُّمْطَ أو عَقلٌ ضَريرُ (٢)

فأجابه أبو بُثَيْنَة وردَّ عليه رداً عنيفاً وهدَّده، وتمنى أن كان أُهْبان بن لُعْط معهم، وشهد ما كان لهم حين استُثيروا كما يستثار الصيد، فيُقْتَلُ معهم، ثم أخذ يصور تنكيلهم بالجَدَرَات ويصف مقتلَهم الشائن المُخْزِي، وأخذ يهدِّدُهم بالقتلِ مرَّة أخرى، فقال:

---

(١) المرجع السابق ٢ / ٧٢٥ في الموضعين، يَمانينا: من في شقِّ اليمن من قَومنا، شَكْسٌ: خشن، لا نرثي عليهم: لا نحزن، بَوْرسٍ: مُصْفَرَّة، ألياً، أي: لا يألوا.

(٢) المرجع نفسه ٢ / ٧٢٦ مُغَلْغَلَة: رسالة تدخل إليهم كلَّ مَدْخل، الموالي: الحلفاء، حُلُّو: انزلوا، الوتير: بلد بني الديل، صيروا: دُعُوا أو أُميلوا، الرعيل: قطعة خيل قَدْرُ عشرين أو خمسة وعشرين، أنْحَى: أكبَّ، على الجلب الأجير: إبل جُلبَت والأجير يضربها في مآخيرها، يحدو: يسوق، تُزِفّ: تذهب، قَصَاركم: آخرُ أمركم، عقل: دية، ضرير: يُضِرُّ بِهم.

obeikandi.com

أَلا يا ليتَ أُهْبَانَ بنَ لُعْطٍ ... تَلَفَّتَ نَحْوَهُمْ حينَ اسْتُشِيرُوا
فَيُقْتَلَ أو يرى غَبْناً مُبِيناً ... وذلكَ لو دَرَبْتَ به نَصُورُ
كأنَّ القومَ من نَبْلِ ابنِ رَوْحٍ ... لَدى القَمْراءِ تَلْفَحُهُمْ سَعِيرُ
جَلَبْنَاهُمْ على الوَتَرَيْنِ شَدّاً ... على أَسْتَاهِهِمْ وشَلٌ غَزِيرُ
سَنَقْتُلُكُمْ على رُصُفٍ وَظَرٍّ ... إِذا لَفَحَتْ وَجُوهَكُمُ الحَرُورُ (١)

أما عمرُو بن هُمَيْلٍ اللحْيانيُّ فهو يفتخر بشجاعةِ قومه حين أغارت بنو لِحيانَ على خزاعةَ وبني بكرٍ فأدركوا ثأرهم وقتلوا منهم قتلى كثيرين في يوم غزال. ونرى الشاعر يفتخر بإدراكِ ثأرهم من خزاعة وبني بكرٍ وبقتلهم، ثم بسبيهم النساء والجمال السِّمان ذوات الأسنمة،فضلاً عن أنهم ضربوا رؤوس القوم من أعدائهم، وثأروا للقتلى من أهله وقرابته من بني لِحْيان، وبذلك صار لهم العلاء والشرف والزيادة على خُزاعة وبكر بعد ردِّ ذلك الثأر، وإنزال القتل والهزيمة بهم،وذلك حيث يقول:

أَبَأْنَا بيومِ العَرْجِ يوماً بِمِثْلِه ... غَداةَ غَزالٍ بالخَليطِ المُزَيَّلِ
فَقَتْلاً بِقَتْلانَا وسُقْنَا بِسَبْيِنَا ... نساءً وجِئْنَا بالهِجَانِ المُرَعَّلِ
فأَصْبَحْنَ أَخْلامَ العِبادِ عوانياً ... يُرَسِّفْنَ شَتَّى في الحديدِ المُسَلْسَلِ
وكُنَّا إذا ما الحربُ ضُرِّسَ نابُها ... نُقَوِّمُهَا بالمَشْرَفِيِّ المُقَلَّلِ
بَنِيها تَرَبَّتْها صِغاراً نُقِيمُهَا ... ونَضْرِبُ رأسَ الأَبْلَخِ المُتَخَيِّلِ
أَلَمْ يعلمِ التَّيسُ الخُزاعِيُّ أَننا ... ثأرْنا أبا عَمْروٍ وأَصْحابَ جَنْدَلِ
قَتَلْنا بِقَتْلانَا خُزَاعَةَ كُلَّها ... وَبكْراً فَفي كِلا الفَريقَيْنِ نَعْتَلي
نُغَاوِرُ في أَهْلِ الأراكِ وتارةً ... نُغَاوِرُ أَصْراماً بأَكْنافِ مَجْدَلِ (٢)

---

(١) المرجع نفسه ٢/ ٧٢٨ نصور: مثل ناصر أي معين أو ندعو، القمراء: ليلة مقمرة، اللفح: أي من الحر، الوشل: الماء الغزير والمراد هنا السلح، الوتران: بلد، غزير، كثير، رُصُف: ماء من ضيم، الظَّرُّ: هو واحد الظِّرَّان: وهي الحجارة.

(٢) المرجع نفسه ٢/ ٥١٨ أبأنا: كافَأْنا وأخذْنا، البواء: القَوْد، المزيَّل: الذي ذهب بعضه من بعض أو المفرَّق، الهجان: من الإبل البيض الكرام، المرعل: أن يُشقَّ في آذانها شُقَيْقٌ صغير تُوسَمُ به، أو أنها الخِيارُ السِّمان ذوات الأسنمة، الخِلم: الصديق، عوان: أسرى، الرسيف، =

obeikandl.com

فهو يفخر بسبي النساء، وقد كان أقسى ما يواجه القبيلة أن تُسبَى نساؤها،ولا يسكت على السبي أو يترك نساءه بأيدي عدوه إلا الضعيف الجبان، فهم يفخرون حين يسبون نساء أعدائهم، ويفخرون كذلك حين يستردون نساءهم اللاتي سباها الأعداء.

ونحس في هذه الحماسة الحقد البالغ على خصومهم، فهم دائماً يتعرضون لهم يهدِّدونهم ويتوعدونهم انتقاماً مُرَوِّعاً، وكان أشد ما يهيجهم أن يُقْتَلَ منهم قتيلٌ،فحينئذ تهيج القبيلةُ ويهيج شعراؤها هياجاً لا حَدَّ له، فإذا ثارت لنفسها وشفت غُلَّها وحقدها،أخذَ شُعراؤها ينشدون أناشيدَ النصر،على نحو ما يروى عن يوم "حَلْيَة"(١)، وسببه أن نَفَراً من بني صاهلةَ من هُذَيْل خرجوا للغزو يريدون حَيّاً من الأَزْد بحَلْيَةَ يقال لهم ثَابِرٌ، فلما وصلوا إليهم قتلتهم ثابرٌ إلا رجلاً واحداً انفلت منهم، فبلغ ذلك بني صاهلة وهم بنَخْلَةَ، فغضب سَلْمَى بن المُقْعَد،وحلفَ لا يَمَسُّ رأسَه غسلٌ ولا دُهنٌ حتى يَقْتُلَ بهم ويأخذ بثأرهم، فغزاهم ببني صاهلةَ، فوجدهم بحَلْيَة، فَصَبَّحَهم وأباحُوا ديارهم،وقال في ذلك:

رجالُ بَني زُبَيْدٍ غَيَّبَتْهُمْ ... جِبَالُ أُمُولَ لا سُقِيَتْ أُمُولُ (٢)

وقال أيضاً:

إنا نَزَعْنَا مِنْ مجالسِ نَخْلَةٍ ... فَنُجيزُ مِنْ حُشُنٍ بَياضَ أَلَمْلَمَا

لا نَبتغي إلا بكلِّ مُهَنَّدٍ ... ذَكَرٍ يُتِرُّ إذا يُصيبُ المُعْظَمَا

لَمّا عَرَفْنا أَنَّهم أَثْآرَنَا ... قُلنَا وشَمْسٍ لَنَخْضِبَنَّهُمُ دَمَا

نَرْمي ونَطْعُنُهُمْ على ما خَيَّلَتْ ... نَدْعُو رِياحاً وَسْطَهُمْ والتَّوْأَمَا

والأَقْرَمَانِ وعامِرٌ ما عَامِرٌ ... كَأَسُودِ حَاذَةَ يَبْتَغِينَ المَرْزِمَا

= مشي المقيد، مسلسل: له سلاسل، ضُرِّس نابها: ساء خُلُقها وقُوتل فيها، مُقَلَّل: له قُلَّة، أي قَبيعَة تُقلُّه، الأبلخ: المتعظم، متخيل: يختال، نعتلي: لنا العلاء والشرف، أصرام: جماعات من الناس، مجدل: واد.

(١) المرجع نفسه ٢/٧٩٦.

(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها. أمول وزُبيد: مواضع لبني حارثة بن مخزوم بن صاهلة.

وَيْلُمِّ ســاعــدةَ بنِ زيدٍ عــادياً | بالجِزْعِ إن ثارَ الغُبارُ وَصَمَّمَا
لمّا رأى أنْ طَرَّبُوا من ساعَةٍ | أَلْوَى بِرَيْعانِ العَديِّ وأَجْذَمَا [1]

وهذا اليوم يذكرنا بيوم "الحُلَيْت"[2] الذي كان بين هُذَيْل وجُهَيْنَة، وفيه دارت الدائرة على جهينة، وكان سببه أن هُذَيْلاً تريدُ أن تنتصفَ لأحد قتلاها وتأخذَ بثأره، فيروى أن أبا ضَبٍّ أخا بني لِحْيان الهُذَلي كان لا يُقْتَلُ من هُذَيْلٍ قتيلٌ إلا قتلَ قاتلَه،وحَدَثَ أن جاءته امرأة من بني سَهْمٍ بن معاوية من هُذَيْل، وقد قُتل أخٌ لها يقال له : عصْمَةُ الأضياف، وكان الذي قتله رجلٌ من جهينة يقال له: أَسْلَمُ فذكرت ذلك لأبي ضَبٍّ، فخرج هو وابن أخت له يقال له: الرَّكّاب، حتى وجد القوم في دُبُرِ الحُلَيْتِ، فبيَّتَهم أبو ضَبٍّ وصاحبه، وأصابا أهل تلك الدار، وقتلا مسعوداً سيدّهم، ثم انصرفا ورجعا إلى قومهما، فخرج القوم في آثارهما حتى أصبحوا، ويقال إنهم رأوْا الأفاعي صَرْعَى تحت أقدامهما، وقال أبو ضبٍّ في ذلك اليوم:

هَلاَّ عَلِمْتَ أَبا إِياسٍ مَشْهَدي | أَيامَ أَنْتَ إلى المَوالي تَصْخَدُ
وأَخَذْتُ بَزِّي فاتبَّعْتُ عَدُوَّكُمْ | والقَوْمُ دُونَهُمُ الحُلَيْتُ فأَرْبَدُ
حتى طَرَقْتُ بني نُفاثَةَ مَوْهِناً | واللهُ أَبْلَى والعَواقِبُ شُهَّدُ
فتركتُ مسعوداً على أَحْشائه | حَرَّى يُعانِدُها نَجيعٌ أَسْوَدُ
وضَرَبْتُ مَفْرِقَهُ وَمِنّي عادَةٌ | ضَرْبُ المَفارِقِ والفَرائِصُ تُرْعَدُ
ولقد أَقُودُ الجيشَ أَحْمِلُ رايتي | للجيشِ يَقْدُمُهُمْ كَمِيٌّ أَصْيَدُ
لَيْثٌ يُغامِرُ للطِّعانِ كأَنَّما | يَقِمُ الرِّجالَ بِهِ فَنِيقٌ مُلْبِدُ
حتى إذا الْتَبَسَ القِتالُ ولم يَزَلْ | رأسٌ يَميلُ على جَبينٍ أَوْ يَدُ
لَقَّيْتُ لَبَّتَهُ السِّنانَ فَكَبَّهُ | مِنِّي تَكايُدُ طَعْنَةٍ وَتَأَيُّدُ

(١) المرجع نفسه٢ /٧٩٧ نزعنا: جئنا، نجيز: نَمُرُّ، أَلَمْلَم: موضع، يُترُّ: يقطع، المعظم، أي: أغلظه مثل العنق والفخذ والساق، رياح وتوأم: رجلان، المَرْزَم: الأَخْذُ، طَرَّبوا: صاحوا، من ساعة، أي: بعد ساعة، أَلوَى: أشار إليهم بثوبه أو بسيفه، العَديُّ: الحاملة الذين يعدون على أرجلهم يُغيرون، ريعانُهم: أولُهم، أجْذَمَ: ذَهبَ.
(٢) المرجع نفسه ٢ /٧٠٣.

والمَشْرَفِيَّةُ ثاقِبَاتٌ بَيننا كَذَكا الحَرِيقَةِ حَمْيُها يَتَوَقَّدُ
نَعْلوُ بِها داءَ الجَماجِمِ إننا شُهُدٌ ليومِ كَريهةٍ لا تُشْهَدُ (١)

ثم لنقرأ ما يقوله أبو ذؤيب في يوم البَوْبَاة(٢)، وكانت هَوازِنُ قد أغارت على حَيٍّ من هُذَيْلٍ، ووقعوا بهم واستاقوهم وكل ما يملكون من المال، فجمعت لهم هُذَيْل وخرجوا في طلب هَوازِن، وافترقوا لهم فريقين، أحدهما تَقَدَّمَهم وقعد لهم على شَرَف المَنَقَبة، بينما تأخر الفريق الثاني لأُخْراهم، فلما اقتربت هوازن من تلك المَنْقَبَة اكتنفهم الفريقُ الأول من أمامهم،بينما فاجأهم الفريقُ الثاني من ورائهم، فلم يفلت من هوازِن أحدٌ إلا مالك بن عَوْف النَّصْري الذي هرب شَدّاً على رِجْليه، ويقال إن المنقبة كانت تسيل بدمائهم، ويروى أن أبا ذؤيب كان يَضْربُ في القوم ويرتجز:

أدْرَكَ أَرْبَابُ النَّعَمْ وَحِمِيَ الضَّرْبُ وَجَمّْ
بكلِّ مَلْحُوبٍ أَشَمْ مُذَلَّقٍ مِثلِ الزُّلَمْ
رُدُّوا السُّبِيَّ والنَّعَمْ يا حَبَّذَا رِيحٌ بِدَمْ (٣)

وقال مالك بن عوف النصري حين رجع إلى أهله مغتاظاً:

إني زعيمٌ أَنْ تُقَادَ جِيادُنَا نِقابَ الرَّجِيعِ في السَّرِيحِ المُسَيَّرِ (٤)

فأجابهُ مالك بن خالد الخُنَاعي الهُذَلي يهدده بإنزال الهزائم المتتابعَة بهم، فيقول:

أَمالِ بْنَ عَوفٍ إنَّما الغَزْوُ بَيْنَنَا ثلاثُ ليالٍ غيرُ مَغْزَاةٍ أَشْهُرِ
متى تَنْزِعُوا مِنْ بَطْنِ لِيَّةَ تُصْبِحُوا بِقَرْنٍ ولم يَضْمُرْ لَكُمْ بَطْنُ مِحْمَرِ
فلا تَتَهَدَّدْنَا بِقَحْمِكَ إننا متى تَأتِنا نُنْزِلْكَ عنهُ وَيُعْقَرِ

---

(١) المرجع نفسه ٢ / ٧٠٥ المَوالي : بنو العم، تصخد : تصرخ وتصيح، بَزُّهُ: سلاحه، حَرَّى: طعنة شديدة على صاحبها، نجيع: دم طري، يُغامر: يدخل في غمرة الحرب، أي: معظمها، يَقِم: يكسر، فنيق: فحل، مُلبد: يعني الفحل يضرب بذنبه بوله فيتلبد على وركيه ويفعل ذلك إذا هَبَّ، تكايُد: تشدد ، تَأيُّدٌ: قُوَّة، ثقبت: أضاءت كثقوب النار.

(٢) المرجع نفسه ٢ / ٦٩٣، وسبق يوم البوباة: مفصلاً في حروب هذيل.

(٣) المرجع نفسه ٢ / ٦٩٤ جم: كثر، أشم: طويل، ملحوب: قليل اللحم، مُذَلَّق: ممشوق.

(٤) المرجع نفسه ٢ / ٦٩٨ مسير: مشدود بالسيور.

فبعضَ الوعيدِ إنها قد تَكَشَّفَتْ   لأشْياعِها عن فَرْجِ صَرْمَاءَ مُذْكِرِ
ألمْ تَرَ أنَّا أَهْلُ سَوْدَاءَ جَوْنَةٍ   وأهلُ حِجَابٍ ذي حِجَازٍ ومَوْقِرِ
بهِ قَاتَلَتْ آباؤُنا قَبْلَ ما تَرَى   مَلوكَ بَني عادٍ وأقْيَالَ حِمْيَرِ [1]

ولقد كان للمرأة الهذلية في تلك المعارك دور فَعَّال، وكانت تقول الشعر تحرض فيه المقاتلين على القتال، وتحث على الطلب بالثأر، على نحو ما نرى في قصيدة لجنوب أخت عمرو ذي الكلب ترثي أخاها عَمراً وقد قتلَتْهُ فَهْمٌ[2]، وهي تذكر فيها شجاعتَه وإقدامه، وفروسيته في الطعان والنزال، وكيف أنه كان يسبي النساء الجميلات اللواتي ينفحن بالطيب، ثم تطالب هُذَيْلاً أن يكيلوا لهم صاعاً بصاع، حتى يرفعوا عنهم ذلك الذُّل ويأخذوا بثأرهم لأخيها عمرو، تقول فيها:

أَبْلغْ هُذَيْلاً وأَبْلِغْ مَنْ يُبَلِّغُها   عنِّي رسولاً وبعضُ القولِ تكذيبُ
بأَنَّ ذا الكلبِ عَمْراً خَيْرُهم نَسَباً   ببَطْنِ شَرْيَانَ يَعْوِي عندَهُ الذِّيبُ
الطاعِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ يَتْبَعُها   مُثْعَنْجِرٌ من دماءِ الجَوْفِ أُثْعُوبُ
تَمْشِي النُّسورُ إليهِ وهي لاهِيَةٌ   مَشْيَ العَذَارَى عليهِنَّ الجَلاَبيب
المُخْرِجُ الكاعِبَ الحسناءَ مُذْعِنَةً   في السَّبْيِ يَنْفَحُ مِن أَردَانِها الطِّيبُ
فلم يَرَوْا مثلَ عَمْرٍو ما خَطَتْ قَدَمٌ   ولَنْ يَرَوْا مِثْلَهُ ما حَنَّت النِّيبُ
فاجْزُوا تأَبَّط شَرّاً لا أَبا لَكُمُ   صَاعاً بصاعٍ فإنَّ الذُّلَّ مَعْتُوبُ [3]

---

(١) المرجع نفسه ١/٤٥٣ تنزعوا: تخرجوا منه، ولم يضمر لكم بطن مِحْمَر، أي: لم تتعب دوابكم لقرب السير، القحمُ: الكبير من الإبل والناس وغيرهم، صرماء: الناقة المصرمة التي لا أخلاف لها، مُذْكِر: تلد الذكور وهو مكروه من الإبل، سوداء: يريد حَرّة، الحجاب: ما غلظ من الحَرَّة وارتفع، موقر: سهل، الأقيال: الملوك.

(٢) المرجع نفسه ٢/٨٥٥ وهناك رواية أخرى في مقتله، تفيد أنه خرج غازياً فبينما كان نائماً في بعض غاراته وثب عليه نمران فأكلاه، ثم وجدت فَهْمٌ سلاحه فادعت قتله، انظر المرجع السابق ٢/٥٧٨ والأغاني ٢٢/٣٨٧.

(٣) ديوان الهذليين ٣/١٢٥ بطن شَرْيَان: موضع قتل فيه، نجلاء: واسعة، المثعنجر: السائل الذي يتصبب، أثعوب: ينثعب، لاهية: آمنة لا يذعرها شيء لأنه قد مات، أردانها: أكمامها، مذعنة: مطيعة، وقبيلة فهم منها تأبط شراً.

obeikandi.com

ولم يكن دورُ المرأة الهُذَلية في إدامة الحروب وإضرام نار القتال فحسب، ولكنها كانت أيضاً تُعَيِّرُ الرجالَ بالهزيمة،وتلومُهم إذا فَرُّوا من المعارك، على نحو ما يروى من أن أبا الرَّعِّاش الصاهليَّ من هُذَيْلٍ، أقبل يوم الفتح،"فتح مكة" يريد نصر قريش وبني بكر ويطلب الغنائم، وقد قال لامرأته: "آتيك بخادم وأُحلّيك من غنائم أصحاب محمَد"(١)، فلم يفجأه إلا أصحاب النبيِّ ﷺ يطردون المشركين، فرجع فاراً حتى قدم أهله، فلامته امرأته وعيَّرتهُ في ذلك وقالت له: شاهَ الوجهُ ـ أي قَبُحَ ـ أخذلتَ قومكَ؟ فقال يعتذر إليها ويصف المعركة وكيف أن المشركين فزعوا وفروا أمام المسلمين الفاتحين، ثم يطلب منها ألا تنطق في اللوم بأدنى كلمة، وقال يرتجز:

إنَّك لو أبْصَرْتنا بالخَنْدَمَهْ ... إذْ فَرَّ صَفْوانُ وفَرَّ عِكْرِمَهْ
وأَبُو يَزيدَ قائمٌ كالمُؤْتَمَهْ ... واستَقْبَلَتْهُمْ بالسيوف المُسْلِمَهْ
ضرباً فلا تسمعُ إلا غَمْغَمَهْ ... تقطَعُ كلَّ ساعِدٍ وجُمْجُمَهْ
لهُمْ نَهِيتٌ خَلْفنَا وهَمْهَمَهْ ... لم تَنْطِقي في اللَّوْمِ أَدْنى كَلِمَهْ(٢)

إلى غير ذلك من الأشعار التي قيلت في هذا الغرض، والتي ليس هنا مجال لذكرها، وقد سبق أمثلة أخرى من ذلك عندما تكلمنا عن حروب هُذَيْلٍ(٣).

والحقُّ أنَّ الناظر في أشْعارِ الهُذليين، يَبْهَرُه كلُّ تلك الأشْعارِ التي قيلت في الحروب والأيام،والمهم أنهم كانوا لا يقيمون على الذُلِّ ولا يسكتون على الظُّلم،فمن العارِ عندهم أن يسكتوا على ذلك، ولكنهم كانوا يهبون هبَّةَ رجلٍ واحد، وتنطلق ألسنتهم بالأشعار الحماسية، على نحو ما يقوله البُرَيْقُ الخُنَاعيُّ:

لا تَحْسِبَنِّي مُحَجَّلاً كَزِمَ الـ ... سَّاقَيْنِ يَبْكِي أن يَظْلَعَ الجَمَلُ
إنِّي امرؤٌ في هُذَيْل ناصِرُهُ ... مُرْتَجِلٌ في الحُروبِ ما ارْتَجَلوا(٤)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٧٨٧.

(٢) المرجع السابق ٢ / ٧٨٨المراد صفوان بن أمية بن خلف، وعكرمة بن أبي جهل، وأبو يزيد: هو سُهَيلُ بن عمرو، المؤتمة: أم اليتيم، غمغمة: صوت لا يفهم، النهيت: صوت يخرج من الصدر من غيظ ونحوه وهو صوت شديد.

(٣) سبق ذلك في الباب الثاني فصل" مكانتها الاجتماعية والأدبية".

(٤) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٧٦٠ مُحَجَّلٌ: لازمٌ البيت، كَزِم السَّاقين: قصيرها، أرتجلُ: أركب ما ركبوا.

٥- الرثـــــاء:

هو بكاءُ الميت وتعديدُ محاسنه، ونظمُ الشعر فيه[١]، وذلك بإظهار اللوعة على فِراقه،والحزنِ لموته، وعَدِّ خلاله الكريمة التي يَروعُ الناسَ فقدُها، ثم الإشادَة بمناقبه وشمائله.

والرثاء من الفنون التي جَوَّدَ فيها شُعراءُ العرب، لأنه تعبير عن خلجات قلب حزين، وفيه لوعةٌ صادقةٌ وحسراتٌ على الفقيد. ولذلك كان من الموضوعات القريبة إلى النفس، لأن الرثاءَ الصادقَ تعبيرٌ مباشر قلَّما تشوبُه الصَّنْعَةُ أو التكلُّفُ، فقد كانوا في الرثاء على شرطهم في غيره لا يبالغون ولا يهوّلون،فيصوّرون الأرضَ تميدُ، والسماءَ ترمي بالشُّهُب،وإنما كانوا يبكون في الميت الشجاعةَ والنَّجدةَ والكرمَ، والوفاءَ ونحو ذلك مما كانوا يتمدَّحون به[٢].

وكانت الحياةُ الجاهلية حياةَ حربٍ ودماء وغارات،يسقط على أثرها القتلَى، فيبكي الأهلُ والشُّعراءُ قتلاهم ، ويثيرون ببكائهم دموعَ قبائلهم، ويؤجِّجون أحزانَهم فيدفعونهم لشحذ سيوفهم استعداداً لجولة جديدة تطفئ نارَ غيظهم، وتشفي أحقادَهم إذا فازوا بثأرهم، وظفروا برؤوس أعدائهم، وهذا الفنُّ يتصل اتصالاً واضحاً بالحماسة، فكثيراً ما كانوا يرثون أبطالهم في قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرها، وكانوا يمجدون خلالهم، ويصفون مناقبَهم التي فقدتها القبيلة فيهم، حتى تهب إلى حرب من قتلوهم.

والواقعُ أن الرثاء كان أهمَّ أغراضِ الشِّعرِ الهُذَلِيِّ، فهُذَيْلٌ كانت مشهورةً بكثرة الأيام والحروب التي خاضتها مع جيرانها من قبائل العرب، وإن النَّاظرَ في أشعارهم لَتَبْهَرُهُ كلُّ تلك الأشعارِ التي قِيلتْ في الحروب والأيام، فكأنَّها كانت لهم الشغلَ الشاغلَ، والعملَ الدائمَ، فلا ينتهون من موقعةٍ إلا ويفكِّرون في أخرى. وقد كانت كثرة الأيامِ والوقائع التي خاضتها هُذَيْلٌ سبباً في كثرة أشعارِهم، وربما كانت هي السِّرُّ في نبوغهم في فنّ الرثاء على وجه الخصوص، فقد سجَّلَ شُعراؤهم تلك الأيام، وقاموا برثاء قتلاهم،ذاكرين خلالَهم ومناقبَهم التي فقدَتْها فيهم قبيلتُهم،ثم يحرِّضون القبيلةَ على أن تأخذَ بثأرِها وتردَّ شرفَها واعتبارَها.

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب د. أحمد أحمد بدوي ص٢٢٤.

(٢) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. عبد الحميد المسلوت ص ٢٦٨.

ولقد كان المجتمع ـ الهُذَليُّ ـ كلّه يحارب ويغزو، فتعددت أيامهم، وكان الفردُ يحاربُ ويغزو فشذ الكثيرون. ووجدنا حياتهم كلَّها نضالاً، ويبذلون في سبيله دماءَهم وأرواحهم فكان عند هذه العشيرة في كلِّ يوم مفقود أو أكثر،وعند تلك العشيرة قتيل أو أكثر، ومن ثَمَّ بكوا وأظهروا الجزعَ، ورثوا مَن كان يودِّع أسبابَ الحياة.

وهكذا كانت أيامهم معْرَضاً يستثير حزنَ القلب، ويستنزفُ دمعَ العينِ، فانطلقوا يقولون الرثاء عن كآبة صادقة، وجزع عميق، وشجن لا حدَّ له.

من هنا نفهم إجادتهم هذا الفن وشيوعه عندهم، حتى ليخيل إليَّ أنه كان في المرتبة الأولى عندهم لا يعدلون به فنّاً آخر(١).

فهذا المُتَنَخِّل يرثي ابنه أُثَيْلَة، وقد قتلَه بنو سَعْد بن فَهْم(٢)، فنراه يبدأ قصيدتَه بالبكاء على ابنه،ويعجبُ من عينه التي تَذْرِفُ الدمعَ وتَبُلُّ كلَّ شيء من كثرة دموعها التي منها تتسرب وتسيل، فتبدو كالثقب الذي يكون في كُلْيَة الدلو، وإن عينه لا تفتأ الدهر كلّه تبكي عليه كأن إنْسَانَها قد اكتحل بالصَّاب، وهي شجرة إذا قطعت يخرج منها لبن إذا أصاب شيئاً أحرقه، وإذا أصابَ العينَ سُلِقَتْ وانْهملَتْ. وحُقَّ له ذلك فقد قُتلَ ابنُه في ريعان الشباب، وكان يَسُدُّ عنه كلَّ مَسَدٍّ من المكروهِ، فلما قُتلِ خَلَّى عليه طُرُقاً لم تُسَدَّ ثُلَمُها من الشّرور، لأنه كان يحميه، يقول:

ما بَالُ عَيْنِكَ تَبْكِي دَمْعُها خَضِلُ   كَما وَهَى سَرِبُ الأَخْرَاتِ مُنْبَزِلُ

لا تَفْتَأُ الدَّهْرَ مِنْ سَحٍّ بأَرْبَعَةٍ   كَأَنَّ إنْسَانَها بالصَّابِ مُكْتَحِلُ

تَبْكِي علَى رَجُلٍ لَمْ تَبْلَ جِدَّتُه   خَلَّى عليكَ فِجَاجاً بينَها سُبُلُ (٣)

ثم نراه يذكر شجاعته ومدى خسارته على القبيلة، فيعجب كيف قُتلَ ابنُه وهو الشجاع البطل، الذي لا خيلاء فيه ولا بخل، وقد بلغ من شجاعته أنَّه كان يسلك دروبَ الصعوبات،ويواجه الأخطارَ، ويقارعُ الفرسانَ والأبطالَ، ويتركُ قِرْنَهُ الذي يضرُبه بسيفه ينزفُ دماً كأنه ثَمِلٌ سكران، فيسيل دمُه على جلده وهو مُجَدَّلٌ على

---

(١) شعر الهذليين الهذليين د. أحمد كمال زكي ص ١٩٨.

(٢) الأغاني ٢٣ / ٢٦٠.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١٢٨٠ الأخرات: جمع خُرْت وهو الثُّقب، لم تبل جدتُه: لم يستمتع به لأنه مات شاباً.

obeikandl.com

الأرض كما يَنجدِلُ جِذْعُ النخلة إذا قُطِع.. وفي ذلك يقول:

فقد عَجِبْتُ وما بالدَّهْرِ من عجَبٍ أَنَّى قُتِلْتَ وأَنْتَ الحازِمُ البطَلُ
وَيْلُمِّه رجلاً تأبى به غَبَناً إذا تجَرَّدَ لا خَالٌ ولا بَخَلُ
السَّالكُ الثُّغْرَةَ اليَقْظَانَ كالئها مَشْيَ الهَلُوكِ عليْها الخَيْعَلُ الفُضُلُ
التَّارِكُ القِرْنَ مُصْفَرّاً أنامِلُهُ كأنَّهُ من عُقَارٍ قَهْوةٍ ثَمِلُ
مُجَدَّلاً يَتَسَقَّى جِلْدُهُ دَمَهُ كما يُقَطَّرُ جِذْعُ النخلة القُطُلُ (١)

وهو يبكي على ابنه الذي امتلأ شباباً وحيويَّةً، فهو ضخمُ الجسم، في مُقْتَبَلِ الشباب، كلُّه نشاطٌ وقوة، فإذا دعاه أحدُهم بعدَ نومه قال له: لبيكَ! ويجيب دعوته فهو يقطع هواه لأنه مثال الحركة والنشاط... وذلك حيث يقول:

ليسَ بِعَلٍّ كَبيرٍ لا شَبابَ به لكِن أُثَيْلَةُ صافي الوَجْهِ مُقْتَبَلُ
يُجِيبُ بعدَ الكَرَى لَبَّيْكَ داعِيَهُ مِجْذامَةٌ لِهَواهُ قُلْقُلٌ وَقِلُ (٢)

ونمضي معه في قصيدته حتى نراه يوضح أن مقتلَه يمثل خسارةً فادحةً لهم، فقد كان لأهله قوة وسلاماً وكان معيناً في وقت الحرب والشدائد وعظيم الأمور، وفي ذلك يقول:

أقولُ لما أتاني النَّاعِيانِ بهِ لا يَبْعَدِ الرُّمْحُ ذو النَّصْلَيْنِ والرَّجُلُ
رمحٌ لنا كانَ لم يُفْلَلْ تَنُوءُ به تُوفَى به الحربُ والعَزَّاءُ والجُلَلُ
رَبَّاءُ شَمَّاءُ لا يأوِي لِقُلَّتِها إلا السِّحابُ وإلا الأوْبُ والسَّبَلُ (٣)

---

(١) وَيْلُمِّه رجلاً: كلمة يتعجب بها ولا يُراد بها الدُّعاء عليه، لا خالٌ ولا بَخَل، لا مَخيلةَ فيه ولا بُخْل، الثغرة: موضع المخافة ومكان الخوف، الهَلوك: التي تهالَك، الخَيْعَل: درْعٌ يُخاطُ أحدُ شقَّيْه ويُترك الآخرُ، الفُضُل: التي ليس في دِرْعها إزار، يُقَطَّرُ: يُصرع، القطل: المقطوع.

(٢) العَلُّ: الصغير الجسم، مقتبل: مستأنف الشباب، المِجذامة: الذي يقطع هواه، القلقل: الخفيف، الوقل: الجيد التوقُّل، أي: الصعود.

(٣) ذو النصلين، أي ذو الزُّجِّ والنصل، وهذا مثل معناه لا يَبْعَدْ فلانٌ وسلاحُه، العزّاء: الشدة، الجُلَل: عظائم الأمور، رباء، يَرْبَأُ فوقَها، لِقُلَّتها: لرأسها، الأوب: رجوع النَّحْل، السَّبَل: القَطْرُ حين يسيل.

obeikandl.com

أما أبو خِراش فهو يتجلَّدُ ويصبر عندما يرثي أخاه عَمْراً وأخوته الذين قتلتهم ثُمالة وكِنانة(١)، ثم أخذَ يذكرُ أنَّهم حِسانُ الوجوه أعفاء شجعان، وأنهم غير معازل لأنهم يحملون معهم السلاح دائماً، ووصف سلاحهم ورماحهم البيض الحادة، فقال:

فَقَدْتُ بنِي لُبْنَى فلما فَقَدْتُهُمْ ... صَبَرْتُ ولم أقطعْ عليْهِم أباجِلي
حِسانُ الوُجوهِ طَيِّبٌ حُجُزاتُهُمْ ... كريمٌ نَثَاهُمْ غيرُ لُفٍّ مَعَازِلِ
رماحٌ من الخَطِّيِّ زُرْقٌ نِصَالُهَا ... حِدادٌ أعالِيها شِدَادُ الأَسافِلِ (١)

ثم أخذ يهدِّدُ قاتلَ أخيه عمرو، ويقول له: لقد قتلتَ رجلاً لا يلازم الشَّرَّ والغدرَ، ولذلك فأنتَ بقتلك إياه ستبقى أسفلَ السافلينَ مدَى الحياة، وذكر أنه إذا كان القتلة من ثُمالة وكنانة قد أَمنوُه واطمأنت نفوسهم إليه، فإنهم لا يعلمون ما يدور بداخله من الوَجْد والحُزْن على إخوته. ونرى الشاعر يعلن أنه لا صلحَ بينه وبينهم، وأن هذا القتيل كأَحْمَرِ عاد، يريد كأحمر ثَمُودَ الذي عَقَر الناقةَ، فهذا القتيل في شُؤْم ذاك، أو في شؤم كُلَيبٍ لوائلٍ، ولا عجب في ذلك فإن مُصابَ هُذَيْل بأخيه مُصَابٌ جَلَلٌ، فقد جُدِّعَتْ أُنوفُهم بهذا القتيل اللوذَعِيِّ الرزين، الذي كان يتمتع بمنزلة كبرى عند قومه، وأخيراً يختم قصيدته بالتلهف الشديد على هذا المصاب المفجعِ، فيقول:

قَتَلْتَ قَتِيلاً لا يُحَالِفُ غَدْرَةً ... ولا سُبَّةً لا زِلْتَ أَسْفَلَ سَافِلِ
وقد أَمِنُونِي واطْمَأنَّتْ نُفُوسُهُمْ ... ولم يَعْلَمُوا كلَّ الذي هو داخِلِي
فمَنْ كانَ يَرْجُو الصُّلْحَ منهُم فإنهُ ... كأَحْمَرِ عادٍ أو كُلَيْبٍ لِوَائِلِ
أُصِيبَتْ هُذَيْلٌ بابْنِ لُبْنَى وَجُدِّعَتْ ... أُنوفُهُمْ باللَّوْذَعِيِّ الحُلاحِلِ
رأيْتَ بنِي العَلاَّتِ لَمَّا تَضَافَرُوا ... يَحُوزُونَ سَهْمِي دُونَهُم بالشَّمائِلِ

---

(١) الأغاني ٢١/ ٢٤٤.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/ ١١٩٥ بنو لُبْنَى: إخوته، الأبجل: عرق في الرجل، طيِّبٌ حجزاتهم، أي: أنهم أَعِفّاء، الأَلَفُّ: الثقيل، كريمٌ نَثَاهم: النثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيِّئ، المَعازِل: الأعزل من السلاح، زرقٌ: بيضٌ، النِّصال: يريدُ الأسِنَّةَ.

obeikandi.com

فَلَهْفِي علَى عمرِو بنِ مُرَّةَ لَهْفَةً ولَهفِي عَلى مَيْتٍ بِقُوسَى المَعَاقِلِ (١)

وقد بَرَعَتْ نساؤهم في الرثاء، ولعله الفنُّ الوحيد الذي أجادَتْ فيه المرأة، ومن يقرأ الشِّعرَ الهُذَلي يعجب بشعر تلك الشَّواعر اللواتي أنشدن أشعاراً في رثاء القتلى، أو التحريض على الثأر من القاتلين. ولا شك أن المرأةَ أشدُّ من الرجلِ حزناً وأرقُّ عاطفةً، وأكثرُ جَزَعاً وأعظمُ لوعةً، وطبيعتُهنَّ أقربُ إلى الرثاء والبكاء والحزن والأسَى، ولذلك نرى شعْرَ المرأة في الرثاء يمتاز بالبكاء والعويل، وذِكْرِ الجوانبِ العامةِ من حياة القتيل، فهو الحامي والمعيل والكريم والشجاع وما إلى ذلك من فضائل المرثي، ولعل سرعةَ بكاء المرأة وعويلها وجزعها جعلَ لها مُتَنَفَّساً لذكرِ أحزانها، بخلاف الرجلِ الذي يكبت أحزانَه غالباً ويتجلَّدُ ويستغرق في المصيبة والأسى المفجع،فإذا أراد التعبيرَ انفجرَتْ همومُه وأحزانُه،وصار الشِّعْرُ متنفسَه إلى الراحة من ثِقَلِ الهموم.

هذه جنوب ترثي أخاها عَمْراً ذا الكلب وقد قتلَتْهُ فَهْمٌ(٢)، فنراها تبكي فيه الكرم والسخاءَ، وإطعامَه الناسَ في شدَّة البرد، حيث تكون الحاجةُ الماسة إلى ذلك، فهو يطعمُ في البرد القارس الذي بلغ من شدَّته أن الكلبَ لا يستطيع أن ينبحَ فيه، ولا تقدر فيه الأفاعي أن تسيرَ في ليلها،فبلغ من كرمه أن يطعمَ الناسَ في هذه الشدَّة وفي تلك المجاعة، حيث ينحرُ العشارَ من الإبل التي يعزُّ ذبحُها عند العرب،فيذبحُها ويقدِّمُها للضيفان وذوي الحاجة، ثم إنه يَعُمُّ في دعائه الناسَ لإطعامهم فلا يَنْتَقِرُ في ذلك، ولا يخصُّ أحداً دون أحدٍ، مما يدلّ على كَرَمِه وسخائه وسمو نفسه، وفي ذلك تقول:

يا ليْتَ عَمْراً وما ليْتٌ بنافعةٍ لم يَغْزُ فَهْماً ولَمْ يَهْبِطْ بوَادِيهَا
شَبَّتْ هُذَيْلٌ وفَهْمٌ بينَها إرَةً ما إنْ تَبُوخُ وما يَرْتَدُّ صاليهَا
وليلةٍ يَصْطَلِي بالفَرْثِ جَازِرُهَا يَخْتَصُّ بالنَّقَرَى المُثْرِينَ دَاعِيهَا
لا يَنْبَحُ الكلبُ فيها غَيْرَ واحِدَةٍ من العِشَاءِ ولا تَسْرِي أفاعِيهَا

---

(١) لا يحالف غدرة، أي: لا يلازم الشر والغدر، اللوذعي: الحديد اللسان والقلبُ الذكيُّ، الحُلاحِل: الركين الرزين، تضافروا : تعاونوا، بالشمائل، أي يجعلونني في الشمائل أو ينزلوني بالمنزلة الخسيسة، قُوسَى المعاقل: موضع في بلاد هُذَيْل أو بناحيتهم.

(٢) هذه الرواية المشهورة وهناك روايات أخرى في مقتله على ما سبق.

أَطْعَمْتَ فيهـا عَلى جُوعٍ وَمَسْغَبَةٍ شَحْمَ العِشـارِ إذا مـا قامَ باغِيهَـا (١)

وهناك روايةٌ أخرى في مقتله فيَرْوِى أبو عُبيدة أنه كان دائماً يغير على بني فَهْمٍ ويعتدي على ديارهم وأموالهم،فنام ليلةً في بعض غزواته، ثم مَرَّ به نَمِران فأكلاه فادَعْت فَهْمٌ أنهم هم الذين قتلوه(٢).

ولعلَّ مما يؤيد هذه الرواية قولُها في قصيدة أخرى ترثي أخاها،وتصرح بأن نَمرَيْن جَبَلِيَّيْن قد أكلاه ونراها قد "ناقشت بني فَهْمٍ بن عَدْوان في موضوع من قَتَل أخاها، وناقضت دعاواهم مُتَهَكِّمةً بها كلَّ التهكُّم، وأوحَتْ إليها بأن يقولوا غير ذلك، لأنهم ليسوا بأهلٍ لأن يقتلوه، وليسوا أنداداً لأن يَسْلُبوه فمن الخيرِ لهم أن يقولوا :إنه مات بالقضاء والقدر، وأن النَّمرَينِ هما اللذان أَوْدَيا به،وقضيا عليه، وأن ريبَ المنون وفعل الدهر هو الذي أَدَال من أخيها البطل السميذع الجريء، وأن من واجبهم أمام الحقيقة والواقع أن يعترفوا بأن النَّمرَيْنِ حينما افترساه كان هو في سُباتٍ عميق.

ثم ضربت على عود الأسى الفاجع، وعزفت على قيثار الحزن الداهم،مُقْسِمَةً بأن قاتلَيْه لو نَبَّهاهُ لنَبَّهَا منه داءً عضالاً للرجال والأبطال، ولأيقظا به أسداً هصوراً شديد الافتراس للنفوس، سريعَ الإبادة للأرواح والأموال، ولعرفا فيه بطلاً شجاعاً وفارساً صنديداً، غير نِكْسٍ ولا وَكلٍ، ولا جبان ولا رعديدة عند النزال والقتال. ومقتضى هذا كله أن يتنكبا طريقه، ويؤمنا سبيله، ويبتعدا عنه ويحفظاه للحياة، ولكنهما مع الأسى والأسف افترساه وقتلاه، فهدَّا به ركناً شديداً من الزمان، وهدما صرحاً شامخاً من البنيان، وأزالا جبلاً أشمّ في أعزِّ مكان"(٣)، فتقول:

سـأَلْتُ بَعْـمـرٍو أَخِي صَـحْـبَـهُ فَـأَفْظَعَنِي حينَ رَدُّوا السُّـؤَالاَ
فـقـالوا أُتِيحَ لـهُ نائمـاً أَغَـرُّ السـلاحِ عليـهِ أجـالاَ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٥٨٢ شَبَّت: أوقدت، الإِرَةُ: موقِدُ النار، والمراد بها الحرب، ما تبوخ: ما تسكن، وما يرتد صاليها، أي ما ينزع عنها، النقرى: أن يدعو واحداً واحداً، المثرون: أهل الثروة والغنى، لا تسري: لا تجيء ليلاً، المسغبة: الجوع، باغيها: الذي يبغي القِرَى.

(٢) الأغاني ٢٢ /٣٨٧.

(٣) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ١ /٢٢٨.

أُتِيحَ له نَمِرا أَجْبُلٍ   فَنالاَ لَعَمْرُكَ منهُ ونَالاَ
فأقسمُ يا عمرو لو نَبَّهاكَ   إذَنْ نَبَّها منكَ داءً عُضَالاَ
إذَنْ نبَّها ليْثَ عِرِّيسَةٍ   مُبِيداً مُفِيتاً نُفُوساً ومَالاَ
إذَنْ نَبَّها غيرَ رِعْدِيدَةٍ   ولا طائِشاً دَهِشاً حينَ صَالاَ
هما مَعْ تَصَرُّفِ رَيْبِ المَنُونِ   من الدهرِ رُكناً شَدِيداً أَمَالاَ
وقالوا قَتَلْنَاهُ في غارةٍ   بآيَةِ أَنْ قد وَرِثْنَا النِّبَالاَ (١)

ولكنا نرى جنوب أختَ عَمرو ذي الكلب في قصيدة أخرى تبدؤها بأن تعزِّي نفسها بأخيها، فتقول:

كُلُّ امْرِئٍ بِطُوَالِ العَيْشِ مَكْذُوبُ   وكُلُّ مَنْ غَالَبَ الأَيامَ مَغْلوبُ
وكُلُّ مَن حَجَّ بيتَ اللهِ مِنْ رَجُلٍ   مُودٍ فَمُدْرِكُهُ الشُّبَّانُ والشِّيبُ
وكلُّ حيٍّ وإِنْ طَالَتْ سَلاَمَتُهُمْ   يَوْماً طَرِيقُهُمُ في الشَّرِّ دُعْبُوبُ (٢)

ثم نراها تذكر شجاعته وإقدامه،وفروسيته في الطعانِ والنِّزالِ، وأنه قد بلغ من ذلك أن النُّسورَ تكون فرحةً آمنةً لأنها ستأكل من قتلاه،وبلغ منه أيضاً أنه كان يسبي بعض النساء الجميلات اللواتي يَنْفَحْنَ بالطيب ثم تذكر لقومها أنهم لن يَرَوْا مثله في شجاعته وإقدامه، وذلك حيث تقول:

أَبْلغْ هُذَيْلاً وأَبَلِغ من يُبَلِّغُهَا   عنِّي حديثاً وبعضُ القَوْلِ تَكْذِيبُ
بأَنَّ ذا الكلبِ عَمْراً خيرَهُم حَسَباً   بِبَطْنِ شَرْيَانَ يَعْوِي عندَهُ الذِّيبُ
الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاَءَ يَتْبَعُهَا   مُثْعَنْجِرٌ مِن دماءِ الجَوْفِ أُثْعُوبُ
تَمشّي النُّسُورِ إليه وَهْيَ لاهِيَةٌ   مَشْيَ العَذَارَى عليهِنَّ الجَلاَبِيبُ

---

(١) المرجع السابق ١ / ٢١٠ وكتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٥٨٣، صحب: جمع صاحب، أتيح: هيئ، أغر السلاح: أبيضه، ويروى "أعزُّ السباع" تعني النمَّرين، العريسة: مأوى الأسد، مبيد: مهلك للنفوس والمال، ومفيت كذلك، الرعديدة: الجبان، الطائش: من الطيش وهو النزق والخفة، الآية: العلامة والبرهان والدليل، النبال: جمع نبلة وهي السهم.
(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٥٧٨ طريق دعبوب: مذلل يسلكه الناس.

obeikandi.com

المُخرِجُ الكاعِبَ الحسناءَ مُذْعَنَةً   في السَّبْي يَنْفَحُ من أَردَانِها الطِّيبُ
فَلَنْ تَرَوْا مِثْلَ عَمْرٍو ما خَطَتْ قَدَمٌ   ومَا اسْتَحَنَّتْ إلى أَوْطَانِها النِّيبُ [١]

ثم تطالب الشاعرةُ هُذَيْلاً أن يكيلوا لقبيلة فَهْم صاعاً بصاع حتى يرفعوا عنهم ذلك الذل، ويأخذوا بثأرهم لأخيها عَمرو، ويردوا بذلك شرفهم ومكانَتهَم، فتقول:

فاجْزُوا تأبَّطَ شَرّاً لا أَبَا لَكُمُ   صاعاً بصاعٍ فإن الذُّلَّ مَعْتُوبُ [٢]

ومعلوم أن تأبط شَرّاً من قبيلة فَهْم،ولعلّ من الواضح أنها تصرح في هذه الأبيات بأن فَهْماً هم الذين قتلوه، وهي تطلب بأخذِ ثأره.

وإني ـ بدوري ـ أرجح أن تكون فَهْمٌ هي التي قتلتْه،وذلك لكثرةِ الغارات التي تبودلت بين القبيلتَيْن، ولكثرة الأيام والوقائع التي كانت بينهما، وقد ذكر صاحبُ الأغاني[٣] ـ روايةً عن السُّكَّريِّ ـ قصةَ مقتله على أيدي فَهْمٍ، وهي قصة طويلة.

وشُعراء هُذَيْلٍ يمتازون بالقدرة الفائقة على فَنِّ الرثاء، ولكنني لم أجدْ شاعراً منهم يفوق أبا ذؤيبٍ في هذا الفنِّ، ولم يبلغ فيه أحدُهم مبلَغَه في الإجادة والإحسان، والقدماء والمُحْدَثون يقدِّمونه ويرفعون قَدْرَه بعينيته المشهورة التي قالها في رثاء بنيه، والحقّ أنها قد تقدَّمَتْ كلَّ شِعْرِه في هذا الفنِّ. ولكن يوجد لأبي ذؤيبٍ روائعُ رثائية أخرى لا تقل عنها أهميةً، وقد اشتهر برثاء ابن عَمٍّ له يُدعَى نُشَيْبَة، وقال فيه كثيراً من أشعار الرثاء، ويبدو من خلال شعره الدائم فيه وبكائه المستمر عليه أنه كان مقرباً له، ويبدو كذلك أن نُشَيْبَة كان شهماً سيداً كريماً، وأنه ليقول فيه:

لَعَمْرُكَ إنّي يومَ أَنْظُرُ صاحِبِي   علَى أنْ أَراهُ قَافِلاً لَشَحِيحُ
وإنَّ دُمُوعِي إثْرَهُ لَكَثِيرةٌ   لَو أَنَّ الدموعَ والزَّفِيرَ يُرِيحُ
فَوَ اللهِ لا أَلْقَى ابنَ عَمٍّ كأَنَّهُ   نُشَيْبَةُ ما دام الحَمامُ يَنُوحُ
وإنَّ غُلاماً نِيلَ في عَهْدِ كاهِلٍ   لَطِرْفٌ كَنَصْلِ المَشْرَفيِّ صَرِيحُ

---

(١) نجلاء: واسعة، مثعنجر: سائل ينصب، أثعوب: ينثعب، لاهية: آمنة لا يذعرها شيء، مذعنة: مطيعة، الكاعب: التي قد كعب ثدياها.
(٢) ديوان الهذليين ٣/١٢٦.
(٣) الأغاني ٢٢/٣٨٨.

سأَبْعَثُ نَوْحاً بالرَّجِيعِ حَوَاسِراً وهلْ أَنَا مِمَّا مَسَّهُنَّ ضَرِيحُ (١)

ويرثيه في قصيدة أخرى يبدؤها بالغزل(٢) ومطلعها:

هلِ الدَّهْرُ إلا لَيْلَةٌ ونَهارُها وإلا طُلُوعُ الشمسِ ثُمَّ غِيَارُهَا

أَبَى القلبُ إلا أُمَّ عَمْرٍو وأَصْبَحَتْ تُحَرَّقُ نَارِي بالشَّكَاةِ ونَارُهَا (٣)

ثم نراه يرثيه في البيت الحادي والثلاثين من القصيدة، ويذكر أنه يصبر نفسه على نُشَيْبَة، ولكنه يهيج إذا ذكره،ويذكر أنه كان طويلاً ضخماً، بطلاً في الحرب والقتال فقد كان نُشَيْبَةُ ضَرُوباً لهامات الرجال بسيفه، وفارساً معدوداً في لقاء الأعداء، وذلك حيث يقول:

فَإِنِّي صَبَرتُ النَّفْسَ بعدَ ابْنِ عَنْبَسٍ نُشَيْبَةَ والهَلْكَى يَهِيجُ ادِّكَارُها

وذلكَ مَشبوحُ الذِّراعَيْنِ خَلْجَمٌ خَشُوفٌ إذا ما الحَرْبُ طالَ مِرارُها

إذا ما الخَلاجيمُ العَلاجِيمُ نَكَّلُوا وطالَ عليْهِمْ ضَرْسُهَا وسُعَارُهَا

ضَرُوبٌ لِهَامَاتِ الرِّجَالِ بِسَيْفِهِ إذا أُعْجِمَتْ وَسْطَ الشُّؤُونِ شِفارُها

بِضَرْبٍ يَفُضُّ البَيْضَ شِدَّةُ وَقْعِهِ وَطَعْنٍ كَرَكْضِ الخَيْلِ تُفْلَى مِهَارُهَا

وطَعْنَةِ خَلْسٍ قد طَعَنْتَ مُرِشَّةٍ كَعِطِّ الرِّدَاءِ لا يُشَكُّ طُوَارُها (٤)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ /١٤٨ قافلاً: راجعاً، شحيح، ضنين، أنظر: انتظر، إثره، بعده، نبيل: يعني المرثي، أي: قتل، كاهل: حي من هُذَيْل: كنصل المشرفي، أي: مضائه، الطرف: الكريم، الصريح: الخالص، والنَّوْحُ: كالأنواحِ والنُّوَّحِ والنوائح والنائحات: النساء اللاتي ينحن على الميت. والضريح: البعيد.

(٢) سنتكلم في الفصل القادم عن ظاهرة اجتماع الغزل مع الرثاء في أشعارهم.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٧٠.

(٤) صبرت: حبست، مشبوح: عريض الذراعين، الخلجم: الطويل، خَشوف: سريع المر، مرارها: مداورتها ومعالجتها، الخلاجيم: الشجعاء، العلاجيم: الطوال، نكلوا: جعلوا ينكلون، الشفار: جمع شفرة وهو حدّ السيف، أُعْجِمت: أُعضَّتْ، الهامة: معظم الرأس ووسطه، الشؤون: الشعوب التي بين قبائل الرأس، يَفُضُّ: يكسر، تُفْلَى مهارها: تفصل عنها، خَلس: اختلاس، المرشة: التي ترش الدم وتخرجه، كعطّ: كشق، لا يُشَكُّ: لا يخاط، طوارها: ناحيتها.

ونراه في مقطوعةٍ أخرى يُعزِّي نفسه فيه، ويتصبر على تلك المصيبة، فيذكر أنه لو استودعه في الشمس لأتتْهُ المنايا، ويذكر أن المصائبَ ركبتْهُ وعَجَّمَتْهُ كما عَجَمَت الإبلُ العظامَ، والإبلُ إذا أَسَنَّتْ أُولِعَتْ بالعظامِ البالية تَمْضَغُها تَتَمَلَّحُ بها، وتتخذها كالحَمْض، ويذكر أن المصيبة أصابته حين تم رواء نُشَيْبَة وبلغ مبلغ الشباب، وكان الشاعر قد ضعف عن المشي لكبرِ سِنِّهِ حتى إنه ليظنّ سهولَ الأرض وعوراً وحزوناً يصعب سلوكها، وذلك حيث يقول:

يقولون لِي لو كان بالرَّمْلِ لم يَمُتْ ... نُشَيْبَةُ والطُّرَّاقُ يَكْذِبُ قِيلُهَا
ولو أَنَّني اسْتَوْدَعْتُهُ الشمسَ لارْتَقَتْ ... إليه المَنَايَا عينُها ورَسولُهَا
وكنتُ كَعظْمِ العاجِمات اكْتَنَفْنَهُ ... بأطْرافِهِ حتى اسْتَدَقَّ نُحولُهَا
على حينِ ساواهُ الشَّبابُ وقارَبَتْ ... خُطَايَ وخِلْتُ الأرضَ وَعْثاً سُهولُهَا
حَدَرْناهُ بالأَثوابِ في قَعْرِ هُوَّةٍ ... شَديدٍ على ما ضُمَّ في اللّحْدِ جُولُهَا (١)

على أنَّ شُعراء هُذَيْلٍ لم يؤبنوا أبطالَهم من القتلى فحسب، ولكنهم فسحوا في مراثيهم لتأبينِ أشرافهم من أقربائهم، كآبائهم وإخوتهم وأبنائهم، وإنْ ماتوا حتفَ أنوفهم، فخراً بهم، واعتزازاً بمناقبهم وأعمالهم ومآثرهم. فهذا المُتَنَخِّل يرثي أباه عُوَيمْراً - ويقال إن اسمه عمرو بن عثمان - ويكني أبا مالك فهلك(٢)، فرثاه المتنخِّل مشيداً بأخلاقه الحميدة، كالحِلْم والكرم والنخوة والشهامة، ذاكراً أن أباه لمْ يكن واهناً في قوته، ولا شديداً في خصومته، ولم يُعرَفْ عنه طبيعةُ سوء، أو خلقٌ سيِّئ، وإذا .. كان له صديق لا يُغاريه ولا يُشارُّه، ولكنه يتمسك به ويتعلق، فهو هين لين حليم لا خيلاء عنده، فإذا سُدْتَه، أي كنتَ فوقَه أطاعَكَ ولم يَحسُدْكَ، ومهما وكلتَ إليه من أمر كفاه، ثم إنه يمتاز بالقناعة فلا يظهر عليه الفقر، بل يشيع غناه على الناس، استمع إليه حيث يقول:

---

(١) ديوان الهذليين ١/٣٣ الطُّرّاق: الذين يضربون بالحصى ويتكهنون، عينها: يقينها، العاجمات: يريد الماضغات من الإبل، واكتنفنه: أخذن بنواحي العظم يمضغنه، حتى استدق نحولها، أي: دَقَّت دقتُها، وعثاً: الوعث من الطرق ما عَسُر السلوكُ فيه وشق، هوّة: قبر.

(٢) الأغاني ٢٣/٢٦٤.

لَعَمْرُكَ ما إنْ أَبو مَالكٍ ... بِوَانٍ ولا بضعيفٍ قُواهْ
ولا بِأَلَدَّ له نَازِعٌ ... يُغَارِي أَخَاهُ إذا ما نَهَاهْ
ولكنَّهُ هَيِّنٌ لَيِّنٌ ... كَعَالِيَةِ الرُّمْحِ عَرْدٌ نَسَاه
إذا سُدْتَهُ سُدْتَ مِطْوَاعَةً ... ومَهْمَا وَكَلْتَ إليه كَفَاهْ
ألا مَنْ يُنَادِي أَبا مالِكٍ ... أَفِي أَمْرِنَا أَمْرُهُ أَمْ سِوَاهْ
أبو مالكٍ قاصِرٌ فَقْرَهُ ... على نفسِهِ وَمُشِيعٌ غِنَاهْ (١)

فنلاحظ أنّ الشاعرَ يتحسَّر على أبيه الذي جمع من الفضائل والمُثُلِ العليا كالشجاعةِ والمروءة والنجدة والحِلْم والسَّماحةِ وما إلى ذلك من خصالِ الخيرِ.

وقد نجدُهم يَدْعُونَ للميت بالسُّقْيا، ويستنزلون له الغيثَ من السماء، حتى تصبحَ قبورُهم رياضاً عطرةً، فهذا قيس ابن عَيْزارة، وهي أمه، يرثي أخاه ـ لأبيه وأمه ـ الحارثَ بن خُوَيْلدٍ، وكان قد أصابه حَبَنٌ ـ وهو استسقاء البطن ـ بمكة فمات على أثرِ ذلك، ونرى الشاعرَ يبدأ قصيدتَه بالتحسُّر والبكاء على أخيه بقوله:

يا حَارِ إنّي يا ابْنَ أُمِّ عَمِيدُ ... كَمِدٌ كأنّي في الفؤاد لَهِيدُ (٢)

ونمضي حتى نراه يدعو له بالسُّقْيَا، وبإنزال المطر على قبره، ونرى الشاعر لم يكتفِ بدعاء السُّقْيا لقبرِ أخيه وحدَه، ولكنه يعمّ في ذلك بطن مكة كلها، فيقول:

فَسَقَى الغَوادِي بَطْنَ مَكَّةَ كُلَّهَا ... وَرَسَتْ بِه كُلَّ النَّهَارِ تَجُودُ
تَرْوِي الكِرامَ بِه وتَرْوِي صَاحِبي ... وأَخِي جَدِيرٌ بالكِرامِ سَعِيدُ (٣)

وهذه عادةٌ عربيةٌ ظلت متوارثة في بيئاتنا حتى اليوم(٤)، وهي الدعوةُ بأن يبلل

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١٢٧٦ ألدّ: شديد الخصومة، يغاريه: يماريه ويَعْلَق به، عَرْدٌ: نساه: يريد شديد ساقه.

(٢) المرجع السابق ٢ / ٥٩٧ العميد: المُوجَعُ المُثْبَتُ، لَهيد: معقور الظهر من الحمل حتى وصل إلى فؤاده.

(٣) الغوادي: السحاب تمطر غدوة، رست: ثبتت به، تجود: من الجود وهو مطر شديد.

(٤) من محاضرات المرحوم الدكتور محمد سرحان للدراسات العليا سنة ١٩٧١م.

obeikandi.com

الله جَدَثَ الميت ويرطبه، وكأن ذلك كناية عن الدعوة له بحلول الرحمة عليه، وأن يكون قبرُه روضةً من رياض الجنَّة لا مثوى من بؤر الجحيم.

أما أبو ذؤيب فقد بلغَ في قصيدته العينية قمةَ الجودة والروعة في فنِّ الرثاء، وقد قالها في رثاء أولاده الخمسة الذين أصيبوا بالطاعون وهلكوا في عام واحد[1]، فرثاهم فيها. وفي رواية أخرى أن أبناءه كانوا سبعة وقد شربوا من لبن شربت منه حية ثم ماتت فيه،فهلكوا في يوم واحد[2].

"وهي قصيدة يعتبرُها أكثرُ أهلِ الأدب أروعَ وألمعَ ، وأبدعَ وأبرعَ،وأسطعَ وأنصعَ شِعْرٍ قيل في الرثاء، وهي في تسكابها المُنْهَلّ، وتهطالها المنفعل، تُعَدُّ نسيج وحدِها، وابنه وجدها، وفريدة عصرها، ووحيدة دهرها إلى حدٍّ جدٍّ بعيد[3].

وهو يبدأ عينيتَه بالبكاء على أولاده والتحسُّرِ عليهم، حتى آخر البيت الخامس عشر منها،ومع ذلك تراه يتجلَّدُ ويَتَصَبَّر، ويذكر أنه يجبُ على الإنسان أن يصبر لأحداث الزمان، لأن الدهرَ لن يتراجع عما قَدَّم من إساءات، فمن العبث الاستسلامُ للأحزانِ والأشجان، ولقد لاحَظَتْ امرأتُه أميمةُ ذبولَ جسمه، وضمورَ هيكله، فأخذت تلومه في شفق، وتطالبهُ أن يسلُوَ الهمومَ، ويتناسى الغمومَ،ثم أخذت تسائله: لماذا يحالفُكَ السُّهادُ، ويجانفُكَ الرُّقادُ، وتُقَضُّ عليك المضاجعُ وتشوكك المهاجعُ؟ فأجابها أن أولادَه، هلكوا وراحوا كما راح الصباحُ المُشرِقُ، فذهبوا إلى غير رجعةٍ، فقد أودى أولاده وبادوا وتركوه في حسرةٍ دائمةٍ، وأحزان سائمة، وعيون متفجرة، ودموع منهمرة، لا تبيد ولا تزول.

ثم يذكر أن أمنيتَه كانت أن يموتَ ويحيا أولادُه من بعده، حتى يَرِثوا مجدَهُ، ولكنهم عصوه وقدموا رغبتَهم على رغبته،فاستأصلَ الدهرُ شَأفَتهم، وقضى الزمنُ على حياتهم،فهلكوا ولكلٍّ جنبٍ مَصْرَعُ، فاستراحوا من العناءِ، وبقي وحدَه للشقاء. غير أنه مما يسلي الشاعر أنه لاحقٌ بهم، وقد التزَم في حرصٍ أن يدافعَ المنايا عنهم، ولكن المنايا إذا نزلت بساحة قومٍ فإن دفعَها لا يُجدِي، ومصادمَتها لا

---

(١) الأغاني ٦ / ٢٥١ وكتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٣.

(٢) ديوان الهذليين ١ / ١.

(٣) انظر قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ٢ / ١٢١.

تفيدُ، فإذا وجَّهَتِ المنيةُ سهامَها لإنسانٍ، حتى وإن تعَّوذَ دونها بالتمائم، فإن ذلك أبداً لا يفيد.

ويذكر أنه من شدَّة بكائه ذهبَ النورُ من عينيه وأصبحتْ كالعوراء، وكأنّها سُملَتْ بشوكٍ من غزارة دمعاته وانسيالِ عبراته، فقد تناوشته المصائبُ، وتتابعت عليه النكَباتُ، حتى أصبح شبيهاً بالصخرة المَلساء التي تُرْمَى بالحجارة وقد تناثرت أجزاؤها هنا وهناك، ولا عجبَ في ذلك فقد حَطَّمَ الحزنُ كيانَه، وهَدَّ المصابُ بُنيانَه، ولكنه يتصبَّر ويتجلَّد ويتثبَّت أمامَ الناس، حتى لا يشمتَ فيه الأعداء أو يظنّ به خصومُه الضعفَ والخورَ والهمودَ، فهذا شأن النفسِ لأنها إذا وجدت ما يمهد لها الأعتاب، ويفتح أمامها الأبواب، فإنها ستنساق في تيار الفساد، وتندفع إلى أعمقِ الوهاد، وإن رأت أمامها الأسوار وقفت حيث يراد لها الوقوف، وعاشت بالقليلِ الزهيد في عيش رغيد سعيد.

ثم نراه يتصبَّر ويسلي نفسه فيذكر أنه إذا كان قد رُزِئ في أولاده فقد عَوَّدَهُ الزمان الفجيعةَ دائماً في أحبّائه وأصدقائه، فما يحدث اليوم حدَثَ كلَّ يوم، فأحوال الدنيا عجيبةٌ لا تَبقَى على حالٍ واحدٍ، ولا تستمر على منوالٍ مفردٍ، فكم من جماعات وكيانات تفرقت وتمزقت، وكم من أناس نعموا بحياة طيبة، ثم عضَّهم الدهرُ بنابه وخصَّهُم بمصابه، فتفرقوا إلى غيرِ مستقر، فانْخَضَدَت شوكَتُهم، وانفجرت جماعتُهم، حتى ذرتهم الرياحُ في جواء صحراء الحياة(١)، وفي ذلك يقول:

أَمِنَ المَنونُ ورَيْبِها تَتَوَّجَعُ؟ ... والدَّهْرُ ليس بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

قالتْ أُميمةُ ما لجسمك شاحباً ... مُنْذُ ابتُذِلْتَ ومثْلُ مالكَ يَنْفَعُ

أمْ ما لجَنبكَ لا يُلائمُ مَضْجَعاً ... إلا أَقَضَّ عليكَ ذاكَ المَضْجَعُ

فأَجَبْتُها: أمَّا لجسمي أَنَّهُ ... أوْدَى بَنِيَّ من البلادِ فوَدَّعُوا

أوْدَى بَنِيَّ وأَعْقَبُوني غُصَّةً ... بعدَ الرُّقادِ وعَبْرَةً لا تُقْلِعُ

سبَقُوا هَوَيَّ وأَعْنَقُوا لِهَواهُمُ ... فَتُخُرِّمُوا ولكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

فَغَبَرْتُ بعدَهُمْ بِعَيْشٍ ناصِبٍ ... وأَخالُ أَنِّي لاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ

---

(١) انظر قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ٢/١٢٧-١٤١.

obeikandl.com

ولَقَدْ حَرِصْتُ بأَنْ أُدافِعَ عنْهُمُ ... فإذا المَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لا تُدْفَعُ

وإذا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفارَها ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

فالعينُ بعدَهُمُ كأَنَّ حداقَها ... سُمِلَتْ بشَوْكٍ فَهْيَ عُورٌ تَدْمَعُ

حتى كأنِّي للحَوادِثِ مَرْوَةٌ ... بِصَفَا المُشَرَّقِ وكُلَّ يومٍ تُقْرَعُ

وتَجَلُّدي للشَّامِتينَ أَرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ

والنَّفسُ راغِبَةٌ إذا رَغَّبْتَها ... وإذا تُرَدّ إلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

ولَئِنْ بِهِمْ فَجَعَ الزَّمانُ وَرَيْبُهُ ... إنِّي بأَهْلِ مَوَدَّتِي لَمُفَجَّعُ

كم مِنْ جميعِ الشَّمْلِ مُلتئمِ القُوَى ... كانوا بِعَيْشٍ ناعمٍ فَتَصَدَّعُوا (١)

وهكذا نرى كيف نثرَ الشاعرُ أحزانَه، ونشرَ أشجانَه، وأفاض في الحديث عن فلسفة الموت، وعزف عديداً من أناشيد الفَوت، وأبرزَ قوةَ الفناء وجبروته، وعجز الزمن عن مقاومته، وضعف أقوى الأقوياء عن الوقوف في سبيله،أوصدِّه في أي مجال"(٢).

على أن هناك ظاهرةً تَلفتُ النظرَ في فنِّ الرثاء عند شعراء هُذَيْلٍ، وهي أنهم اتخذوا في الرثاء مذهباً قصصياً، يقوم على حيوان الصحراء الشاردِ في أرجائها،

---

(١) المرجع السابق ٢ / ٩٥-٩٧ والمنون: المنية أو الدهر، ريبها: ما تخلفه من المصائب والفواجع والدهر هنا: الموت، معتب: مراجع له بما يحب، الشحوب: التغير من هزال أو جوع ونحوه والمراد هنا ذبول لحمه، أَقَضّ، أي: صار ذا قضض وهي حجارة صغار تكون تحت جنب النائم على الحصباء والمراد أقلق، أودى: هلك ، أعقبوني: أورثوني، الغصة: الشجا في الحلق، الرقاد: النوم، العبرة: الدمعة قبل أن تفيض، تقلع: تذهب وتزول، أعنقوا: ساروا العنق وهو سير سريع، تخرموا: استؤصلوا وأبيدوا، غبرت: بقيت، ناصب: ذو نصب وهو التعب، مستتبع: مستحلق، حرصت: المراد عزماً أكيداً، أنشبت: أدخلت وغرزت، التميمة: العوذة والمعاذاة والرقية، الحداق: جوانب العين المختلفة، سملت: فقئت، الحوادث: المصائب والبلايا، المروة: واحدة المرو وهو حجارة بيض براقة تقدح منها النار، والصفا: جمع صفاة وهي الصخرة الملساء، تقرع: تُرْمَى وتضرب، التجلد: اصطناع الجلد وهو الشدة والقوة ، أتضعضع: أذل وأتهدم، مفجع: مصاب بالفجائع، تصدعوا: تفرقوا.

(٢) المرجع نفسه ٢ / ١٢٤.

الممتنع فوق جبالها العالية،يضربون به المثل على أن الموتَ يدركُ كلَّ كائنٍ حَيٍّ مهما يكن بعدُهُ عن مواطنِ الخطرِ والهلاك.

والصورة القصصية عندهم دائماً حيوان آمن في سَرَبَةٍ أو قطيعه أو في مَعْقله، ثم يتيح له القدرُ صائداً ، تارةً يكون إنساناً، وتارةً يكون كلاباً، وتارة يكون جارحاً من جوارح الطير، فيتربص به حتى إذا أمكنتهُ الفرصةُ انقضَّ عليه فأورده مواردَ الهلاك.

والحقّ أنّ هذه الظاهرة تَلفتُ النظرَ وتثيرُ الانتباه، وربما كانوا يسلّون أنفسهم بهذه الصورِ الحزينة التي تمثل نوائبَ الدهرِ وبلاياه.

فهذا ساعدة بن جُؤَيَّه يرثي ابنَه أبا سفيان،فيبدأ قصيدتَه بوصفِ ما في نفسِه من الهموم، وما في صدرِه من الحزن، فيقول:

ألا باتَ مَنْ حَولِي نِيـاماً وَرُقَّـداً وَعـاوَدَنِي حُـزْنِي الذي يَتَجَـدَّدُ

وعـاوَدَنِي دِينِي فَـبِتُّ كـأَنَّمَـا خِـلالَ ضُلُوعِ الصَّدْرِ شِرْعٌ مُمَدَّدُ (١)

ونمضي معه في قصيدته حيث يصور حُزْنَه عليه،وكيف أن ليلَه طويلٌ لا ينتهي، حتى نراه يستأنسِ بالوعلِ الذي اتخذته الأيامُ محَكّاً للبلاء ، وذلك ليخفف عن نفسه غوائل الدهر ونكبة الأيام.

فيقص علينا قصةَ وعلٍ متوحشٍ بأطراف البلد، وكيف أنَّ ذلك الوعلَ كان يخشى الموتَ حتى لترتعد فرائصُه من خشيته،ويتحول لونُه ويقشعرُّ بدنُه،فيُخرج باطِنَ شَعْرَته،كأنه في مهب الريح الباردة، ثم يسكن فيعود لونُه الأول، ولا عجب فإن سببَ ذلك سهامُ الرماةِ التي آذت فؤادَه، وأخافتْهُ على مَرِّ الأيام، ثم يصوِّر كيفَ أنَّه رأى صائداً بكفه الحديد، وهو مستعدٌّ لصيده، فرماه بسهم دخل فيه ونفذَ منه، إلا أن الوعِلَ أسكره الألمُ وظنَّ أنه لم يُصَبْ بشيء، وهذه هي الحياة دائماً، استمع إليه يقول:

أَرَى الدَّهْرَ لا يَبْقَى على حَدَثَانِهِ أَبودٌ بأَطْرافِ المَنَاعَـةِ جَلْعَـدُ

تَحَـوَّلَ لَوْناً بعـدَ لونٍ كـأَنَّهُ بِشَفَّانِ ريحٍ مُقْلِعِ الوَبْلِ يَصْرَدُ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/ ١١٦٥ ديني، أي حالي التي كانت تعتادني، شرع ممدد، أي: كأن في صدري دوِيَّ عُودٍ لأوتاره رنة أحدث به نفسي عن همومي، والشرع: الوَتَر.

obeikandl.com

تَحُولُ قُشَعْرِيراتُه دُونَ لَوْنِه ... فَرائصُهُ من خِيفَةِ الموتِ تُرْعَدُ

وشَفَّتْ مَقَاطِيعُ الرُّمَاةِ فُؤَادَهُ ... إذا يَسْمَعُ الصَّوتَ المُغَرِّدَ يَصْلَدُ

رأى شَخْصَ مَسْعُودِ بن سَعْدٍ بِكَفِّه ... حَدِيدٌ حَدِيثٌ بالوَقِيعَةِ مُعْتَدُ

فَجَالَ وخَالَ أنَّهُ لم يَقَعْ بِهِ ... وقد خَلَّهُ سَهْمٌ صَوِيبٌ مُعَرَّدُ (١)

أما صخر الغَيّ فهو يرثي أخاه أبا عمرو حين نهشته حيةٌ فمات على أثر ذلك، فيقول في قصيدة مطلعها:

لَعَمْرُ أَبي عَمرٍو لقد ساقَه المَنَا ... إلى جَدَثٍ يُوزَى لَه بالأهاضِبِ (٢)

ونمضي معه حتى نراه يقفُ على مأساةٍ من مآسي الحياة،فيقصُّ علينا قصةَ وعلٍ مُسنٍّ كانَ ينعمُ بالحياة فيقول:

فَعَيْنَيَّ لا يَبْقَى على الدَّهْرِ فَادِرٌ ... بِتَيْهُورَةٍ تحت الطِّخَافِ العَصائِبِ (٣)

ويظل معه يتتبعه حتى يرميه الصائدُ بسهمٍ فيقتله، كما يقول:

أَطَافَ به حتى رَماهُ وقد دَنَا ... بِأَسْمَرَ مَفْتُوقٍ من النَّبْلِ صَائِبِ (٤)

والمهمُّ في ذلك أنَّ الشَّاعرَ كان يسلِّي نفَسه ويتأسَّى بهذه المصائب التي يقصُّها عن الحيوان ويتمثل بها في رثاء أخيه.

وكذلك فعل قَيْسُ ابن عَيْزَارة -وهي أُمُّه- وهو يرثي أخاه الحارث بن خويلد في قصيدته التي يبدؤها بوصف أحزانه وأشجانه، يقول:

يا حَارِ إنِّي يا ابْنَ أُمِّ عَمِيدُ ... كَمِدٌ كأَنِّي في الفُؤَادِ لَهِيدُ (٥)

---

(١) المرجع السابق ٣ / ١١٧٠ الأبود: الأبد وهو المتوحش، الجلعد: الغليظ، المناعة: بلد، الشَّفان: الريح الباردة، الصَّرْد: أشد البرد، شَفَّت: آذت، المقاطيع: السهام، التغريد: رفع الصوت والتطريب، يصلد: يضرب بيده الصخرة فتسمع لها صوتاً، الحديد: الحاد، الوقيعة: المطرقة، المعتد: المهيأ، خله: أنفذه صاحبه كأنه خلالٌ، صَوِيب: صائب، معرد: بعيد الموقع.

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ٥١ المَنا: القَدَرُ، الأهاضب: رؤوس الجبال.

(٣) الفادر: المسن من الأوعال، التيهورة: الهَوِيّ من الجبل والرمل، الطخاف: مارق من السحاب.

(٤) المفتوق: العريض النصل، صائب: قاصد.

(٥) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٥٩٧ العميد: الموجع المثبت، لهيد: معقور الظهر من الحمل حتى وصل إلى فؤاده.

ونمضي معه حتى نراه يُسَلّي نفسَه بمصائب الحيوان،فيقص علينا قصةَ بقرةٍ وحشيةٍ كانت هادئةَ البالِ، وفي دَعَةٍ وخِصْبٍ من الحياة... حيث يقول:

والدَّهْرُ لا يبَقْىَ على حَدَثَانِه ... بَقَرٌ بِناصِفَةِ الجِواءِ رُكُودُ

وظلّ معها يصفُ حياتَها الهنيئةَ، حتى قُدِّرَ لها صائدٌ حاذقٌ بأمور الصيد، وهو صاحب نَبْلٍ وكلاب،يُغري كلابَه الضواري خلفَها ليصيدَها،ثم إنَّ هذا الصائدَ يفوز بصيده في كل مُعْتَرَكٍ،ويغادرُ خلفَه كلبةً زرقاءَ، دامية اليدين، وقد غُشِيَ عليها من الطعنِ،وقد أصابها هذا الصائد في يوم أرادَ الله بها الهلاكَ،بعد أن كانت تتمتع بالسلامة وذلك حيث يقول:

حتى أُشِبَّ لها أُغَيْبِرُ نَابِلٌ ... يُغْرِي ضَوارِي خَلْفَهَا ويَصِيدُ
في كُلِّ مُعْتَرَكٍ يُغَادِرُ خَلْفَهُ ... زرقاءَ دامِيَةَ اليَدَيْنِ تَمِيدُ
يوماً أرادَ بها المَلِيكُ نَفَادَها ... ونَفَادَهَا بعدَ السلامِ يُرِيدُ (١)

على أن أبا ذؤيب قد بلغَ قمَةَ الإجادة في قصص الحيوان، فهو في عينيته التي رثى بها بنيه يقص علينا ثلاث مآسٍ مفزعَة، كلٌّ واحدة مستقلَّة عن الأخرى، وإنْ كانت تدور حول فكرة واحدة هي ريب الدهر، وتراه يقفُ وجهاً لوجهٍ أمامَ الدّهر، ويقرُّ بعجزه أمامَه، ففي البيت السادس عشر منها يقول:

والدَّهْرُ لا يَبْقَى على حَدَثَانِهِ ... جَوْنُ السَّراةِ له جَدائِدُ أَرْبَعُ (٢)

فيقص علينا حالةَ حمارٍ وحشيٍّ، ويصفُ حياتَه مع أُتُنِه،وتجولَه في حرِّيةٍ بها في كلِّ مكانٍ، ثم انتهاءَ أمرِه وختامَ حياته بالهلاك والفناء.

وهو يُسَلِّي نفسَه ويستشهد بنوائب الدهر في ذلك(٣).

ثم نراه في البيت رقم ٣٧ من عينيته يقول:

والدَّهْرُ لا يَبْقَى على حَدَثَانِهِ ... شَبَبٌ أَفَزَّتْهُ الكِلابُ مُرَوَّعُ

---

(١) أغيبر: صائد أغبر، أُشب: قُدِّرَ، ضوارٍ: كلاب، نابل: حاذق، معترك: موضع قتال، زرقاء: كلبة، نفادها: موتها وذهابها.

(٢) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلاوم سرحان ٢ / ١٤٢.

(٣) سبقت الأبيات وشرحها في هذا الفصل –وصف الحيوان–.

obeikandl.com

يقصّ علينا قصةَ "ثورٍ وحشيٍّ، وتنقلَه في الآفاق، وتَعَوُّدَه حريةَ الانطلاق، وتمتعَه بكلِّ ما حوله، ثم يتكلم عن الصائد وكلاب الصيد، ثم يختم الحديثَ عن الثور بآخر حَدَثٍ في حياته، حينما كَرِعَ من حياضِ الموت، ونَهَلَ من وردِ الفناء، على أيدي الصائد والكلاب[1]، وهو بذلك يسلي نفسه على نوائب الدهر.

وأبو ذُؤيبٌ لا يكتفي بقصص الحيوان في هذا الميدان، ولكنه يمثل بمصرع الفارس البطل في ميدان القتال، فنراه في البيت ٥١ من عينيته يقول:

والدَّهْرُ لا يَبْقَى على حَدَثَانِه مُسْتَشْعِرٌ حَلَقَ الحديدِ مُقَنَّعُ

فيحدثنا، عن مصرعِ البطل الفارس، الكاملِ العدَّة والعتاد، واصفاً الصراعَ بينه وبين قِرْنٍ مُصاول، وخَصْمٍ مجاول، في مواقعات دائبة، ومنازعات لازبة، لا تنتهي إلا بسقوط الفارس الكمي، والبطل المشيح صريعاً مجدلاً، على أقدام خصمه البطل العنيد"[2].

ويروى أنه قال في ختام القصيدة:

فَعَفَتْ ذُيُولُ الرِّيحِ بَعْدُ عليهما والَّدهْرُ يَحْصُدُ رَيْبُهُ ما يَزْرَعُ[3]

فكان ذلك ختام المأساة،وختام القصيدة كلِّها.

وإذا مضينا في العصر الإسلامي فإننا نرى تلك المعاني في الرثاء لا تزال قائمة، فالمعاني التي يتناولها شُعراء هُذَيْلٍ في الرثاء هي نفسُها التي كانت في الجاهلية، فظلوا يبكون في موتاهم أو قتلاهم الكرمَ والشجاعةَ والنَّخْوَةَ والشهامةَ والإباء ونحو ذلك من الصفات التي كانوا يمتدحون بها، ونلاحظ أن أكثر تلك المعاني كانت عامةً يجوز أن تطبقَ على أي فقيد، ولا تحدد صفةً خاصَّةً بالمرثي.

أما القصصُ الحزينُ الذي كان شُعراء هُذيْلٍ يسوقونه في قصائد رثائهم مما يصور عجزَ الإنسان أمام القدر، ونوائبِ الدهر،فإننا نلاحظ أنَّ ذلكَ يَفْتُرُ في العصر الإسلامي، والواقع أننا "لا نلمحُ هذه القصصَ الذي يصوِّر عجزِ الإنسان أمامَ الموت

---

(١) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ٢/ ١٢٥.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ١/ ٤٠.

وضعفه وهو في قبضة الدهر. فكأنما كتاب الله أَضْفَى على نفوسهم أمناً وطمأنينةً،وبَثَّ فيها نوعاً من الأمل، فما عادوا يجدون غناء في ذلك القصص الحزين"(١).

فالقوم كانوا جاهلين لا يرجون جَنَّةً ولا يخافون ناراً، ولا يعرفون بعثاً ولا نشوراً، فكان الشاعرُ ينظرُ إلى بيئته ويستمدّ منها مظاهرَ القوى الحيوية، "وليس في مثل بيئته مَن هو أقوى من الحيوان والإنسان، ولم يجدْ أمامَه من الصورِ والرسوم ما يستمدّ منه فلسفة الموتِ ونُظُمِه سوى ذي الروح المتحرك في كلِّ زمانٍ ومكان، ولهذا دَلَفَ إلى معالمِ الحياة، يستهديها طرائقَ الوفاة..."(٢). ثم يستدلّ الشاعرُ كذلك في انتهاء حياة الحيوان القوي،الذي كان يعيش في مَنَعَةٍ من أمرِه، ويمرُح في حرية وانطلاق، يستدلّ في هلاكه أو مصرعه على أيدي الصائد على انتهاء هذه الحياة، فكان الشاعر يتأَسَّى بذلك،ويعزِّي نفسَه ويسليها بهذه القصص الحزينة والمفزعة،ويستدل بها على مراده.

وقد رثى أبو خِراشٍ زُهَيْرَ بنَ العَجْوةِ الهُذَلِيَّ، الذي اشتركَ ضدَّ المسلمين في غزوة حنين،ويَرْوِي الأصمعيُّ وأبو العلاء أن أصحابَ رسول الله ﷺ أخذوا أناساً في يوم حُنَين أُسارَى، وكان فيهم زُهَيْرُ بنُ العَجْوةِ أخو بني عمرو بن الحارث من هُذَيْلٍ، فمرَّ به جميل بن مَعْمَرَ الجُمَحِيُّ وهو مربوط في الأسرى،وكانت بينهما إِحْنَة في الجاهلية، فضرب عنقه(٣)، فرثاه أبو خراش في ذلك اليوم بقصيدة يصف فيها ابنَ عمه بالكرمِ والشجاعة والإباء، ويذكر أن بيتَه كان مأوى للغرباء والضيفان، ومأوى للنساء اللاَّتي كُنَّ يذهبنَ إليه طلباً لمعروفه، ونراه يشيدُ بكرمه الواسع حتى يصفه بأن يديه لا تحبسان شيئاً من ماله، إذ يهلكه في سبيل الضعفاء والفقراء وإكرام الضيفان،ثم يكشف عن مكانته عند قومه ويذكر أنه كان سيداً فيهم، فيقول:

فَجَّعَ أَضْيَافِي جميلُ بنُ مَعْمَرٍ ... بذِي فَجَرٍ تَأْوِي إليهِ الأَرامِلُ

طويلُ نِجادِ البزِّ ليسَ بِجَيْدَرٍ ... إذا اهتزَّ واسْتَرْخَتْ عليهِ الحمائلُ

---

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص٢٠٨.

(٢) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ٢/١٧٧.

(٣) الأغاني ٢١/٢٣٦.

إلى بيَتْـه يأوي الغريبُ إذا شَتَـا	وَمُـهْـتَلكٌ بَالِي الدَّريسَيْنِ عـائِلُ
تَروَّحَ مَـقْـرُوراً وَراحَتْ عَـشِـيَّـةٌ	لَهـا حَـدَبٌ يَحْـتَـثُّـهُ فَـيُـوائِلُ
تـكـادُ يـداهُ تُـسْـلِـمَـــــان رِداءَهُ	من الجـودِ لما اسْتَقْـبَلَتْهُ الشَّـمَـائِلُ
فـمـا بـالُ أَهْلِ الدارِ لم يتَـحَـمَّلُوا	وقـد بانَ منهـا اللَّوْذَعِيُّ الحُـلاحِلُ (١)

ونراه يتحدَّث عنه حديثَ الملتاع المفجوع، ويبدو من حديثه عنه أنه كان رفيقاً له في مغامراته،ثـم نرى الشاعرَ يوضح أن ما فعلَه جميلُ بنُ مَعْمَر الجُمَحيُّ لم يكن من الشجاعة بمكان، وذلك لأنه قتله وهو مُوثَق، ولم ينازله في قتال، ويؤكد أنه لو نازلَ زهيراً بالقتال لقُتِلَ فعلاً، وما كانت النتيجة هكذا، ثم يذكر أن الإسلام قد جاء وأحاط بالرقاب كالسلاسل حيث منعَ من الطلب بالأوْتار، ولذلك لا يستطيعُ الشاعرُ أن يعملَ شيئاً، فقد ذهب عهدُ الفتوة،وصار الفتى كالكهل في تعقله واتزانه، يقول:

فَـوَ اللهِ لَوْ لاقَـيْـتَـهُ غَـيْـرَ مُـوثَقٍ	لآبَكَ بـالجِـزْعِ الضِّـبَـاعُ النَّواهِلُ
وإنك لَـوْ وَاجَـهْـتَـهُ إذْ لَقِـيْـتَـهُ	فنـازَلْتَـهُ أو كُنْتَ مِـمَّنْ يُنَازِلُ
لظَلَّ جَـمِـيـلٌ أَسْـوَأَ الناس تَلَّةً	ولكنَّ قَرْنَ الظهرِ للمرءِ شَاغِلُ
ولـم أَنْسَ أيامـاً لنا ولَيـالِيـاً	بِحَلْيَـةَ إذ نَلْقَى بهـا من نُحَـاوِلُ
فليسَ كَـعَـهْـدِ الدارِ يا أُمَّ مـالكٍ	ولكِنْ أَحاطَتْ بالرقابِ السَّلاَسِلُ
وعـادَ الفَتَى كـالكَهْلِ ليسَ بِقـائِلٍ	سِوَى العَدْلِ شيئاً فاسْتراحَ العَواذِلُ
فَـأَصْبَحَ إِخْوانُ الصَّفـاءِ كـأَنَّمَـا	أَهالَ عَلَيْهِـمِ جـانبَ التُّرْبِ هائِل (٢)

ونلاحظ أنَّ أبا خِراش لم يتوعَّدْ القاتلَ،بل أوضحَ أن ما فعلَه جميلُ بنُ مَعْمَرٍ لم يكن من الشجاعة بمكان،ذلك لأنه قتله وهو موثق مع الأسرى ولم ينازله في قتال،

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١٢٢١ بذي فجر: بذي معروف، نجاد البز: يريد بالبز هنا السيف، الجَيْدر: القصير، استرخت عليه الحمائل: حمائله طويلة والمراد أنه طويل، الدريسان: الثوبان الخَلَقان، عائل: فقير، راحت عشية، أي: راح رائحُها، لها حدب: لها عُرْفٌ، اللوذعي: الحديد البين اللسان، الحلاحل: الرزين في مجلسه.
(٢) النواهل: المشتهيات للأكل كما تشتهي الإبل الماء، الجزع: منعطف الوادي.

ولا عجب في ذلك فقد مضت الجاهليةُ وما كان فيها من عصبية تستدعي الأخذَ بالثأر، والطلبَ بالأوتار، والمهم عندنا أن الشاعرَ لم يتجاوزْ تلك المعاني المألوفة من شجاعةٍ وكرمٍ ووفاء وإباء، وغير ذلك من الصفات العامة التي لا تحدد صفةً خاصةً بالمرثي، ونرى كذلك أن الشاعرَ لم يحدِّثْنا عن قصصِ الحيوان مطلقاً،فلم يطرأ على باله أن يتأسَّى بها على نوائب الدهر.

وهناك قصيدة لعبد الله بن أبي ثعلب الهُذَليٍّ، يرثي بها مَنْ أُصيبَ في الطواعين من رجالاتِ هُذَيلٍ بمصرَ والشام، وهي قصيدة طويلة تبلغ أربعة وستين بيتاً ويبدؤها الشاعر بالحزن والأَسَى عليهم، ووصف ما يصيبه من الأَرقِ وقلَّة النوم بسببهم وما يكابده من طول الليل وبُعْدِ الصباحِ من جراء تفكيره فيهم، حيث يقول:

أَرِقْتَ ومَــالَكَ ألاَّ تَـنامَـا ... وَبِتَّ تُكَابِدُ ليلاً تمامَا

تُكَابِدُ ليلاً بَعيدَ الصَّبَا ... ح حتى ترَى الفَجْرَ يَجلُو الظَّلاَمَا

لِفَقْدِ عَشِيرتِكَ الذَّاهِبِـ ... ـنَ تُذْري شُؤُونُكَ دمعاً سِجَامَا (١)

ونراه يبكي على هذه المصيبة التي فُجِعَتْ هُذَيْلٌ بها، فيقول:

أَعَيْنَيَّ جُودا على فِتْيَةٍ ... فُجِعْنَا بِهِمْ لم يكونوا لِئَامَا

ويمضي في قصيدته التي يذكر فيها أساه وحزنَه على رجالات عشيرته الذاهبين، ونراه يعدِّدُ منهم مُرَّةَ ومُسافِعاً وأبا مِحْجَنٍ وربيعاً وصَخْراً وجَابِراً وعِصْمَةَ وعطيةَ وسِنَاناً ومالكاً وغيرهم.

ثم نراه يتحدَّث عن فجيعته بهم، فيذكر شجاعتهم وأنهم كانوا أسوداً، يُعْتَمدُ عليهم وعلى أمثالهم في الكرائه والملمات، ثم يتساءل هل من الناسِ مَن يُصاب بمثل مصابهم ويصبر على ذلك؟ فكان الخَطْبُ بهم عظيماً حتى إنهم لو رزئت بهم الجبالُ الراسية لمالَت رؤوسُها، وانهدمت مِن فرطِ المصاب،فهو مصابٌ جَلَلٌ يشيب الطفل من هوله، وذلك حيث يقول:

فُجِعْنَا بِهِمْ وبأَمْثَالِهِمْ ... من أهْلِ الغَنَاءِ فَأَمْسَوْا رِمَامَا

جَمَاجِمُ كانوا من أهْلِ الحَمِيمِ ... وفي الناسِ كانوا أُسُوداً حِمَامَا

---

(١) المرجع السابق ٢ / ٨٨٥.

تَنالُ بِهم وبأَمْثالِهِمْ بحَارَ العَلاءِ وتَأْبَى الظِّلاَمَا
فَفَاتَكَ صَرْفُ مَنَايَاهُمُ بِهِمْ وتَعَزَّيْتَ عاماً فَعامَا
تُريدُ لِكَيْلاَ يَرى الكَاشِحو نَ وَجْدَكَ والوَجْدُ يَبْري العظَامَا
ومَنْ ذا الذي فَاتَه مِثْلُهُم من الناسِ ثُمَّتَ يَرْجُو السَّلامَا
ولو رُزِئَتْهُمْ رَوَاسِي الجِبالِ لمالتْ رُؤوسُ الجِبالِ انْهِدَامَا
فَلاقَيْتُ بَعْدَهُم غَشْيَةً وصَرْفَ أُمورٍ تُشيبُ الغُلامَا

ونمضي معه في قصيدته الطويلة حتى نراه يذكر حسن هيئتهم، وأصالة نسبهم، ومكانتهم في قومهم، وكيف أنهم كانوا يحمون مجدَهم التليدَ، ويتحدَّث عن شجاعتهم وفروسيتهم وركوبهم الخيل،ونزولهم ساحات المعارك للصراعِ والقتال، فيقول:

حِسانُ الوُجوهِ طِوالُ الرِّمَا حِ يَحْمُونَ مَجْدَ حِمىً لَن يُرَامَا
ترى الخَيلَ حَوْلَ مَنادِيهِم رَوَاكِدَ مُشْتَجِراتٍ صِيَامَا
إذا فُزِعُوا أَيَّهُوا واسْتَبَـ ـنَّ للرَّوْعِ تَحْسِبُهُنَّ الخِيَامَا
وطَارُوا عليهنَّ يَسْتَنْزِلو نَ واسْتَلَمُوا للوِقَاعِ اسْتِلاَمَا
عَلى كلِّ شَوْهَاءَ قَنَّاصَةٍ ونَهْدِ المَراكِلِ يُشْرِي اللِّجَامَا (١)

ثم يعزّي نفسَه وقومه بهذا المصاب الجلل، فهم كرامٌ أصيبوا بكرامٍ، وعليهم أن يحتملوا الأمورَ المضلعاتِ العظام، حتى لا تزلزلهم النكباتُ، وفي ذلك يقول:

رُزِئْنَا فلم تَغْشَنَا كَبْوَةٌ وكُنَّا كِراماً رُزِئْنا كِرامَا
وكُنَّا عَلى حَدَثِ الحادِثا تِ نَحْتَمِلُ المُضْلِعَاتِ العظَامَا

ثم يُزْهَى بقومه ويفتخر بهم، ويتحدث عن كرمهم وبذلهم للمال، وقضائهم الغرم عن الغارمين ويشيد بوفائهم للجوار وصدقهم في العهود والذِّمَم، إلى أن يختم قصيدته بقوله:

---

(١) مشتجرات: من شُجِرَت الدابةُ إذا أُلجِمَتْ، شوهاء: حديدة النَّفْس، يُشْرِي: يُحرِّك.

وَلَنْ يَعْدَمَ الدَّهْرُ منّا فَتىً   كَرِيماً إذا ما نَسَبْتَ الكِرَامَا

إذا ما انْقَضَى كَوْكَبٌ طالِعٌ   بَدَا ضَوْءُ نَجمٍ يُجَلِّي الجَهَامَا

إمامٌ إذا اخْتَلَفَ العالِمُو   نَ يَلْتَئِمُونَ إليهِ الْتِئامَا

فَذلكَ خُطَّ لنا في الكِتَا   بِ ما كانَ طَوْقٌ يُزِينُ الحَمَامَا (١)

فنلاحظ أن الشاعرَ لم يحدِّثنا عن قصصِ الحيوان، ولم يتأسَّ بها على نوائب الدهر ونكباته، وكذلك نراه لم يتجاوزْ تلك المعاني المألوفة من كرمٍ وشجاعةٍ ونخوةٍ وإباءٍ ونحو ذلك من الصفات العامة التي كان يتناولها الشُّعراءُ.

وفي العصر الأموي كانت معاني الرثاء هي التي تناولها الأقدمون من شعرائهم من الصفات العامة كالشجاعة والكرم والنخوة والإباء ونحوها، فهذا أبو العيال الهُذَليُّ يدخلُ في الرثاء مباشرة حين يرثي ابنَ عَمٍّ له يدعَى " عبدُ بن زُهرة الهُذَليُّ" الذي قتله الرومُ بالقسطنطينية في زمن معاوية، ونراه يبدأ قصيدته بذكر شجاعة ابن عمه وركوبه الأهوال، ويذكر أنه لم يكن ضعيفاً ولا جباناً، إلى غير ذلك من المناقب العامة كشدة البأس، والقوة، والقدرة على الخطابة والكلام، وما حباه الله به من فصاحة اللسان، وذلك حيث يقول:

فَتىً ما غَادَرَ الأَجْنَا   دُ لا نِكْسٌ ولا جَنَبُ

ولا زُمَّيْلَةٌ رِعْدِيـ   ـدَةٌ رَعِشٌ إذا رَكِبُوا

ولا بِكَهَامَةٍ بَرَمٍ   إذا ما اشْتَدَّتِ الحِقَبُ

ولا حَصِرٌ بِخُطْبَتِهِ   إذا ما عَزَّتِ الخُطَبُ (٢)

ثم يذكر ما يصيبه من الألم والصداع من جراء التفكير في ابن عمه، ويعرض لدموعه التي تذرف عليه باستمرار،ويشبه ذلك الماء الذي يتسرب من القربة الْخَلَق، ولا عجب في ذلك فابن عمه كان عزيزاً عليه ومقرباً إليه،وكانت مودته معه تفوق

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٨٩٠.

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ٢٤١ النِّكْسُ: ضربه مثلاً للسهم يرمى به فينكسر نصله، والمراد أنه ليس ضعيفاً، الجنب: القصير، الزُّمَّيْلة: الضعيف من الرجال، الرعديدة: الجبان، الكهامة: الكليل اللسان، البَرَم: الذي لا يخرج مع القوم في الميسر مخافة الغرم، الحصر: الذي يحصر.

obeikandl.com

مودة أبناء عمه جميعاً. والشاعر يصفه بالكرم الواسع حتى إنه كان أباً للأيتام والأضياف وذوي الحاجة الذين كانوا يأوون إليه رغبة في معروفه،وفي هذا يقول:

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي ... صُدَاعُ الرَّأسِ والوَصَبُ
كما يعتادُ ذات البَـ ... ـوِّ بَعْدَ سلوِّها الطَّرَبُ
فدمعُ العينِ من بُرَحَا ... ءِ ما في الصَّدْرِ يَنْسَكِبُ
كما أَوْدَى بماءِ الشَّنَّـ ... ـةِ المَخْروزةِ السَّرَبُ
علَى عَبْدِ بنِ زُهْرَةَ طُو ... لَ هذا الليل أَكْتَئِبُ
أخ لي دونَ مَنْ لِي مِنْ ... بَنِي عَمٍّ وإن قَرُبُوا
طَوَى مَن كانَ ذَا نَسَبٍ ... إليَّ وزادَهُ نَسَبُ
أَبو الأَيْتَامِ والأضْيا ... فِ ساعةَ لا يُعَدُّ أَبُ (١)

ويختم الشاعر قصيدته الطويلة بذكر مكانة ابن عمه وشجاعته، ويتحدّث عنه حديث المعجب بشجاعته، وخروجه للقتال بأرض الروم، ثم نشاطه وسرعته أثناء القتال حتى إنه يكادُ يخرُج من جلده لشدة جريه، وأنه كان ينقض على الأعداء كما ينقض الصقر من جو السماء، ثم يذكر أنهم لم يأخذوا ثمنه، -يريد ديته- وكذلك لم يهبوها لقاتله، فليس هو ممن يُشْتَرَى ولا ممن يُوهَب لأنه عزيز عليهم، فيقول:

إذا ما احْتُثَّ بالسَّاقَيْـ ... ـنِ لَمْ يَصْبِرْ له لَبَبُ
كما يَنْقَضُّ من جَوِّ السّـ ... ـماءِ الأَجْدَلُ الدَّرِبُ
رَزِيَّةُ قومه لم يأْ ... خُذوا ثَمَناً ولم يَهَبُوا (٢)

---

(١) الوصب: الوجع، البَوُّ: جلد ولد الناقة يحشى تبناً ويلقى على عفاء فَترْأَمُه وتشمه وذات البَوِّ تسلو عن ولدها ثم تذكره فتصيح، الطرب: خفة وليس بفرح، برحاء ما في الصدر: أي حرّ وَجْدٍ وحُزْن، والتبريح: المشقة.

(٢) اللبب كاللبة: هو موضع القلادة من الصدر من كل شيء، الأجدل: الصقر، الدرب: المتعود والمتدرب.

فنرى أنَّ الشاعرَ لم يتأس بقصص الحيوان، ولم يستشهد بها في رثائه أو يتحدث عنها ليسلي نفسه أمام نوائب الدهر. وكذلك معاني الرثاء التي تناولها الشاعرُ لا تخرج عن المعاني المألوفة عند الشُّعراء،وهم في هذه الحالة يخضعون لما اعتاد شعراءُ العربِ جميعاً أن يخضعوا له من إتقان الوصف وإجادة النظم، ولكنهم يختلفون عنهم من ناحية أخرى، هي قدرتُهم الفائقة على إظهار عواطفهم، وتمثيلِ أنفسهم، والتعبيرِ عن حزنهم في قوة دافقة، ونغمٍ حزينٍ، وقد نرى غيرَهم يفعل هذا، لكن ذلك ليس دائماً، فالهذليون وحدَهم تميزهم هذه الميزةُ، ويختصون بها، لا ينازعهم فيها إلا القليلون"(١).

وإذا مضينا قُدُماً في العصر الأموي نرى تلك المعاني نفسها هي التي تناولها شعراؤهم، المعاني العامة كالشجاعة والنخوة والنجدة، والكرم والوفاء والإباء، وما إلى ذلك من الصفات التي لا تحدد سمَةً خاصةً بالمرثي، ولا ترسم صورةً واضحةً ودقيقة له. وقد نجد أحياناً قصائدَ في الرثاء تبدأ بدايةً تقليدية ولكنها لا تتجه إلى قصص الحيوان مطلقاً، وذلك كبائية أبي صَخْرٍ الهُذَليٍّ التي قالها يرثي ابنه داود، ويقال: إنه لم يكن له ولدٌ غيره، فلما مات جزع عليه جزعاً شديداً حتى خولط(٢)، وقد بدأها بدءاً تقليدياً بالغزل ومطلعها:

تَعَزّيْتَ عن ذِكْرِ الصِّبَا والحَبائِبِ ... وأَصْبَحْتَ عِزْهىً للصِّبا كالمُجَانِبِ (٣)

وفي البيت السابع والعشرين يبدأ الرثاء ذاكراً أنه كثيراً ما يهيجه طيفُ داود، فتغطي عينيه ظُلْمَةٌ من الدموع لشدَّة حزنه، فالشاعرُ يبكي ابنَه ويذرفُ عليه الدموعَ بغزارة شديدة، ويذكر أنه مستمرٌّ في ذلك لولا يقينه أن الموت حقٌّ، وهو قضاء الله سبحانه في خلقه حتى يبعثهم للحساب، يقول:

وقد هَاجَني طَيْفٌ لِدَاوُدَ بعدَما ... دَنَتْ فاسْتَقَلَّتْ تَالِيَاتُ الكَواكِبِ

فَقُلْتُ أَغَمَّتْ مُقْلَتَيَّ عَمَايَةٌ ... لَبِثْتُ وقد فَارَقْتَني غيرَ عاتِبِ (٤)

---

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص٢١١.

(٢) الأغاني ٢٣ / ٢٧٤، وخولط: أصيب في عقله.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٩١٥ العزهاة: الذي لا يحب اللهو والنساء.

(٤) أغمت: غطت، عماية: ظُلْمة من الدمع.

وما في ذُهُولِ الناسِ مِنْ غيرِ سَلْوَةٍ ... رَوَاحٌ من السُّقْمِ الذي هو غَالِبِي
وعندكَ لو يَحْيَى صداكَ فَنَلْتَقي ... شِفاءٌ لِمَا غادَرْتَ يوم التَّناضبِ
فهل لكَ طِبٌّ نافعي من عَلاقَةٍ ... تُهَيِّمُني بينَ الحَشَا والتَّرائبِ
تَشكَّيتُها إذ صَدَّعَ الدَّهْرُ شَعْبَنَا ... فأَمْسَتْ قد أعْيَتْ في الرُّقَى والطَّبائبِ
ولولاَ يَقِينٌ أنما الموتُ عَزْمَةٌ ... من اللهِ حتى يُبْعَثُوا للمَحَاسِبِ
لقُلْتُ له فيما أُلِمَّ بِرَمْسِهِ ... هَلْ أنْتَ غداً غادٍ معي فَمُصَاحِبي
فماذا تَرىَ في غائبٍ لا يُغَبُّني ... فلستُ بناسيةٍ وليسَ بآيِبِ

ثم نراه يدعو لابنه بالسُّقْيا، كما فعل قَيسُ ابن عيزارة حينما دعا ذلك لأخيه،فأبو صخر يقتفي أثر مَن قبله مِن شعراءِ هُذَيْلٍ في ذلك، ويدعو لابنه أن يُسْقَى بغمامٍ دانٍ هزيم يسح الماء من كل جانب،وأن يكون الغمامُ سرى وغدا في البحر ثلاثاً ، وأن يصل إلى قبر ابنه وقد وصلت ريح الصَّبا قبله حتى ترطبه، فيقول:

فأَسْقَى صَدَى دَاوُدَ دَانٍ غَمَامُهُ ... هَزِيمٌ يَسُحُّ الماءَ مِن كُلِّ جَانِبِ
سَرَى وغَدَتْ في البحرِ تَضْرِبُ قُبْلَهُ ... نُعامَى الصَّبَا هَيجاً لِرَيَّا الجَنَائبِ
ثلاثاً فأسرَتْ مُزْنَةٌ حَضْرَمِيَّةٌ ... لهَا ثائبٌ طَلُّ النَّدَى بعدَ ثائبِ
تَحوزُ مَناتِيحُ الغَمَامِ وتَمْتَرِي ... مَطَافِيلُ لم يُنْدبْ بها صَرٌّ حَالِبِ
فألْحَقْنَ محْبُوكاً كأَنَّ نَشَاصَهُ ... مَنَاكِبُ مِن عَرْوانَ بِيضُ الأَهَاضِبِ (١)

فهو يدعو له بأن يبلل الله ثراه، ويغدق المطر على قبره، وهي عادة عربية،وكأن ذلك كناية عن الدعوة له بحلول الرحمة عليه، وأن يكون قبره روضةً من رياضِ الجنَّةِ لا مثوى من الجحيم.

ونمضي معه في قصيدته الطويلة التي يرثي بها فلذة كبده، وهو يتحدَّث فيها عن حزنه وأساه، حتى نراه يختمها بأبياتٍ نعرف منها أَن ابنه قُتِلَ على أيدي الروم. وأنه قد قدم ثأره بطعان ابنه التي كان يرمي بها صدور الأعداء، ولذلك تراه يبغي الفضل من الله سبحانه، ويطلب الثوابَ له ولابنه الذي استشهد، فيقول:

---

(١) تحوز: أي الريح، تمترى: تمسح، يندب: يُؤَثِّر.

obeikandi.com

سـأَلْتُ مَليكِي إذ بلاَني بِفَـقْـدِهِ	وفـاةً بأَيْدي الروم بينَ المَقَـانِب
ثَـنَوْني وقـد قَـدَّمْتُ ثأري بطَعْنَةٍ	تَجِيشُ بِقَلاَّسٍ من الجَوْف ثاعِب
فَـعُـجِّلْتُ رَيْحَـانَ الجنانِ وعُـجِّلُوا	زَمَـازِمَ فَـوَّارٍ من النارِ شَـاهِب
وقَـدْ خِـفْتُ أَنْ أَلْقَى المَنَايَا وإنَّـني	لتَـابِعٌ من وَافَى حِـمـامَ الجَـوَالِب
ولمَّا أُطاعِنْ في العَـدُوِّ تَنفُّـلاً	إلى اللهِ أَبْغِ فَـضْـلَهُ وأضَـارِب
وأَعْطِفْ وراءَ المُسْلِمينَ بِشِـدَّةٍ	على دُبُرٍ مُـجْلٍ من العـيشِ ذَاهِبِ (١)

فنرى أن معاني الرثاء عند الشاعرِ هي كما كانت سابقاً عند شعراء هُذَيْلٍ، غير أننا نلاحظ تأثرَ الشاعرِ الشديد بالإسلام، فتأثرُه واضحٌ في قصيدته بما حوته من المعاني والمبادئ الإسلامية.

وهكذا يتضح أن الهُذَليين كانوا يمتازون بقدرةٍ فائقةٍ في فنِّ الرثاء، لا سيما في إظهار عواطفهم والتعبير عما يختلج في نفوسهم من حزن عميقٍ وكآبةٍ صادقةٍ وشَجَنٍ لا حدَّ له، واتضح أن معانيهم في الرثاء كانت في الأغلبِ معاني وصفات عامة كالشجاعة والفروسية والنخوة والكرم والنجدة والإباء،ونحو ذلك من الصفات التي لا تحدد صفةً خاصة في المرثي. والمهم عندنا أنهم امتازوا بقدرة فائقة في فَنِّ الرثاء ثم عرفوا به، واشتهروا عند العرب.

ولعل مما يدل على تقدمهم في فَنِّ الرثاء وتفوقهم فيه حتى بلغوا في ذلك القمة ـ روعة وإجادةً وإتقاناً ـ ، ما روي من أن بعض أمراء العرب كان يطلب من شعراء هُذَيْلٍ أن يرثيه وهو حَيٌّ، حتى يستمع بنفسه إلى ما يقوله الشاعر في رثائه، وهذا لأن الهذليين عرفوا بالرثاء واشتهروا فيه بين العرب.

ومن ذلك ما رواه صاحبُ الأغاني من أن أبا صخر الهُذَليَّ كان منقطعاً إلى أبي خالد عبد العزيز بن عبد الله بن أَسِيد، مَدّاحاً له، فقال له يوماً: "ارثني يا أبا صخرٍ وأنا حَيٌّ حتى أسمع كيف تقول، وأين مراثيك لي بعدي من مديحك إيايَ في

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٩٢٣ ثنوني: يقصد ردوني بطَعْنة، وقد قدمت ثاري، أي: قتلتُ قبل أن أُقْتَل، ثاعب: ترمي به، مُجْل، أي: ذاهب عيشه، دُبُرٌ: آخرِ ذاك.

حياتي؟!" فقال: أُعيذُك بالله أيُّها الأمير من ذلك، بل يُبْقِيك ويُقدِّمني قبلك، فقال له: "ما من ذلك بدٌّ!"(١).

فرثاه بقصيدة طويلة وبدأها بداءة تقليدية، يذكر الأطلال والآثار والديار، يقول في مطلعها:

عَفا سَرِفٌ من جُمْلَ فالمُرْتَمى قَفْرُ ... فَشِعْبٌ فأَدْبَارُ الثَّنِيَّاتِ فالغَمْرُ

فَخَيْفُ مِنىً أَقْوى خِلافَ قَطِينِهِ ... فَمَكَّةُ وَحْشٌ من جَمِيلَةَ فالحِجْرُ (٢)

ونراه في البيت التاسع عشر من القصيدة يبدأ بالرثاء، ويعبر عن حزنه وأَساه على أبي خالد، ويصور جَوَّ الحزن والكآبة والبكاء عليه حتى إنه يطلب من القلائص التي أَضَرَّ بها طول الزجر والسفر أن تبكيه، فهذه القلائص التي أعياها السير وأشقاها السفر، لا يفرّج عنها وعن ركبانها ما بها من الهموم إلا كريم المُحيَّا، ذلك الماجد الفقيد، وذلك حيث يقول:

أبا خالدٍ نفسي وَقَتْ نَفْسَكَ الرَّدَى ... وكانَ بها من قَبْلِ عَثْرَتِكَ العَثْرُ

لِتَبْكِكَ يا عبدَ العزيزِ قَلائِصٌ ... أَضَرَّ بها طولُ المَنَصَّةِ والزَّجْرُ

سَمَوْنَ بنا يَجْتَبْنَ كلَّ تَنُوفَةٍ ... تَضِلُّ بها عن بَيْضِهِنَّ القَطَا الكُدْرُ

فما قَدِمَتْ حتى تَواتَرَ سَيرُها ... وحتَّى أُنِيخَتْ وَهْيَ داهِفَةٌ دُبْرُ

فَفَرَّجَ عن رُكْبانِها الهَمَّ والطَّوَى ... كَرِيمُ المُحَيَّا ماجِدٌ واجِدٌ صَقْرُ (٣)

ثم أخذ يصفه بالكرم والسماحة حتى إن داره تقتل جوعَ من جاء إليه، وأنها متسعة الفناء ترحب بالضيفان. ويذكر أنه لا لذة بعده في الحياة، ويدعو على الشامتين فيه ألا يصيبهم الخير، ولا يبل هامهم القطر، وفي ذلك يقول:

أخُو شَتَواتٍ تَقْتُلُ الجوعَ دارُهُ ... لِمَنْ جاء لا ضَيْقُ الفِناءِ ولا وَعْرُ

فلا نَفَعَ الفِتْيانَ بعدَكَ لَذَّةٌ ... ولا بَلَّ هامَ الشَّامِتِينَ بِكَ القَطْرُ

---

(١) الأغاني ٢٣ / ٢٧٢.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٩٥٠.

(٣) الداهف: المَعْيِي.

ثم يذكر أن المرثي إن أَمْسَى في رَمْسه ميتاً، فإن أيامه الزهر البيض وتاريخه المجيد لن تموت، وسيبقى ذلك ذكراً طيباً له، إذ إن فضله وكرمه قد عَمَّ ذوي النعم، ومالَه غَمَرَ ذي الحاجات فصاروا في غناء من أمرهم بعد أن ضاقَ الأمر بهم من شدَّة الحاجة والعوز، وفي ذلك يقول:

فإنْ تُمْسِ رَمْساً بالرُّصَافَة ثاوياً ... فما مَاتَ يا ابْنَ العيصِ أَيَّامُكَ الزُّهْرُ

وَذي وَرَقٍ من فضلِ مالكَ مَالُهُ ... وذي حاجَةٍ قد رِشْتَ ليس لَهُ وَفْرُ

فَأَمْسَى مُرِيحاً بعدَما قد يَؤُوبُهُ ... وكَلَّ به المَوْلَى وضَاقَ به الأَمْرُ

فأُعجب عبد العزيز بهذه القصيدة وأَضْعفَ له جائزته ووصله،ثم أمر أولاده فَرَوُوها(١).

وهناك أغراض أخرى خاضَ فيها الشعراءُ الهذليون، ولكنهم لم يُعْرَفوا ولم يشتهروا بها لأنها لم تكن على مدى واسع كالأغراض التي سبق ذكرها، ومن هذه الأغراض المدح والهجاء، ثم إنهم تحدَّثوا عن الحكمة وبكاء الشباب، واللوم والعتاب، غير أن اللوم والعتاب كان قليلاً جداً في أشعارهم. وسنتكلم الآن عن المدح والهجاء.

٦- المدح:

لم يكن للهذليين مدح كثير في الجاهلية،لما كان فيهم من اعتزاز الشَاعرِ بنفسه،وبُعْده عن الزلفى والمبالغة، فكانوا في مدحهم - وهو قليل - يجنحون إلى جانب الحقِّ، ويؤثرون إصابة الصواب، ويستوحون الفضائلَ الحقيقيةَ التي يتحلَّى بها الممدوح، وكانوا في مدحهم متأثرين بحياتهم البدوية،وبيئتهم التي لم تتلوث بَعْدُ بأكاذيب المدنية وعُقَدِها والتواءاتها التي تحمل على النفاق والكذب، وتدفع إلى المبالغة والإغراق.

والمدحُ عند شُعراء هُذَيْلٍ لم يرتفع إلى تلك الذروة الشامخة التي ارتفع إليها شعرهم في الرثاء والحماسة ووصف الحيوان وذلك «أن الشاعرَ الهُذَليَّ في العصر الجاهلي لم يكن شاعرَ بلاطٍ. لم يكن كالنابغة ولا كالأعشى ولا كحسان ولا كأي

---

(١) الأغاني ٢٣ / ٢٧٤.

شاعر اعتاد أن يطرقَ أبواب المناذرة والغساسنة وإنما كان شاعراً مُعتزّاً بذاته عندما تكون "أنا" فقط أو عندما تكون "أنا وقبيلتي".

وقد يبدو من الضروري أن نقرِّرَ أنَّ الإحساس بالأنانية عند الشاعر الهُذَليِّ كان أكثرَ شيوعاً، فتوارى شاعر القبيلة الهُذَلي إلى حدٍّ ما وإنْ يكن ثمةَ من يظل يتكلَّم بلسانها! وربما كان هناك ما يوجب المدحَ من هُذَليٍّ لهذليٍّ، إلا أن هذا كان في نطاق محدود.

وأرجو ألا يحاول أحدٌ أن يلتمسَ لهم مدحاً لأشخاص من غيرهم أشدّ منهم ثراء كقريش مثلاً، فهذا لم يحدث لإباء كان فيهم، ولعزوفهم عن التنقل بشعرِهم بين المثرين أو غيرهم"(١).

والجاهليون عامةً عُرِفوا بعزَّةٍ في النفس، واعتدادٍ بالشخصية، وهذا يتنافى مع طبيعة المدح، ولا يساعد على رواجه عندهم كغيره من الفنون، أضف إلى ذلك أن هُذَيلاً كانت تحيا حياة بدويةً خالصةً،فكانت صورةً صادقةً للطبيعة البدوية، والأخلاق العربية ، وهذا كلُّه يتنافى مع طبيعة المدحِ لما يحمله أحياناً من التزلُّفِ والتملُّق والرياء.

ومن مديحهم في الجاهلية ما قاله مالك بن خالد الخُنَاعِي يمدح زُهَيْرَ بنَ الأَغرِّ اللِحْيانيَّ سيدَ بني لِحْيان وهو قوله:

فَتىً ما ابْنُ الأَغَرِّ إذاشَتَوْنَا ... وحُبَّ الزَّادِ في شَهْرَيْ قُماحِ

أقَبُّ الكَشْحِ خَفَّاقٌ حَشَاهُ ... يُضِيءُ اللَّيْلَ كالقَمَرِ اللَّياحِ

وصَبَّاحٌ ومَنَّاحٌ ومُعْطٍ ... إذا عادَ المَسارِحُ كالسِّبَاحِ

وَجَزَّالٌ لمَوْلاَه إذا ما ... أتاهُ عائِلاً قَرِعَ المُراحِ (٢)

---

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص١٦٤ مع إصلاح بعض التراكيب والألفاظ.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٤٥١ شهري قماح: أشد شهرين برداً في الشتاء حين تقامح الإبل أي: لا تشرب، أقبُّ: ضامر، اللياح: الأبيض المتلألئ، المسارح: حيث تسرح الإبل، السباح: قمص جلدية تجعل للصبيان، والواحدةُ سُبْحة، جَزّال: يقطع من ماله، قَرِعَ المراحِ: لا يكون في مراحه إبل.

فنرى أن الشاعرَ قد مدحَه بالكرم والنجدة والنخوة، وذكر أن كرمَه يكون في أشدّ شهرين في الشتاء برداً، ثم إنه صبَّاح، أي: يسقي الصبوح، ومنَّاح، أي يمنح ابن عمه وجاره قطعةً من إبله حتى يشرب ألبانها وينتفع بأوبارها فإذا قل لبنها ردَّها إليه، وهو جَزّالٌ في العطاء للأصدقاء والفقراء، ولا يبخل عليهم بشيء، ورأيناه في البيت الثاني قد نظر إلى جمال خلقته وذكر أنه قليل اللحمِ ، صبوحُ الوجهِ يضيء ما حوله كالقمر المتلألئ.

والمهم أننا نلاحظُ الأخلاقَ العربية في هذا المدح، وأن الشاعرَ لا يبالغ في مدحه، بل يجنحُ إلى جانب الحقِّ والصواب من صفات الممدوح، فيذكر الفضائل الحقيقية التي يتحلَّى بها، هذا فضلاً عن أنَّ مدحَه لم يتجاوز الأربعة الأبيات المذكورة.

أما أبو خِراش فقد مدح صديقاً له من آل صُوفَة(١)، خُدَّام الكعبة في الجاهلية، وكان حذاه نَعْلَيْن. وفي الأغاني أن الذي حذا أبا خِراش هاتين النعلين هو دُبَيَّةُ السُّلَمِيُّ، وهو صاحب العُزَّى، وأحد سدنتها، وكان أبو خراش قد نزل به فأحسن ضيافته، ورأى في رجله نَعْلَيْن قد خَلُِقَتَا فأعطاه نعليْن من حذاء السِّبتْ حسنَيْن(٢).
فقال أبو خِراش يمدحه:

حَذاني بعدَما خَذِمَتْ نِعالي	دُبَيَّةُ إنَّهُ نِعْمَ الخَليلُ
بِمَورِكَتَيْنِ من صَلْوَيْ مِشَبٍّ	من الثِّيرانِ عَقْدُهُما جَميلُ
بِمِثْلِهِمَا نَروحُ نُريدُ لَهْواً	ويَقضِي حاجَهُ الرَّجُلُ الرَّجيلُ
فَنِعْمَ مُعَرِّسُ الأضْيافِ تَذْحَى	رِحالَهُمُ شَآمِيَةٌ بَليلُ
يُقَاتِلُ جُوعَهُمْ بِمُكَلَّلاتٍ	من الفُرْنيِّ يَرْعَبُها الجَميلُ(٣)

فقد مدحه بالكرم والجود، وذكر أنه نعم الخليلُ والصديقُ، ثم وصفَ النعلَيْن بالشدَّة والقوة والجمال، وقد أفاض الشاعرُ في مدح الممدوح حين ذكر أنه مَعَرِّسُ

(١) صُوفَة: أبوحَيٍّ من مضرَ وهو الغَوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، سمي صُوفَة لأن أمه جعلت في رأسه صوفة وجعلته ربيطاً للكعبة يخدمها (ديوان الهذليين ٢ / ١٤٠).
(٢) الأغاني ٢١ / ٢٣٤.
(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١٢١٢ بموركتين: بشراكين يَصْرفان، الرجيل: القوي على المشي، تَذْحَى: تسوق وتستخف، يرعبها: يملؤها، الجميل: الشحم المذاب.

الأضياف تَذْحَى رحالَهم شآميةٌ بَليل، يريد أن الأضياف يُنْزِلون رحالَهم عنده، فتأتي الريح فتستخفها وتقلعها فكأنها تسوقها وتطردها، وأنه يقاتل جوع الأضياف ويقضي عليه بخبز واسع وغليظ يملؤه الشحم المذاب، وكأن الشاعر يقصد الخبز المغطى باللحم.

فنرى أن الشاعر قد امتدحَ الكرمَ في ممدوحه،ولم يبالغْ في ذلك، فكانت هذه عادتهم في الإكرام من تقديم الخبز واللحوم للضيفان، ونلاحظ أن الشاعرَ كذلك لم يتجاوز في مدحه هذه المقطوعة التي تعد خمسة أبيات فقط.

وفي العصر الإسلامي لا نجد لهم مدحاً كثيراً، ويروي السُّكَّريُّ أنَّ أبا ذؤيب مدحَ عبد الله بن الزبير، وكان صاحبه في غزاة إفريقية وبها مات أبو ذؤيب، ويقال: إن ابن الزبير دَلاَّه في قبره، وكان أبو ذؤيب قد قال يمدحه بقصيدة مطلعها:

أَمِنْ أُمِّ سُفْيَانَ طَيْفٌ سَرَى ... إليَّ فَهَيَّجَ قَلْباً قَرِيحَا (١)

ويقول فيها:

فَصَاحِبَ صِدْقٍ كَسِيدِ الضَّرَا ... ءِ يَنْهَضُ في الغَزْوِ نَهْضاً نَجِيحَا

وَشِيكَ الفُضُولِ بَعِيدَ القُفُو ... لِ إلاَّ مُشَاحاً به أو مُشِيحَا

يَرِيعُ الغُزَاةُ وما إنْ يَزَا ... لُ مُضْطَمِراً طُرَّتاهُ طَلِيحَا

كَسَيْفِ المُرَادِيِّ لا ناكِلاً ... جَبَاناً ولا جَيْدَرِيّاً قَبِيحَا

قد أَبْقَى لكَ الغَزْوُ من جِسْمِه ... نَواشِرَ سِيدٍ ووجهاً صَبِيحَا (٢)

فنرى أنَّ هذه الأبيات تدورُ كلُّها حولَ مدحه بالشجاعة وشدة البطش،ثم النخوة والشهامة وضياء الوجه.

---

(١) المرجع السابق ١ / ١٩٦.

(٢) المرجع نفسه ١ / ٢٠١ السِّيد: الذئب، الضراء: ما واراك من الشجر، نجيحاً، أي: منجحاً ظفراً سريعاً، وشيك الفضول: سريع الإفضال على أهله، بطيء القفول: يبطئ في الرجوع، مشيحاً: مُجداً حاملاً، يَرِيعُ الغزاةُ، أي: يرجعون ولا يرجع، الطرة: الكشح والمراد أنه ضامر الكشح ليس ضخماً، طليحاً: معيباً، كسيف المرادي: يريد كأنه سيف يمانٍ في مضائه، ومرادٌ قبيلة من اليمن، الناكل: الجبان، الجَيْدَرِيّ: القصير، النواشر: عصب باطن الذراع.

على أننا إذا تقدَّمنا ومضينا في العصرِ الأموي فإننا نجد شاعرين من شُعراء هُذَيْلٍ قد عُرِفا بالمدح واشتهرا فيه، وأقصد مدح الأمراءِ والخلفاء، وهما أمية بن أبي عائذ وأبو صخر، اللذان تفرغا للأمويين يمدحانهم، وقالا كثيراً من الشعر في سبيل ذلك، لا سيما أبو صخرٍ الذي مدح الأمويين في قصائد كثيرة جداً، فمدح بعض الخلفاء ثم مدح الأمراء من بني أمية لا سيما بني أَسِيد، الذين مدحهم كثيراً وأطالَ في مدحهم كما سيأتي.

أما أُميةُ بنُ أبي عائذٍ فقد مدحَ عبدَ العزيز بن مروان بقصيدةٍ طويلةٍ بلغت إحدى وخمسين بيتاً ومطلعها:

ألا إنَّ قَلْبي لَدَى الظَّاعِنينَا حَزينٌ فَمَنْ ذا يُعَزِّي الحَزِينَا (١)

ويعرض في هذه القصيدة الطويلة لصنوف من الحيوان، ثم يعرض لناقته وكيف تجشَّم بها وعثاء السفر،وفي آخرها يمدحُه ويصفُه بصفات عامة كالكرم والشجاعة، والمكانة السامية والنسب الرفيع، فيقول:

إلى مَعْدِنِ الخيرِ عبدِ العزيـ ـزِ يَبْلُغْنَهُ ظُلَّعاً قد حَفِينَا

ترَى الأُدْمَ والعِيسَ تَحْتَ المُسو حِ قد عُدْنَ من عَرق الأَيْنِ جُونا

مَدَحْتُ المُمَدَّحَ عبد العزيـ ـزِ إنَّ الكِرامَ هُمُ يُمْدَحُونَا

وسارَ بِمْدحَةِ عبدِ العزيـ ـزِ رُكْبانُ مكَّة والمُنْجِدُونَا

وقد ذهبوا كلَّ أَوْبٍ بها وكلُّ أُنَاسٍ بها مُعْجَبُونَا

مُحَبَّرةٌ مِن صَريحِ الكلامِ لَيْسَتْ كما لَصَّقَ المُحْدَثُونا

وأنتَ امْرُؤٌ ماجِدٌ سَيِّدٌ تُصَفِّي العَتِيقَ وَتْنفِي الهَجِينَا (٢)

وأما أبو صخر فقد كان مفتوناً بمدح الأمويين، وفي إحدى قصائده نراه يمدح أبا خالد عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد، وهو يبدؤها بداءة تقليدية حيث افتتحها بالغزل،حيث يقول:

أرائحٌ أنتَ يومَ اثْنَيْنِ أَمْ غَادي ولم تُسَلِّمْ على رَيْحَانَةِ الوَادي

---

(١) المرجع نفسه ٢ / ٥١٥.

(٢) الجون: السود، تصفي: تتخذه صَفِيّاً.

وما ثَناكَ لها والقومُ قد رَحَلُوا ... إلا صَبَابَةُ قلبٍ غيرِ مرْشادِ

إني أرَى من يُصَادِيني لأَهْجُرُها ... كَزاجِرٍ عن سبيلِ اللهِ صَدَّادِ (١)

ثم يأخذ في وصف جمال محبوبته الفاتن، وحسنها الزافن، وما تتحلَّى به من جمال وروعة، وما تَمْتازُ به من حلاوة المبتسم وطلاوة الحديث.

ثم يمدحُ عبدَ العزيز بمعان عامة كالشجاعة والكرم والفروسية والنسب الرفيع، فنراه يمدحه ويمدح بيته الكريم بأبيات يقول فيها:

ماذا أبا خالدٍ لما فَرعَتَهُمُ ... منْ قَادحٍ لَكَ لا يُورِي وحُسَّادِ

أَوتادُ الأرضِ إذا شُدَّتْ بِكُمْ ثَبَتَتْ ... والأرضُ ماثَبَتَتْ إلا بأَوْتادِ

كأَنَّ مَنْ حَلَّ في أَعْياصِ دَوْحتِه ... إذا تَولَّجَ في أَعْياصِ آسَادِ

إنْ خافَ ثَمَّ رَواياهُ على فَلَجٍ ... من فَضْلِهِ صَخِبِ الآذِيِّ رَعَّادِ (٢)

وفي قصيدة أخرى يمدحه، ويمدح آباءه وأجداده، ويصفهم بالكرم والجود والعطاء، فيقول:

صَفَتْ لكَ أَخْلاقٌ له خَالِدِيَّةٌ ... يُضَلَّلُ عنها ذُو الضَّريرِ المُواكِبُ

أَغَرُّ أَسِيدِيٌّ تراهُ كأَنَّهُ ... من الجُودِ يُعْطِي مالَهُ وهْوَ لاعِبُ

فمنْ قالَ عندَ العُسْرِ واليُسْرِ غَيْرُهُ ... منَ الناسِ أَنْدَى راحَةً فَهْوَ كاذِبُ

أبا خالدٍ مَنْ ذَا سِواكَ يَرِيشُني ... من ذا الذي إنْ بِنْتَ يوماً أُعاتِبُ

ومنْ ذَا - ولا أَفْقِدْكَ - بَعْدَكَ أَشْتَكِي ... إليه إذا مَرَّتْ عليَّ النَّوائِبُ

إذا عِشْتَ لي حتى أَمُوتَ فلا أَسَلْ ... خِلافَكَ في عَيْشٍ وما حُمَّ واجِبُ

ولا أنا أَشكو ما بقيتَ مُلِمَّةً ... وما أنا في عيشٍ خِلافكَ راغِبُ (٣)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٩٣٩.

(٢) فرعتهم: علوتهم، رواياه: الذين يرتوون الماء، الآذِيُّ: كثرة الماء، فلج: نهر، رعاد: غزير، شبهه بنهر غزير.

(٣) المرجع السابق ٢ / ٩٤٨.

والمهم أننا نلاحظ في هذا المدح بعضَ التزلُّف والتملُّق، ثم إن المعاني التي يمدحه بها لا تحدد صفة خاصةً بالممدوح، لأنها صفات عامة تصلح لأيِّ شخص كان، أو لأيِّ ممدوح آخر. انظر إليه كيف يختم قصيدته وكيف يصفه بالكرم وأنه معين لا ينضب، فيقول:

لأَنْتَ أَمَنُّ اليومَ من فَيْضِ سَيْبِهِ ... علينَا ولو قِيلَ الحَيَا والأخَاصِبُ
سَتُجْدِبُ أحياناً وكَفَّاكَ بالنَّدَى ... تَفِيضَانِ إِثْجاماً فمالَكَ جَادِبُ

وانظر إليه كيف يمدحهم في مقطوعة أخرى، فيذكر أن الكرم يظهر على وليدهم فيراه الناظرون، وأن شبابهم يسودون مُرْداً وقبل أن تنبت لحاهُم، وأن شيوخهم يتصفون بالحُلْم والرأي والحكمة، حين يقول:

إذا نُفِسَ المَنْفُوسُ من آلِ خَالدٍ ... بَدَا كَرَمٌ للنَّاظِرِينَ مُبِينُ
تَبَيَّنَ سِيما سَرْوِهِ قَبْلَ سَبْعَةٍ ... تماماً وَوَجْهٌ واضحٌ وجَبِينُ
يَسُودونَ مُرْداً قبلَ وَصْلِ لحَاهُمُ ... وشيخُهُمُ طَاحِي القِبَابِ ثَخِينُ (١)

وفي قصيدة أخرى يمدحُ بني أَسيدٍ ويفتديهم، ونراه معجباً بكرمهم وشجاعتهم وجمال هيئتهم، ثم أصالة نسبهم ومكانتهم بين العرب، ثم يصفهم بالحزم والعدل في حكمهم، فهم إذا حكموا على قوم أَقرُّوا وليس بعد حكمهم شيء، وذلك حيث يقول:

فِدىً لِبَني أَسِيدٍ حيثُ كانوا ... علَى ما كانَ من حَدَثِ اللَّيَالِي
ضَمِيرِي دُونَ مَنْ لِي مِنْ خَلِيلٍ ... وما جَمَّعْتُ مِنْ أَهْلٍ ومَالِ
كَفَانِي كلُّ أَبْيَضَ خَالِدِيٍّ ... طويلِ البَاعِ مُضْطَلِعِ الحَمَالِ
يُفِيدُونَ القِيَانَ مُقَيَّناتٍ ... كأَطْلاءِ النّعَاجِ بذي طَلالِ
وصُلْبَ الأَرْحَبِيَّةِ والمَهَارَى ... مُخَيَّسَةً تُزَيَّنُ بالرِّحَالِ
وَأَوْجُهُهُمْ تُبَشِّرُ مُعْتَفِيهِمْ ... إذا ماسَلَّمُوا قبلَ السُّؤَالِ

---

(١) المرجع نفسه ٢ / ٩٧٥ ثخين: جيد الرأى ويقال: إنه الحليم الرزين الثقيل.

obeikandl.com

ونَبْعَثُهُمْ نُضَارٌ من قُرَيْشٍ وغَيْطَلُ عِيصِهِمْ دَوْحُ الظِّلَالِ
إذا حَكَمُوا على قومٍ أَقَرُّوا فما مِنْ بعد حُكْمِهِمِ مَقَالُ
وتَحْيَا الأرضُ أَنْ يَمْشُوا عليْهَا وهم زَيْنُ الحَجِيجِ على الجِبَالِ
بَنَى أباؤُهُمْ لِبَنِي أَبِيهِمْ وهم آباؤُهُمْ غيرَ انْتِحَالِ
على ما كانَ أَسَّسَ أوَّلُوهُمْ من المجدِ المُقَدَّمِ والفَعَالِ
دعائِمُ من أُمَيَّةَ راسِيَاتٌ ثَبَتْنَ وفُرْعُهُنَّ أَشَمُّ عالِي (١)

وهناك قصائد أخرى كثيرة قام أبو صخر فيها بمدح أبي خالد عبد العزيز بن عبدالله بن خالد بن أَسيد، ولا مجال لذكرها لأنها كلّها على هذا المنوال.

ومعروف أن أبا صخرٍ كان موالياً لبني مروان متعصباً لهم، وله في عبد الملك ابن مروان مدائح، وفي أخيه عبد العزيز(٢)، وكذلك سعيد بن عبد الملك بن مروان(٣).

ويروي صاحبُ الأغاني قصة خلاصتها: أن أبا صخر وهذيلاً جاؤوا إلى عبد الله ابن الزبير ليقبضوا عطاءهم حين غلب ابنُ الزبير على الحجاز، وكان ابنُ الزبير عارفاً بهوَى أبي صخرٍ في بني أمية، فمنعه عطاءه. وحدث بينهما هُجْرٌ من القول، فحبسه ابن الزبير في سجن عارم، ثم أطلقه بعد سنة، فلما ولي عبد الملك وحج لقيه أبو صخر فقربه وأدناه(٤). وأَنْشدهُ قصيدة بدأها بذكر الأطلال والديار، ومطلعها:

عَفَتْ ذاتُ عِرْقٍ عُصْلُهَا فَرِئامُهَا فَدَهْنَاؤُها وحْشٌ وأَجْلَى سَوَامُهَا (٥)

وفيها يمدح عبد الملك ويشيد بشجاعته حين قضى على ابن الزبير،وكيف أنه دخل مكة ورمى بها بالرجال من أهل الشام ـ وهي أرضُ الزيتونِ ـ بعد أن غُلبت على أمرها، واسْتُحِلّ حرامها أيام ابن الزبير، الذي يصفه بالإلحاد والفسق والفساد، ثم

---

(١) المرجع نفسه ٢/٩٦٣ الحَمال: ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أوغرامة.
(٢) الأغاني ٢٣/٢٦٨ طبعة بيروت.
(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢/٩٧٦.
(٤) الأغاني ٢٣/٢٧٠ طبعة بيروت.
(٥) المرجع السابق والصفحة نفسها، وعصل: موضع.

يصف شجاعَة عبد الملك وبطولة جيشه وعسكره، وكيف أنهم طهَّروا مكَّة ودخلوها وقضوا على ابن الزبير، وذلك حيث يقول:

وإنَّ أَمـيـرَ المؤمنينَ الذي رَمَى ... بِجَأْواءَ جَمهورٍ تَسيلُ إكامُها
من أرض قُرَى الزيتونِ مكَّةَ بعدمَا ... غُلِبْنا عليها واسْتُحِلَّ حَرامُها
وإِذْ عاث فيها الناكثونَ وأَفْسَدُوا ... فَخِيفَتْ أَقاصيها وطار حَمامُها
فَشَجَّ بهم عُرْضَ الفَلاةِ تَعَسُّفاً ... إذا الأرضُ أَخْفَى مستواها سَوامُها
فَصَبَّحَهُمْ بالخيلِ تَزْحَفُ بالقنا ... وبيضاءَ مثْلِ الشمسِ يَبْرُقُ لامُها
لهم عسكرٌ ضافي الصفوفِ عرمرمٌ ... وجُمْهُورَةٌ يثْني العدُوَّ انْتِقَامُها
فَطَهَّرَ منهم بطنَ مكَّةَ ماجِدٌ ... أَبَى الضيمَ والمَيْلاءَ حين يُسَامُها (١)

وقال أبو صخر يمدح سعيد بن عبد الملك بن مروان، وهو سعيد الخير:

سعيدَ الخَيْرِ إنَّا قد ضَمِنَّا ... له نُصْحاً ووُدّاً لَنْ يَبِيدَا
أَصَابَ أبو سعيدٍ حينَ سَمَّى ... سعيداً حين سَمَّاهُ سَعيدَا
فما طَلَعَتْ كَواكِبُهُ بِنَحْسٍ ... ولكنْ كُلُّهَا كانت سُعُودَا
فَلَمَّا قارَبَ العِشْرِينَ قَادُوا ... إليهِ الأَمْرَ مَيْموناً رشِيدَا (٢)

وهكذا نرى أن المدح عند شعراء هُذَيْلٍ قد ازدهر في العصر الأموي،واشتهر فيه من الشعراء أميةُ بن أبي عائذ، وأبو صخر،وعرفنا أن الثاني قد اشتهر بمدائحه الكثيرة لبني أمية،ولا سيما بني أَسِيد، الذين أطال في مدحهم بفضائل الصفات كالكرم والشجاعة والنخوة وعلو النسب وشرفه ونحو ذلك،مما يدل على أنه كان يرغب في عطاياهم،ونستطيع أن نقرر بعد ذلك أن أبا صخر كان شاعر بلاط، يمدح الأمراء وينال عطاياهم.

---

(١) المرجع نفسه ٢٣ / ٢٧١ وانظر كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٩٥٣ وهناك اختلاف في الرواية والزيادة.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٩٧٦.

واتضح كذلك أن الهذليين لم يُعْرَفوا بالمدح ولا سيما في الجاهلية وصدر الإسلام، كما اتضح أن معانيهم في المديح كانت معاني عامة تدور حول الصفات الكريمة التي أشرنا إليها قريباً،وإن كانوا لا يحددون صفة في الممدوح تخصه دون غيره من الناس.

٧- الهجـــاء:

والهجاء ضدُّ المدح فإنه يكون بسلب المرء ما يعتزُّ به من فضيلةٍ أو رميه بما ينفر منه من رذيلة، وهو تعبيرٌ عن آثارِ عاطفة السَّخط والغضب تجاه شخصٍ يَبْغُضُهُ الشَّاعرُ أو جماعةٍ يريدُ أن ينتقمَ منهم، والشَّاعرُ الهاجي إنما يتنفس بأهاجيه عما يعتلج في صدره من ضغائن وأحقادٍ، وما يطوي في فؤاده من فرك وكراهية، ولذلك كان الهجاء سلاحاً من أسلحةِ القتال لشدَّة تأثيره في النفوس، وتحطيمه لمعنويات الخصوم والأعداء.

ويرتبط الهجاءُ عادةً بالحروب ويزدهر بازدهارها، وكثيراً ما يسبقها، وإن الحربَ أوّلُها الكلام، فشأنه في هذا شأن شعرِ الحماسة، وكثيراً ما يختلط بالقصائد الحماسية، وخاصة الشعر الذي يتناول الهجاء القبلي، وقد يرتبط الهجاء أحياناً بالوعيد والتهديد، والانتقاص من أقدار الخصوم، والبحث عن معايبهم ومثالبهم.

وقد سبق أن هُذَيْلاً كانت مشهورةً بكثرة الأيام والحروب، وكان الهجاءُ عندهم أثراً من آثار حبِّ الانتقام والتشفي والثأر، وكان يقوم على سلبِ المعاني الكريمة والمثل العليا، فالشاعرُ إنما يهجو خصمَهُ بالغدرِ والخيانةِ والجُبْنِ والقعودِ عن المكارم والهزيمة واللؤم والبخل وما إلى ذلك من الصفات التي يراها العربي عاراً فيبرأ منه.

فهذا أبو المُوَرِّق يهجو بكراً وبني أَشْجَعَ، وكان هو وصاحب له قد انتجعا سَرِفاً،ثم حدث أن أخصبت بلادهما،فمضى أبو المُوَرِّق إلى بلده وأقام الآخر بسَرِفٍ، فأتاه رجلان من بكرٍ ثم من بني أَشْجَع ينزلان المُغَمَّس ، فقالا له: علامَ تقيم ها هنا وحدَك؟ انطلق معنا إلى منزلنا من المُغَمَّس فإنه مُخْصِبٌ فانطلق معهما، فما كان منهما إلا أن قتلاه، وأخذا ماله، فقال في ذلك أبو المُورِّق:

تَرَكْتُ العادَ مَقْلِيّاً ذَميماً ... إلى سَرِفٍ وأَجْدَدْتُ الذَّهابَا
وكنتُ إذا سَلَكْتُ نِجادَ أَرْضٍ ... رأَيْتُ على مَراقِبِها الذِّئابَا
إذا نَزَلَتْ بنو لَيْثٍ عُكاظاً ... رأيْتَ على رُؤُوسِهِمِ الغُرابَا
غَدَرْتُمْ غدرةً فَضَحَتْ أَباكُمْ ... وثَبَّتَتِ المُغَمَّسَ والظِّرابَا
ولو جاوَرْتُمُوهُ في هُذَيْلٍ ... لَرَدَّكُمُ وأُمَّكُمُ العُنابَا (١)

فنرى أنَّ أبياته تدورُ حولَ الغدرِ والخيانة، وذلك أبشعُ ما يُرْمَى به العربي، لا سيما إذا كان المَجْني عليه جاراً له، فهذه الغَدْرَةُ فضحَتْهم أمامَ النّاسِ حتى إنهم كانوا إذا نزلوا عكاظاً دلَّ عليهم الغرابُ، وهو يحوم فوقَ رؤوسهم، ولم ينسَ الشاعرُ في النهاية أن يعرض لقومه، وكيف أنهم كانوا حريصين على حمايةِ الجارِ وإرضائه.

وهذا أبو خِراش يهجو بني بكرٍ ويحرض عليهم، لأنهم لا يحفظون الجارَ ولا يحمونه، بل يقتلونه، فهم لا عهدَ لهم، فيقول:

أَبْلِغْ عليّاً أَطالَ اللهُ ذُلَّهُمُ ... أَنَّ البُكَيْرَ الذي أَسْعَوْا به هَمَلُ
السِّلْمُ سِلْمٌ ولا يَنْفَكُّ ضِغْنُهُمُ ... أو يَنْحَرَ البَكْرَ منّا مَرَّةً رَجُلُ
إذا أَجَارُوا عَوَى في بيتِ جَارِهِمُ ... إمَّا حِرابٌ وإمَّا مِثْلَهُ قَتَلُوا
كم من عَقِيدٍ وجارٍ حَلَّ عِنْدَهُمُ ... ومِنْ مُجَارٍ بِعَهْدِ اللهِ قد قَتَلُوا (٢)

فنراه يهجوهم بعدمِ حمايةِ الجارِ، وبالغدرِ الذي يتنافى مع الأخلاق العربية.

أما المُتَنَخِّل فهو يهجو ناساً من قومه كانوا مع ابْنِه حَجَّاج يوم قُتِلَ، ونراه يدعو عليهم بألا يؤخر اللهُ آجالَهم، بل يعجل في موتهم وفنائهم، جزاء هُروبهم وفرارهم من القتال، ومن عَدُوهم مسرعين كما يطير النعام. فكانت هذه فضيحة لهم لأنهم لم يشهدوا القتالَ، بل فروا هاربين وفضلوا الدِّيَةَ والسلامة على ذلك، وذلك حيث يقول:

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٧٧٩ عاد: بَلدَة، النجاد: ما غلظ من الأرض، مَراقبُها: أعلامٌ تقوم فوقها الحراسُ، بنو ليث: من كنانة، المُغَمَّس: موضع بمكة، الظَّرِبُ: أصغرُ الجبال، العُناب: البظراء، ويقال: العناب اسمها.

(٢) المرجع السابق ٣ / ١٢٣٩ حراب: من المحاربة، العقيد: الحليف.

لا يَنْسَإِ اللهُ منَّا مَعْشَراً شَهِدوُا ... يوم الأُمَيْلحِ لا غَابُوا ولا جَرَحُوا
كانوا نَعَائمَ حَفَّانٍ مُنَفَّرَةً ... مُعْطَ الحُلوقِ إذا ما أُدْرِكُوا طَفَحُوا
لا غَيَّبوا شِلْوَ حَجَّاجٍ ولا شَهِدُوا ... جَمَّ القتالِ فلا تَسْأَلْ بما افْتَضَحُوا
عَقَّوْا بِسَهْمٍ فلم يَشْعُرْ به أَحَدٌ ... ثم اسْتَفَاؤُوا وقَالُوا حَبَّذا الوَضَحُ (١)

ومهما يكن من شيء فإنَّ الشعراءَ الهُذليين كانوا يقتصدون في الإقذع، ولا يسرفون في السَّبِّ وذِكْرِ المثالب، وكانوا يقفون دائماً عند الصفات المذمومة، كالبخل والجبن والغدر والخيانة وعدم الوفاء، من غير أن نرى نُبُوّاً أو إقذاعاً أو إفحاشاً في القول، اللهم إلا في حالاتٍ قليلةٍ نادرةٍ نرى فيها بعضَ الشعراءِ ينحدرون نحو الإفحاش والإقذاع.

فهذا ساعدة بن جُؤَيَّةَ يهجو امرأةً من بني الدِّيل بن بكرٍ،ونراه يصفُها بالجشع والنَّهَم والتزيد في المأكل،ويذكر أنها كثيرة الحركة والحَكّ نتيجة ما بها من الجَرب، ثم يزيد على ذلك فيصفها بالدعارة والفجور، حيث يقول:

فيمَ نساءُ الناسِ مِنْ وَتَريَّةٍ ... سَفَنَّجَةٍ كَأَنَّها قَوْسُ تَأْلَبِ
لها إِلْدَةٌ سُفْعُ الوُجوهِ كأنهمْ ... نِصَالٌ شَرَاهَا القَيْنُ لَمَّا تُرَكَّبِ
إذا جَلَسَتْ في الدارِ يوماً تأَبَّضَتْ ... تَأَبُّضَ ذِئْبِ التَّلْعَةِ المُتَصَوِّبِ
شَرُوبٌ لماءِ اللّحْمِ في كلِّ صَيْفَةٍ ... وأنْ لم تَجِدْ مَن يُنْزِلُ الدَّرَّ تَحْلُبِ
نُفاثِيَّةٌ أَيَّانَ ما شاءَ أَهْلُها ... رَأَوْا فُوقَها في الخُصِّ لم يَتَغَيَّبِ
إذا جَلَسَتْ في الدارِ حَكَّتْ عِجانَها ... بِعُرْقُوبِها مِنْ نَاخِسٍ مُتَقَوِّبِ (٢)

ثم نراه يزيد في الفحش فينهش الأعراض ويكشف عن العورات، فيقول:

---

(١) المرجع نفسه ٣/ ١٢٧٨ لا ينسأ: يريد لا يؤخر الله آجالهم، طفحوا: عَلَوْا وذهبوا في الأرض، أي: عَدَوْا، نَعائم حَفّانٍ، أي: صغار النعام، معط الحلوق، أي: تمعطت من الريش فلا ريش عليها، جم القتال: معظمه، شِلْوُ كل شيء: بقيته، عقوا بسهم، أي: رموا به في السماء، استفاؤوا: رجعوا، حبذا الوضح، أي: قالوا حبذا اللبن نرجع إليه.

(٢) المرجع نفسه ٣/ ١١٥٠ سفنجة: سريعة، تألب: نبت، سفع الوجوه: حمر الوجوه، شراها: اشتراها، القين: الحداد، الفوق: الفرج، الناخس: الجرب، المتقوب: المتقشر.

إذا مُهِرَتْ صُلْباً قليلاً عُراقُهُ تقولُ ألا أَرْضَيْتَني فَتَقَرَّبِ
مُصَنْتَعُ أَعْلَى الحَاجِبَيْنِ مُسَبَّلُ لهُ وبَرٌ كأنَّهُ صُوفُ ثَعْلَبِ

ومن ذلك ما قاله أبو أراكه الصاهليُّ، وكانت أخت تأبط شرّاً قد أُنْكِحَتْ طُرَيْفَةَ ابن أَسَيْد النُّفاثي من كِنانة، فقال أبو أراكة في ذلك، ونراه يقذع ويفحش في القول ويكشف عن العورات، حيث يقول:

لَحَى اللهُ قوماً أَنْكَحُوا بنتَ خَيْرِهِمْ بنِي صَارِمٍ يَبْغونَها شَرَفَ المَجْدِ
فلا تَأْكُلي خُصْيَيْ حُبَيْشٍ وأَيْرَهُ هَوَيْتِ ولا ما يَشْتَوُونَ من الجِلْدِ (١)

قال أبو عبد الله: يزعمون أن رجلاً نزل على بني شِجْعٍ من كِنانة، فأكلوا خُصْيَيْه(٢).

على أننا إذا قرأنا جُلَّ هجائهم نجده يقف دائماً عندَ الصفات المذمومة كالبخل والجبن وعدم الوفاء والغدر والفرار من مواضع القتال، ولنقرأ مثلاً ما قاله ساعدة بن العجلان حين هجا حُصَيْباً الضَّمْري بقصيدة مطلعها:

ألا يا لَهْفُ أَفْلَتَني حُصَيْبٌ فَقَلْبِي مِن تَذَكُّرِهِ عَمِيدُ (٣)

ويقول فيها

ومالَكَ إِذْ عَرَفْتَ بَني خُثَيْمٍ وإِيَّاهُمْ على عَمْدٍ تَكِيدُ
تَرَكْتَهُمُ وظِلْتَ بِجَرِّ يَعْرٍ وأَنتَ كذاكَ ذو خَبَبٍ مُعِيدُ
أَقَمْتَ به نهارَ الصَّيْفِ حتَّى رأَيْتَ ظِلالَ آخِرِهِ تَؤُودُ
غداةَ شُواحِطٍ فَنَجَوْتَ شَدّاً وثَوْبُكَ في عَماقِيَةٍ هَرِيدُ
ولولا ذاك لا قَيْتَ المنايَا صُرَاحِيَةً وما عنها مَحِيدُ
فلا تَعْرِضْ لِذِكْرِ بَني خُثَيْمٍ فإِنَّهُمُ لدى الهَيْجَا أُسودُ (٤)

---

(١) المرجع نفسه ٢/٧٣٧ لحى: قبح وأظهر سوآتهم، هويت: سقطت.
(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها.
(٣) ديوان الهذليين ٣/١٠٧ والعميد: المثبت الشديد الأمر من الوجع.
(٤) بنو خُثَيْم: من هذيل، تكيد: تطلب وتريد، الجرّ: ما غلظ من الجبال، يَعْرٌ: جبل، مُعِيْد: معاود قد جرب الأمور، عماقية: شجرة، هَريد: مشقوق، صراحية: خالصة.

فنراه يقف عند صفات الجبن والفزع والفرار من الموت، والشاعر لا يعنيه من حُصَيْبٍ إلا فراره وجبنه،ولا شك أنه بهذا الهجاء ينفي عنه أخصَّ المحامد التي يعتز بها العرب، والمهم أننا نلاحظ الاتزان في هذا الهجاء وعدم المبالغة فيه، ونرى الشاعرَ لا يسرف في السَّبِّ وذكر المثالب،ومن الواضح أننا لا نرى فيه إقذاعاً أو إفحاشاً في القول، أو ذكراً للأعراض والعورات كما سبق ذلك في هجاء ساعدةَ بن جُؤَيّة وأبي أراكة.

وكثيراً ما كان الهجاء يتدرج إلى نقائض بين شاعرين يُعْنَى كلٌّ منهما بإفساد ما يقرره الآخرُ، وسواء كان الهجاءُ مناقضةً أو غير مناقضةٍ نراه يقف دائماً عند الصفات المذمومة عند العرب كالبخل والجبن والغدر، ونحو ذلك من الصفات التي كانوا يترفعون عنها.

وهذا قَيْسُ بن خُوَيْلد المعروف بابن العَيْزارة يهجو تأبط شرّاً وقومه فَهْماً ، وذلك حين أَسرَتْه فَهْمٌ وأَخَذَ سلاحَه تأبط شراً وهو ثابت بن جابر بن سفيان من فَهْمٍ، ولما نَجَا من فَهْمٍ وأفلت منهم، قال في ذلك قصيدةً منها:

ويأمُرُ بي شَعْلٌ لأُقْتَلَ مُقْتَلاً ... فقلتُ لشَعْلٍ بئسِ ما أنتَ شافِعُ

ويُصْدِقُ شَعْلٌ مِنْ فِدائي بَكْرَةً ... كأنَّكَ تُعْطِي من قِلاصِ ابْنِ جامِعِ

سَرَى ثابتٌ بَزِّي ذَميماً ولَمْ أكُنْ ... سلَلْتُ عليهِ شَلَّ مِنِّي الأَصَابِعُ

فَيا حَسْرَتا إذْ لم أُقاتِلْ ولم أُرَعْ ... من القَوْمِ حتَّى شُدَّ مِنِّي الأَشاجِعُ

فَوَيْلٌ بِبَزٍّ جَرَّ شَعْلٌ على الحَصَا ... فَوُقِّرَ بَزٌّ ما هُنالكَ ضائعُ

فإنَّكَ إذْ تَحْدُوكَ أُمُّ عُوَيْمِرٍ ... لَذُو حاجَةٍ حافٍ من القومِ ظالِعُ (١)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٥٩١ شَعْلٌ: لقب تأبط شرّاً، يُصْدِقُ، أي: يُصْدِقُ أهلَه بَكْرَةً من فدائي الذي أُفدى به وهو يهزأ به، ابن جامع: رجل من بني المُصْطَلِق كان ذا إبل كثيرة، سَرا ثابتٌ: يعني تأبط شرّاً، أي: خَلَعَه وسَلَبَه حين أسرَه، ذميماً، أي: غير محمود، شَلَّ مني الأصابع: دعاء على نفسه لأنه لم يقتله، وَيْلٌ بِبَزٍّ: يتعجب منه، وبزه: سلاحه، وُقِّرَ: صارت فيه وَقَرات، أي: هَزَمات بالسيف، حافٍ ظالِع: لا يقدر على الهرب منها وهو مثل.

obeikandl.com

فنراه يشتم تأبط شرّاً الملقب بشَعْلٍ، لأنه أخذ سلاحه حين أُسِرَ، والشاعرُ يلوم نفسَه لأنه لم يعاجله بالسيف فيقتله، ثم يرميه بالضعف والجبن، حتى إنَّ الضَّبُعَ أمَّ عُوَيْمرٍ تتبعه ليُقْتَلَ فتأكلَ منه، لما تعرف عنه من الضعف والخور، فهي تطمعُ في مَقْتَلِه لتأكلَ من لحمه.

فقال تأبط شرّاً يجيبُ قيسَ بن خويلد:

إنَّــكَ لا بَــزّاً مَــنَـعْــتَ ولا يَــداً	وإن السـيــوفَ بالأكُفِّ شـوارِعُ
غَدَاةَ تقولُ قد مَلَكْتُم فأَسْجِحُوا	وإنِّي لِمـا أَسْلَكْتُـمـونِي لَتَـابِعُ
فـو اللهِ لَوْلاَ ابْنَا كِـلاَبٍ وعَـامِـرٌ	بَعَـوْا أَمْـرَ غَـيَّـاتٍ هُمُ والأَقَـارِعُ
لجَـامَـعْتُ أَمْـراً ليسَ فـيـهِ هَوَادَةٌ	ولا غُـضَّـةٌ وليسِ فـيـه تَنَازُعُ (١)

فنراه في أبياته يفسدُ ما قرره قيس بن خويلد، ويقلب عليه المعنى، ثم يرميه بالضعف والجبنِ والخورِ،حتى إنه ليقسم أنه لولا ابنا كلاب وعامرٌ لقتله بدون تردد. ثم نرى قَيْساً يأبى على نفسه السكوت ويغضب ويجيبه بشيء من العنف ويفحش في الردِّ عليه، وكل همه أن ينال منه ومن أبيه وأمه، يقول:

أَثابُت أَيْرَ الذِّئْبِ فـيمَ هَجَـوْتَـنِي	وقـد عَلِمْ الأَقْـوَامُ إنِّي لَشَـانِعُ
لَعَـمْـرُ أَبيْكَ جابرٍ شارِبِ الصَّـبا	وأُمِّكَ ذِئْبـاً وَسْطَ فِـرْقٍ بِواضِعُ (٢)

ولقد كان الهجاءُ يثور بين شُعراء هُذَيْلٍ وغيرهم لأتفه الأسباب، ومن ثم يتدرج الهجاءُ إلى نقائضَ، فيروى أن عمرَو بنَ جُنَادة الخزاعيَّ كان رجلاً يهجو الناسَ،وكان ذَرِبَ اللسان فاحشَه، وكان من بني لِحْيان من هُذَيْلٍ رجلٌ مثلُه كذلك، يقال له عَمرو ابن هُمَيْل، فذكر هذا لعمروِ بن جُنادة، وبينما كان عمرو بن هُمَيْلٍ اللحْيانيُّ بسوق منىً إذ فاجأه رجلٌ قد أخذَ بمنكبه وقال له :مَن أنت، قال: أنا رجل من بني لِحْيان مِن هُذَيْلٍ، فقال له: مرحباً بك، قد ذُكِرْتَ لي وقد أحببتُ أن أكسوكَ ردائي هذا،

---

(١) المرجع السابق ٢ / ٥٩٥ ولا يدا، أي: أُسِرْتَ، شوارع، أي: يُضرَبُ بها، أَسْجِحوا، أي: هوِّنوا وسهلوا، أسْلَكْتُموني: حملتموني عليه، بَعَوْا: جنَوْا، غَيّات: من الغيِّ، لجامعت أمراً، أي: لقتلتك، هوداةٌ: سكونٌ، غُضَّة: منقصة واستحياء منه.

(٢) المرجع نفسه ٢ /٥٩٦ الشانع: المشهور ويقال الهاجي المؤذي، شارب الصبا: يستنشق الريح، فِرْق: قِطعة من الغنم، الباضِعَة: قطعة انقطعت من الغنم.

وكان ثوباً مطوياً جديداً. وما كان قصدُ الخزاعي بذلك إلا أن يهجوه. فشكره ابن هُمَيْل اللحْياني وأخذ البُرْدَ وجعلَه على منكِبَيْه ثم رجعَ به إلى أهله وأخبرهم بأن رجلاً صالحاً لقيه وأهداه إياه.

ولما سألوه عن اسمه وذكره لهم، قالوا: ففي الخيبة سقطت! فذلك أفحشُ الناسِ وأموَتُه(١) على الشي!. ثم أمروه أن يطويَ الثوبَ عنده حتى يعلم الخزاعيُّ أنه قد أبلاه، وأعلموه أنه سيسمع منه أذىً وهجاءً بعد ذلك، ففعل.

ثم علم أنَّ الخُزاعيَّ يتغني بهجائه، فخرج ابنُ هُمَيْل اللحْيانيُّ بالثوب حتى جاء به ساحة الدار التي بها عَمرُ بن جُنادة الخزاعيُّ، فربطه بين شجرتين وترك الريحَ تضربُ به، فأصبحوا فرأَوْا الثوبِ وقالوا له: هذا الثوبُ الذي كسوتَ عَمرَو بن هُمَيل، والله لَيُقطِّعَنَّا وإياك بالهجاء، ولا والله ما علا جِلْدَه حين أخذَه!(٢).

فقال عمرو بن جنادة الخزاعيَّ يهجو عَمرو بنَ هُمَيل اللحياني:

فلا والله لا أَكْسُو غُلاماً ... دَعَا لِحْيَانَ يوماً ما حَييتُ
وقالوا خَيْرُنا عَمْرٌو فلما ... كَسَوْتُ الثوبَ خَيْرَهُمُ لُحِيتُ
لقد أَسْرَفْتُ حينَ كَسَوْتُ ثَوْبِي ... مَزابِدَ بالحِجَازِ لها كَتِيتُ
يَظَلُّ رئيسُهُمْ بالسيفِ صَلْتاً ... إذا ما قِيلَ قد ضَحِيَ الحَمِيتُ (٣)

فنراه يقسم ألا يكسو أحداً من بني لِحْيان في حياته، لأنه كسا خيرَهم وهُجِيَ وشُتِمَ بسبب ذلك، ثم يرميه وقومه بالبخل والشحِّ والفقر وشدة الحاجة، حتى إن رئيسهم يظل شاهراً سيفه إذا ما أصابت الشمس زقَّ السمن أو الزبد لحراسته.

فأجابه عَمرُو بن هُمَيل اللحْيانيُّ يرد عليه بقوله:

ألا مَنْ مُبْلِغُ الكَعْبِيَّ عَنِّي ... رَسُولاً أَصْلُهَا عِنْدي ثَبِيتُ
فإِنَّكَ لم يُصِبْ بِكَ جَدَّ صِدْقٍ ... هِجاؤُكَ مَعْشَراً وَهُمْ صُمُوتُ

---

(١) أموته على الشيء، أي: أحرصه، يستميت على الشيء.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢/٨١٨.

(٣) المرجع السابق ٢/٨١٩، لُحيت: وَقع فِيَّ وهُجِيتُ وشُتِمْتُ، مَزابد: أسقية، ويقال: جرار، كتيت: صوت، ويقال: غليان، ضَحِيَ: أصابته الشَمس، حَمِيتٌ: زق فيه زبد أو سمن.

فـلا واللهِ أَلْبَسُ ثوبَ عَـمـرٍو ولو قَلَّ الثـيـابُ ولو عَـرِيتُ
كَـسَـوْتَ علَى شَـفَـا تَرْحٍ ولُؤْمٍ وأنتَ علَى دَرِيسِكَ مُسْتَمِيتُ
تَعَلَّمْ أَنْ شَـرَّ فَـتَى أُنَاسٍ وأَرْضَـعَـهُ خُـزَاعِيٌّ كَـتِـيتُ (١)

فنراه يقسم أنه لا يلبس ثوبَ ابن جُنادة ولو قَلَّت الثيابُ وحتى لو عَرِي وبانَ جسمه، لأنَّ هذا الخزاعيَّ الذي كساه على شفا الفقرِ والقلة واللؤم، وهو يستميت على الثوب الخَلَقِ، ثم يصفه بأنه كتيت بخيل ليس أهلاً لمثل ذلك.

ثم نراه يرد عليه دعواه حين عيَّرهُ بسلاَءِ السمن،بأن بيوتَهم شُمٌّ طوالٌ، وأنها أقدم منهم في العزِّ والشرف، ثم يفخر بأبيه هُذَيْل بن مُدْرِكَة،وعمه خُزَيْمة بن مدركة،ومعروف أن خُزيمة بن مدركة هو جدُّ قريشٍ، وهم أشرفُ العرب،فيفخر بأنه قد وَلِيَ العزَّ عن هُذَيْلٍ وخُزيمة وكلاهما أبناء مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَر،وذلك حيث يقول:

تُعَيِّرُنا السِّلاَءَ وما جَمَعْنَا وذلكَ عَـارُهُ عنَّا شَـخِـيتُ
فـإنَّ بُيُـوتَنَا شُمٌّ طِوالٌ وبيـتُكَ لا يُظِلُّ ولا يُبِـيتُ
وإنَّا نحنُ أَقْـدَمُ منكَ عِـزّاً إذا بُنِيَتْ بمَـخْلَفَـةَ البُـيُـوتُ
خُـزَيْمَـةُ عَـمُّنا وأَبِي هُذَيْلٌ وكُـلُّـهُـمُ إلـى عِـزٍّ وَلِـيتُ (٢)

وهكذا نرى أنَّ الهجاءَ كان يقومُ على سَلْبِ المعاني الكريمة والمثلِ العليا،وأن الشاعرَ كان يهجو خصمَه بالغدرِ والخيانة والجبن والهزيمة والفرار من القتال، ثم البخل واللؤم وما إلى ذلك من الصفات التي يراها العربي عاراً يبرأ منه، وأن صورَ الهجاء عندَهم كانت مستمدة من البيئة البدوية، ومن العرف السائد فيما بينهم.

واتضح أن الهجاءَ عند هُذَيْلٍ يمتازُ بقصر القصائد فكان أكثره مقطعات، وبأنه كان لا يَنْحَدِر -في أغلب الأحوال- إلى الإقذاع والشتم الواضح والإفحاش في القول،

---

(١) المرجع نفسه ٢ / ٨٢٠ جَدٌّ: حَظٌّ، ألبس، أي: لا ألبس، الشفا: الحرف، الترح: الفقر والقلة، الدريس: ثوب خلق، كتيت: بخيل.

(٢) شخيت: ضعيف، مخلفة: منىً حيث ينزل الناس، وَلِيت، أي: وليتُ ذلكَ منه.

بل كان يعتمد على سلبِ المعاني الكريمة. وهذا يعد في الواقع ميزة لهجائهم في سيرورته وشهرته، ويرى كثير من النقاد أن قصر الهجاء وعفته هما أول أسباب رواجه وشهرته[1]. وقد رأينا أنَّ الهجاء كان يتدرج أحياناً إلى نقائض بين الشعراء، وسأتحدث عن ذلك في الفصل القادم.

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب د. أحمد أحمد بدوي ص٢٥٨.

obeikandl.com